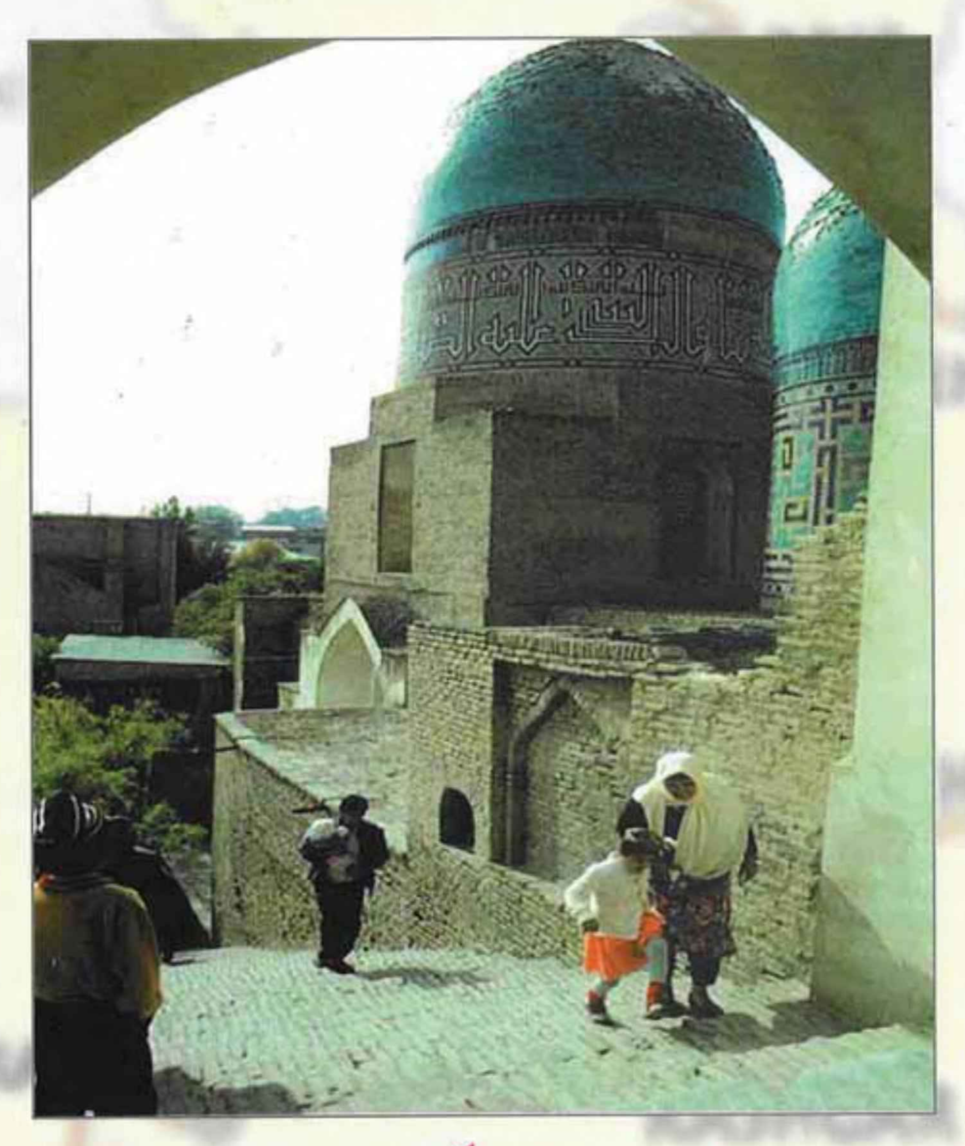
الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣٠٤ - شوال ١٤٢٢ هـ - ديسمبر ٢٠٠١ م/ يناير ٢٠٠٢م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 304- DEC. 2001 / JAN. 2002



قصر تاجموت

يهود أمريكا وموقفهم من إسرائيل

معدلات الصرف: العلاقة بين الاقتصاد والسياسة

الكرنك متحف بلا جدران

علم الكون: عصور زاهية وحاضر حائر

مؤلفات تستغرق الأعمار

ثيلا وحوار لا تنقصه الجرأة والوضوح!

طريق الحرير..

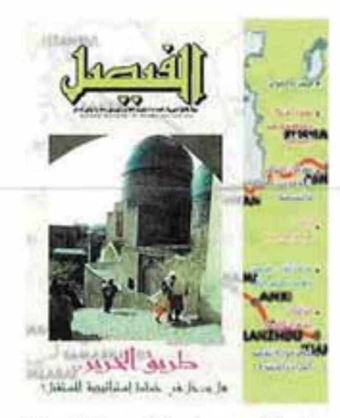
هل يدخل في خطط إستراتيجية المستقبل؟



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

مـجلة ثقـافيـة شـهـرية ـ العـدد ٣٠٤ ـ شـوال ١٤٢٢ هـ ـ ديسـمـبـر ٢٠٠١ م/ ينـاير ٢٠٠٢م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 304 - DEC. 2001 / JAN. 2002



طريق الحرير واستراتيجية المستقبل!

في أواخر عقد الثمانينيات أعلنت منظمة اليونسكو خطة ترمي إلى بعث مشروع طريق الحرير بمساريْه البري والبحري، وقد كـان هذا الطريق منذ القرن الثاني قبل الميلاد شريان الثقافة والتجارة بين الشرق والغرب، وأهم الطرق في التاريخ، إذ ارتاده رحالون عظام من أمثال ابن بطوطة، وماركوبولو، وشيان تونغ، وسار عليه الإسكندر الأكبر، وهولاكو، وتيمور لنك، وجحافل جنكيز خان، وظل الطريق الذي يربط بين المتوسط والصين مدة لا تقل عن أربعة آلاف سنة.. فماذا لو عاد هذا الطريق إلى الحياة؟! وما الآثار المستقبلية المتوقعة لهذه العودة؟!

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:
١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات اللازمة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

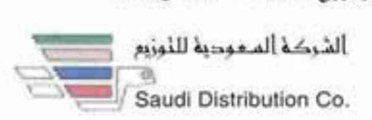
الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة السعودية للتوزيع ـ هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢)، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢... سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١. ٩٦٣... تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ - ١ - ٢١٦... قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤... الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦. ٩٦٢... البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣... الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١... الجزائر ـ مؤسسة E.B.D.PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣... الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥... السودان شركة النحوي للتجارة والتوزيع ص.ب ١٠٣٧١ ت: ٧٧١٥٤٧/٢٧ فاكس ٧٧٤٣٣٦، المغرب SOCHPRESS - CASABLANCA - TEL:2400223, Fax:00212-2404041/32 - MOROCCO باكستان PAKISTAN
PARADIS BOOKS & DISTRIBUTORS- KARACHI 75400, TEL:4314981/2 FAX: 0092-21-4554410.
الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢١٨٦١٥ - ٣ - ٩٦٧ فاكس ٢٢٢٢٢٨





مطابع هلا
٤٨٢١٣١٣

مجلة خاصة بالاستشراق

مما راقني وأعجبني في العدد (٣٠١) من مجلة الفيصل الغراء قراءة مقالة بعنوان «آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية» وقد أفدت واستمتعت كثيراً جداً بهذه القراءة في هذا الكتاب الجيد.

ولست بصدد إعادة ما ذُكر في القراءة، ولكن بصدد ما ذكره الكاتب من سبل مواجهة الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، وهي نقاط عظيمة جداً جمعت فأوعت وجاءت قاطعة مانعة لا ينقصها إلا الخروج من حيز الدراسة النظرية إلى التطبيق العملي لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ولكن هناك سبيل أود إضافته إلى ما سبق من السبل التي ذكرها الكاتب، ولست أدري أكانت هذه السبيل قائمة وموجودة أم لا؟ ولكن أتحدث في حدود علمي والسبيل التي أقصدها هي إصدار مجلة خاصة فقط بمواجهة آثار الاستشراق تتابع كل مُستجد في هذا الصدد باستقراء كامل قدر الإمكان ثم دراسة آثار الاستشراق منذ بدأ حتى العهد الحاضر دراسة مستفيضة شاملة طولية وعريضة.

وللمجلة ما ليس لغيرها من السبل والمزايا التي نذكر بعضها وتتمثل في الآتي:

- سهولة الحصول عليها لرخص ثمنها وقلة تكاليفها ومناسبتها للسواد الأعظم من القراء.
- عمق وسعة انتشارها. فالمجلة لها من الانتشار ما ليس لغيرها من السبل الأخرى.
- شمولها وتغطيتها لآثار الاستشراق قديماً وحديثًا لما لها من استمرارية وتنوع وتباين في الكتابات والأفكار والآراء.
- ملاحقة كل مُستجد في هذا الصدد - كما ذكرت آنفًا - مما لا تستطيع السبل الأخرى ملاحقته بالمستوى نفسه من الشمول والسرعة. وربما تكون ثمة فوائد أخرى لم تسعفني ذاكرتي ولعل القارئ الفطن الأريب يدركها ويتفطن إليها.

وختاماً تحياتي للكاتب على ما ذهب إليه من أفكار نفيسة قيمة، وعلى عرضه لهذا الكتاب النفيس القيم، وكذا آمل أن تظل مجلة الفيصل درة في عالم الدوريات تتحفنا دائماً بكل مفيد وجيد.

محمد نجيب لطفي

العدوة - الفيوم - مصر.

التحرير:

نشكر لك هذا الاقتراح الذي نأمل أن يجد طريقه إلى التنفيذ من خلال الجهات المسؤولة والمختصة في هذا الشأن.

ما أسباب التأخير؟

لماذا تتأخر المجلة في وصولها إلى اليمن؟ سؤال أود أن أتلقى إجابة عنه.

لقد وصلنا العدد رقم ٣٠١ رجب ١٤٢٢هـ، في آخر شهر رجب، وهناك مجلات مماثلة تصل إلينا أول الشهر ولا تتأخر أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة إلا في حالات نادرة.

إن مجلة الفيصل من المجلات العربية الرائدة التي احتلت مكانة مهمة لدى المثقف العربي، لذا أتمنى أن تعالجوا مشكلة هذا التأخير الذي نعاني منه شهريًا والذي لا يقل عن أسبوعين أو ثلاثة أسابيع كل شهر، وقد وصل في شهر رجب إلى ٤ أسابيع، أي الشهر كله.

الغريب أن الوكيل المسؤول عن التوزيع في اليمن هو نفسه وكيل مثيلاتها من المجلات التي تصل إلينا في موعدها.

أملي أن تصل المجلة بانتظام أول كل شهر عربي، والله أسأل أن يكلل جهود الجميع بالتوفيق.

منصور سليمان عبدالله

تعز - اليمن.

التحرير:

من أسباب التأخير أن هناك ترتيبات جديدة خاصة بالشحن الجوي، ويتم الآن التنسيق من أجل تجاوز العراقيل التي ينتج منها التأخير، والعدد الذي أشرت إليه تحديدًا وراء تأخر وصوله إلى كثير من الدول التي توزع فيها المجلة أسباب فنية نأمل ألا تتكرر.

تحية

إنني لا أستطيع أن أعبر لكم عما يختلج في أعماقي من إعجاب بمجلتكم الغراء «الفيصل» هاته المجلة الثقافية المهمة التي رسخت في القلوب منذ ظهورها فأنا مسرور جداً بهذه المجلة فهي تساهم في تنمية الفكر، وصقله، وتسعى جادة إلى إبراز كل ما يتعلق بالثقافة.

أخبركم يا إخواني أن مشكلة عدم وصول مجلة الفيصل إلى منطقة أولف الجزائرية مازالت قائمة إلى يومنا هذا، وأولف هي منطقة صحراوية تقع جنوب غرب العاصمة الجزائرية وهي منطقة تزخر بمعالمها التاريخية المتميزة، وكذلك عاداتها وتقاليدها، وأتمنى أن يسلط الضوء عليها، فهناك ما يستحق التحقيق والنشر، وأهلا بكم في منطقتنا.

لا يسعني في كلمة الختام إلا أن أقدم لكم تحياتي العربية والإسلامية بمناسبة حلول شهر رمضان المعظم شهر الخير والبركة جعله الله خير طالع يمن للأمة العربية والإسلامية جمعاء.

أشكر لأسرة تحرير مجلة «الفيصل» مجهوداتهم الرائعة من أجل خدمة المصلحة العامة في العلم والثقافة أعانكم الله وسدد خطاكم إلى ما فيه الخير والصلاح.

خالد الراجع
حي سيدي عثمان - دائرة أولف -
ولاية أدرار ١٣٠٠ - الجزائر.

التحرير:

نشكر لك هذا الإطراء، ونفيدك أن مشكلة التوزيع قائمة في كل مناطق الجزائر، ولا تخص منطقة بعينها، لأسباب ضريبية وإدارية شملت الكثير من المجلات الصادرة باللغة العربية، من بينها الفيصل.

وبخصوص نشر استطلاع عن منطقتك، يسرنا كثيراً أن ترسل إلينا باستطلاع متكامل عنها مع صور ملونة جيدة تبرز معالم الحياة بها، وقد سبق للمجلة أن نشرت عن كثير من مناطق الجزائر، ومتاحفها، وجوانب الحياة المختلفة فيها.

ردود سريعة

الأخ منير فتحي - تونس:

تهتم المجلة كثيراً بقضايا عالمنا العربي والإسلامي، وتصفح أي عدد منها يقدم الدليل على هذا الاهتمام، واقتراحك بضرورة التفكير في أساليب مقاومة الهجمة الصهيونية الشرسة على الأمة، وفضح ممارساتها جدير بالاهتمام على المستويين الرسمي والشعبي، ونثق في أن المؤسسات ذات الصلة بهذه القضية الحيوية قادرة على أن تتلمس الوسائل التي تقي الأمة من الآثار السلبية لعمليات الاستهداف المستمرة.

الأخ فواحي بابه - الجزائر:

نشكر لك رسالتك الرقيقة، ونأمل أن تكون المجلة عند حسن ظن أمثالك من القراء، والشروط الخاصة بالنشر تجدها في الصفحة الثالثة من المجلة، وهي باختصار أن تتسم المشاركة المرسلة بالجدة والموضوعية، وعموماً هناك تقويم تخضع له لإقرار مدى مناسبتها للنشر، فنأمل أن ترسل ما لديك لعله يجد طريقه إلى النشر إن شاء الله.

الأخ مأمون أحمد مأمون - الرياض:

نشكر لك اهتمامك بمتابعة ما تنشره المجلة، وبخصوص الاستطلاعات عن السودان، فنحن نرحب بكل ما يرد إلينا من كل أنحاء العالم، وسبق للمجلة أن نشرت استطلاعات عن مناطق في السودان، وكان آخرها ما نشر عن متحف السودان القومي، ونأمل أن ننشر قريباً عن مدن كثيرة في هذا البلد الشقيق تتميز بآثارها وطبيعتها الجذابة.

الأخت هدى الله حافظ محمد - الإسكندرية - مصر:

نشكر لك روحك العالية، وتقبلك اعتذارنا عن نشر قصيدتك بأريحية، وحرصك على تكرار المحاولة، ونرى أنك في حاجة إلى مزيد من الاطلاع على عيون الشعر العربي، مع ضرورة معرفة أصول قرض الشعر، ومن أهمها علم العروض، فالموهبة وحدها لا تكفي، وإنما لا بد من بذل الجهد حتى تمتلكي أدواتك الشعرية.

الإخوة الكتاب

نطلب من الإخوة كتاب الفيصل من يقدمون مراجعات وعروضاً للكتب الصادرة حديثًا التكرم بإرسال نسخة من الكتاب الذي يتم عرضه إن أمكن ذلك، أو إرسال صورة ملونة منه.

كما نطلب من الذين يكتبون للمجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالأحرف اللاتينية حسب الأوراق الثبوتية التي يتعاملون بها.

طريق الحرير.. هل يدخل في خطط إستراتيجية المستقبل؟

جان ألكسان
دمشق - سورية



ماذا عن مشروع طريق الحرير بعد عشر سنوات من احتفال العالم بإعادة مساره إلى الأذهان؟. أوكان ذلك مجرد احتفالية دولية أم بداية لإعادة هذا الطريق بخطيه البري والبحري إلى الحياة كما كان منذ القرن الماضي قبل الميلاد، شريان التجارة والثقافة على امتداد آلاف الكيلومترات بين الشرق والغرب، وأهم وسيلة للتكامل الدولي، وانتشار السلع والمعارف والثقافات وتبادلها بين الأمم والشعوب؟

وأخيرًا.. ما مؤشرات بعث (طريق الحرير) الحديدي بين بكين وإستانبول وصولاً إلى أوربا، بعد أن دشنت إيران جزءاً من هذا الخط الذي قالت: إنه سيربط أوربا بقلب القارة الآسيوية عبر الأراضي الإيرانية والتركية؟ وهل سيدخل طريق الحديد الجديد في خطط إستراتيجية المستقبل، الاقتصادية والسياسية والعسكرية، بحيث يتم انتقال البشر وشحن البضائع والسلع والمعدات عبر السكة الحديدية من بكين إلى

باريس من خلال طهران وإستانبول؟

هذه الأسئلة، نحاول أن نجيب عنها في هذا التحقيق بعد مرور عشر سنوات على الاحتفالية العالمية بطريق الحرير الذي يعدّ أهم طريق من نوعه في التاريخ البشري.

اهتمام عالمي بالمشروع

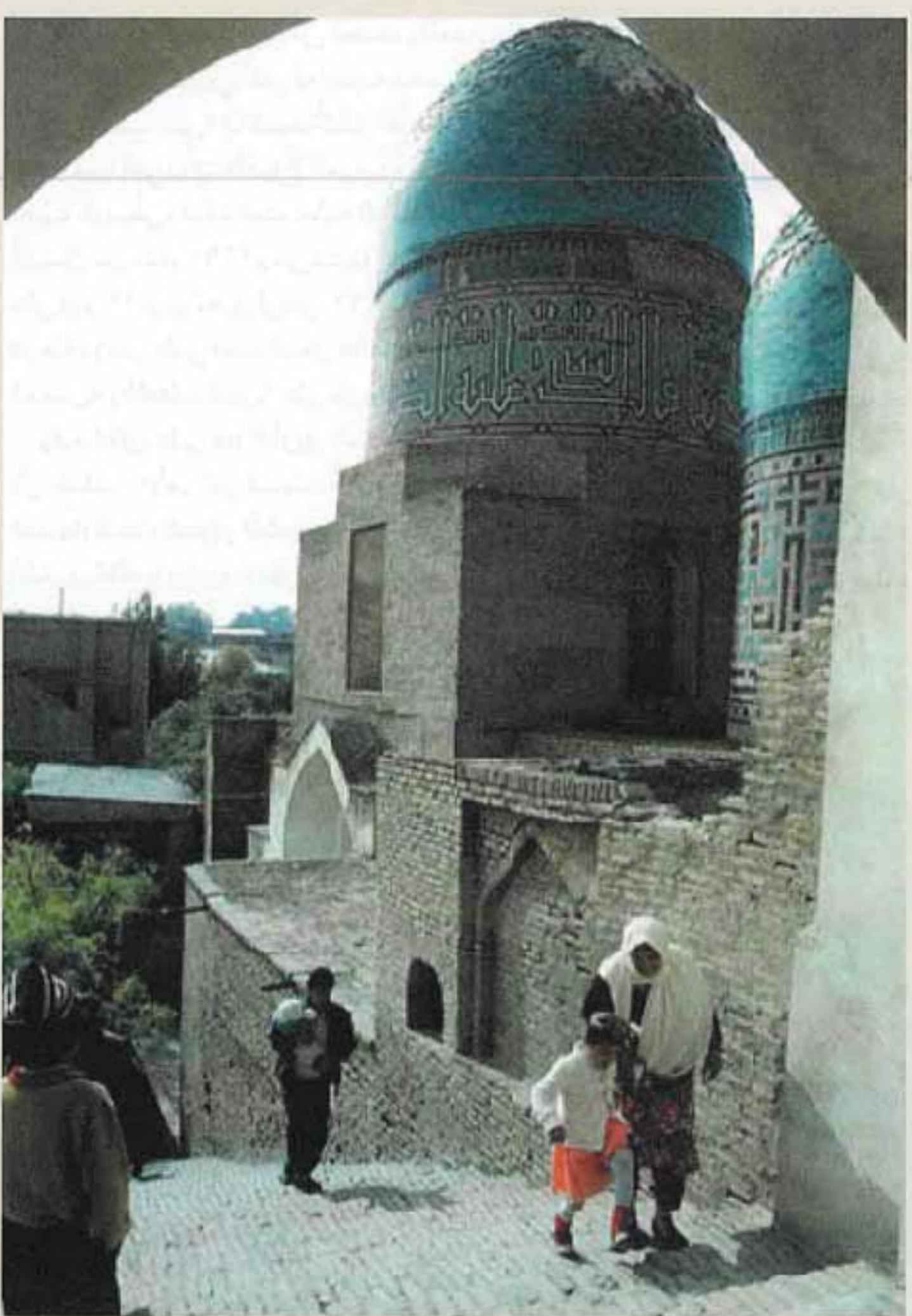
في أواخر عقد الثمانينيات من القرن العشرين، أعلنت منظمة اليونسكو خطة لمدة خمس سنوات، تهدف إلى بعث مشروع كبير لدراسة طريق الحرير وإبرازه، بمساريه البري والبحري، والذي كان منذ القرن الثاني قبل الميلاد شريان الثقافة والتجارة بين الشرق والغرب، وقد أبدى العالم كله اهتماماً كبيراً بهذا المشروع، حتى إن شركات السياحة عمدت إلى استثماره، فقدمت للسياح برنامجاً للمشاركة في الرحلات البرية على هذا الطريق.

وفي هذا الإطار تمت الخطوات الآتية التي نقدمها بنوع من التكثيف:

- تم تحديد طريق الحرير البحري، وطريق الحرير البري من خلال لجان متخصصة.

- نفذت الرحلة البحرية على هذا الطريق عام ١٩٩٠م، وكان امتداده من شواطئ الصين الشرقية إلى شواطئ البحر المتوسط الشرقية والجنوبية، وشواطئ أوربا الجنوبية.

- تمت الرحلة البحرية في سفينة (فلك السلام) العمانية طوال أربعة أشهر لتمر بشواطئ خمس عشرة دولة أوربية وآسيوية من مدينة البندقية الإيطالية إلى مدينة



سمرقند محطة أساسية على طريق الحرير

أوزاكا اليابانية وحملت فريقًا من العلماء والمصورين.

- أما الطريق البري الذي له أهمية خاصة في التاريخ العربي الإسلامي؛ إذ شهد أكثر المنجزات العربية الإسلامية التي بدأت بالفتوح العربية ونشر الإسلام في آسيا الوسطى، فقد تمت عليه الرحلة يوم ١٩ أبريل /نيسان من عام ١٩٩١م من مدينة عشق آباد وامتدت حتى يوم ١٧ يونيو/حزيران من ١٩٩١م إذ عقد في نهاية الرحلة مؤتمر علمي تحت شعار «العلاقات بين الثقافات الحضرية والثقافات البدوية على طريق الحرير».

وقد أطلق على هذا الطريق اسم «طريق الحرير»؛ لأن السلعة الأهم التي كانت تنقل عليه، ومن الصين تحديداً، كانت الحرير الطبيعي الذي يتم تبادله بالسلع الأخرى كالقمح وغيره، وحتى بالخيول والإبل. والمعروف أن الحرير الطبيعي يمتاز بأنه خفيف لا يتمزق.. لامع.. لا يتسخ بسهولة.. كما أنه سهل الصباغة وطويل العمر، وقد ظلت المادة التي يصنع منها الحرير وطريقة تصنيعه، سراً لمدة طويلة، حتى ظن الرومان أنه ينبت على الشجر.

أهم طرق التاريخ

وهكذا.. لم تعرف البشرية عبر تاريخها الطويل، طريقًا له من السحر مثل طريق الحرير الذي يربو تاريخه المدون على الألفي عام.. ذلك الطريق الذي حمل الأفكار والبضائع، وسار عليه التجار والسماسرة والجنود والمبشرون والغزاة والفاتحون، وكان السبب في قيام مدن واندثار مدن أخرى، كما ارتاده رحّالون عظام من أمثال ابن بطوطة، وماركو بولو، وشيان تونغ.. كما سار عليه



مدينة مشهد الإيرانية كانت نقطة الانطلاقة الأولى لإعادة الحياة إلى طريق الحرير

الإسكندر الأكبر، وهولاكو، وتيمورلنك، وجحافل جنكيز خان. وشهد أنواعًا شتى من التجارة لسلع كثيرة مثل: الزجاج والذهب والفضة واليشب (حجر شبه كريم) وغير ذلك من البضائع.. ومع ذلك فإن طريق الحرير لا تقاس أهميته بحجم التجارة التي تم تبادلها خلاله، بل بحجم ما تم تبادله من أفكار وتقنيات، كالكتابة والعجلة والنسيج..

وبدأ التاريخ المتعارف عليه بطريق الحرير سنة ١٠٥ أو ١١٥ قبل الميلاد، ويقول بعض المؤرخي - ومنهم هيرودوت - : إنه ظل الطريق الرئيس بين المتوسط والصين ما لا يقل عن أربعة آلاف سنة، وهو يمتد على مسافة خمسة آلاف ميل، وقد كان لماركو بولو دور مهم في فتح الطريق أمام تدفق أعداد كبيرة من التجار الأوربيين إلى آسيا.

وقد تراجع شأن هذا الطريق مع عودة شعوب آسيا إلى الانقسام والفرقة، وغامت معالم النظرة إلى هذا الطريق خلال خيال رومانطيقي غرائبي، وظل مقطوعًا حتى نهاية القرن العشرين الميلادي حين بدأت عملية إعادة استكشاف معالمه ومحطاته.. وليس مصادفة أن اقتراح اليونيسكو إجراء دراسات شاملة في منطقة (طريق الحرير العظيم) بوصفه طريقًا للحوار، قد حظي بتأكيد أوزبكستان وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى (في الاتحاد السوفييتي سابقًا)؛ ذلك لأن الكثير من فروع هذا الطريق مرت بأراضي آسيا الوسطى.

وثمة شواهد تاريخية كثيرة، منها مدونات الجغرافي العربي المقدسي (ت:٣٨٠) وعلامتي القرون الوسطى: البيروني (ت:٤٤٠هـ)، والخوارزمي (ت:٣٨٣هـ)، ومصادر تاريخية أخرى، تحكي أن الحركة على طريق الحرير في قطاعه الذي يمر بآسيا الوسطى، استمرت من منتصف القرن الأول قبل الميلاد حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

وهناك تحف فنية لكثير من الشعوب، كالتماثيل اليونانية، والعاج المنقوش، ومصنوعات من العظم لنقاشي منطقة بارفا، ومختلف الصناعات الهندية، ومن بينها حليّ رائعة، وصلت إلى آسيا الوسطى عن طريق الحرير العظيم، كما دخلت طريقة تربية دود القز ونسج



اكتسب هذا الطريق اسمه من الحرير الطبيعي الذي كانت تصدره الصين

الحرير إلى آسيا الوسطى من الصين في مطلع العصر الميلادي، ثم دخلت إلى إيران وبيزنطة.. وجاءت صناعة الورق من الصين لتبلغ في آسيا الوسطى مستوى عاليًا من الجودة، حتى إن الخطاطين الإيرانيين والعرب كانوا يفضلون ورق سمرقند.. وقوّم الإيطاليون عاليًا هذا الورق، وكانت بعثة دولية قد وصلت في خريف عام ١٩٨٩م إلى أوزبكستان وقرغيزيا وطاجكستان وكازاخستان، وصورت أفلامًا عن هذه المناطق التي كان يمر بها طريق الحرير.

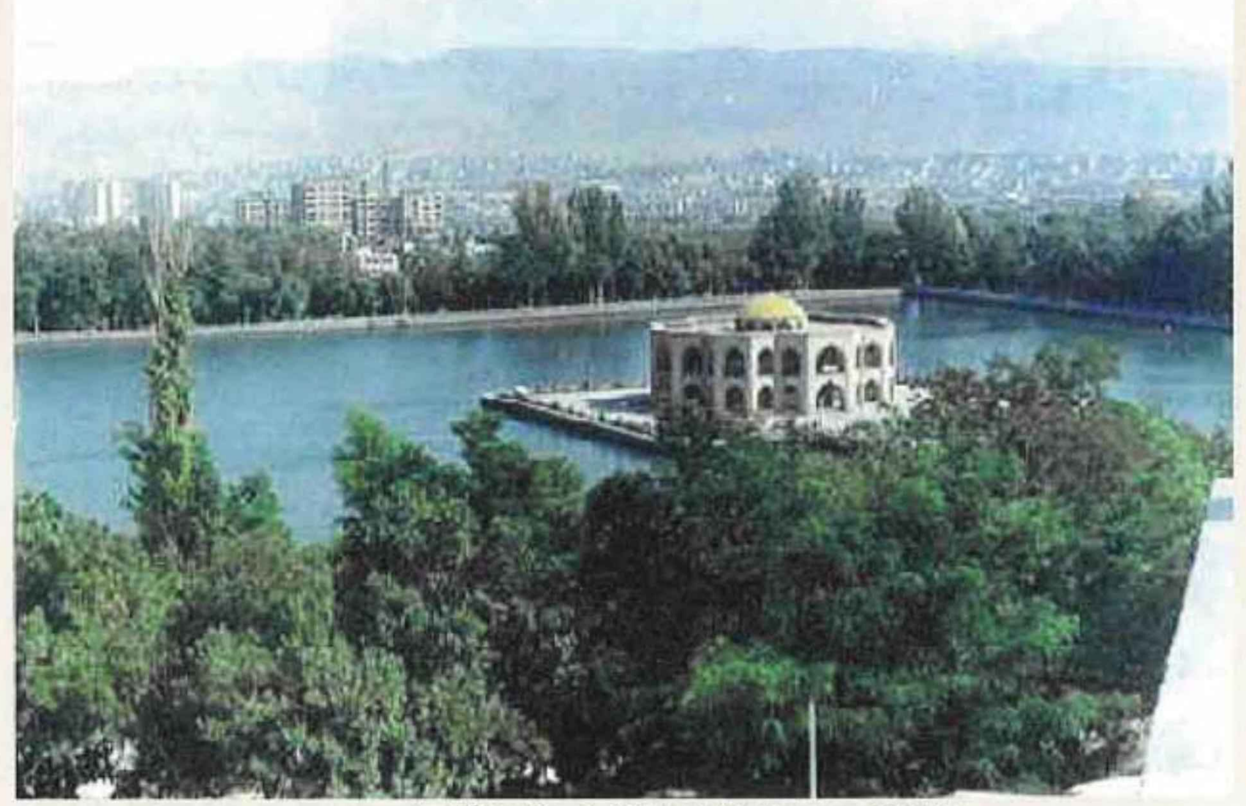
وأصبحت طشقند مركزًا لإعداد المشروعات الهادفة إلى إحياء طريق الحرير في آسيا الوسطى وتنفيذها، فقد تقرر إنشاء مرافق سياحية على هذا الطريق، وإقامة مناطق اقتصادية حرة عليه.

طريق الحرير الجديد

أما الخطوة العملية في مجال إعادة طريق الحرير إلى الحياة، فكانت قيام إيران بتدشين خط السكك الحديدية الذي قالت: إنه سيربط أوربا بقلب القارة الآسيوية من خلال الأراضي الإيرانية والتركية، وبدأت أول رحلة على هذا الخط على الامتداد الأخير له بين مشهد في إيران ومدينة سرخس على الحدود التركمانية.

ويربط الخط الحديدي الذي يبلغ طوله ١٦٦كم المدن الإيرانية بشبكة السكك الحديدية التابعة للاتحاد السوفييتي (سابقًا) في آسيا الوسطى وقزاخستان وسيبيريا، وبافتتاح هذا الخط يصبح بالإمكان السفر على الخطوط الحديدية من بكين إلى باريس مرورًا بطهران وإستانبول.

وحتى تعطي إيران أهمية خاصة لهذا المشروع وجهت الدعوات لأكثر من خمسين رئيس دولة لحضور هذه المناسبة، إلا أن أكثرهم اعتذر عن الحضور، وقد تمت استضافة الذين لبوا الدعوة في أكبر خيمة تنصب في العالم، وكانت إحدى الشركات السويسرية قد تولت صنع هذه الخيمة بتكلفة ١٩٣ مليون دولار، ونصبت على الجانب الإيراني من الحدود التركمانية الإيرانية ليعقد بعد ذلك مؤتمر قمة لدول المنطقة، ولكن اعتذار معظم رؤساء الدول عن حضور الاحتفال أعطاه طابعًا باهتًا على الرغم من أن مراسم الاحتفال كلفت ٢٥ مليون دولار، وأعادت إلى الأذهان الاحتفالات الباذخة التي أقامها شاه إيران عام ١٩٧١م في مدينة برسيبوليس، والتي أقيمت أيضًا داخل خيام من صنع أوربي، علمًا أن نجاح هذا الخط، كما هو مؤمل لتعزيز التجارة على هذا الخط، ومن ثم تعزيز النفوذ الإيراني في آسيا الوسطى.. ولكن الواقع



طريق الحرير يمر بمدن لها وجودها التاريخي مثل مدينة تبريز

يؤكد أن هذا النجاح لم يتحقق لا في مجال التجارة ولا في مجال السياحة.

مؤتمر قمة التسع

وفي مؤتمر القمة الذي عقد بعد الاحتفال، وضم تسع دول أسيوية في أشخباد، عاصمة تركستان وحضره أيضاً زعماء إيران وتركيا وباكستان بحث المؤتمرون، كل لغايته الخاصة، مشروعين أساسيين:

الأول: بناء خطة للسكة الحديدية ليصل بين (ألما آتا) عاصمة كازاخستان وميناء بندر عباس الإيراني المطل على خليج عُمان، حيث تتوافر أجزاء من هذه الشبكة داخل جمهوريات مختلفة في آسيا الوسطى يمكن تمديدها إلى تركمنستان، ومن ثم إلى شبكة الخطوط الحديدية الإيرانية في إقليم خراسان.

ولجعل هذا المشروع ذا جدوى اقتصادية، تحتاج شبكات السكة الحديدية في إيران وجمهورية آسيا الوسطى إلى تحديث، كما تحتاج إيران إلي إقامة مرفأ بحري جديد؛ لأن مرفأ بندر عباس الحالي الذي يستخدم للأغراض العسكرية والتجارية، لن يفي بالطلب.

ويكلف هذا المشروع قرابة ٣٠ مليار دولار على مدى خمس سنوات، ولا تستطيع أي من الدول المشاركة فيه توفير مثل هذا المبلغ، مما يوجب قبول استثمارات غربية ويابانية قد تدخل الأمر في متاهات الاستيعاب أو التأثير السياسي، علماً أن باكستان تطالب بخط حديدي جديد عبر أفغانستان يربط أواسط آسيا بميناء كراتشي على المحيط الهندي، وهذا ما يحقق لباكستان عمقاً إستراتيجياً في الدول الإسلامية لمواجهة قوة الهند، بالإضافة إلى ضمان باكستان حلقة الوصل لتنشيط تجارتها مع جمهوريات أواسط آسيا.

المشروع الثاني: يقتضي افتتاح طريق الحرير السابق بدءاً من أواسط الصين وباتجاه آسيا الوسطى، وهو الأكثر رومانطيقية من المشروع الأول الذي يستغل أصحابه الدعوة لبعث طريق الحرير، من أجل تحقيق خطط إستراتيجية لا علاقة لها بالرومانطيقية التاريخية، بل بخطط الاستثمارات المستقبلية.

وهكذا وبعد عشر سنوات من احتفالية المسار العالمية لطريق الحرير، لا تزال الخطط متضاربة حول الشكل الأخير لإخراج هذا السيناريو الذي أعلنته اليونيسكو قبل عشرة أعوام في صورة بهيجة من الإيحاء باهتمام العالم بأقدم طرق التاريخ البشري وأهمها ليدخل في مثاليات تضارب الأغراض والمصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية ويصبح في النهاية، كما قال عنه أحد الدارسين: طريق النار أو طريق الدولار.

المراجع

- المهندس محمد سويد: «الحرير وطريق الحرير»، مجلة الخفجي، عدد المحرم ١٤١٨هـ.
- عزت القمحاوي: «طريق الحرير.. تاريخ المسيرة الخشنة للقاء الحضارات والشعوب»، ملحق صحيفة الثورة السورية، دمشق: العدد ٨٢ تاريخ ١٢ أكتوبر/ تشرين أول ١٩٩٧م.
- أريك فرانك وديفيد براونستون: كتاب «طريق الحرير»، ترجمة أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.
- إيران تدشن طريق الحرير، صحيفة الشرق الأوسط - لندن.
- جان ألكسان: الحياة تعود إلى طريق الحرير، مجلة الفيصل، العدد ص١٩١، جمادى الأولى ١٤١٣هـ - نوفمبر ١٩٩٢م.
- طريق الحرير.. تسع دول إسلامية تسعى إلى إحيائه، مجلة المجلة - العدد ٦٤٥ تاريخ ١٧ - ٢٣ يونيو/حزيران ١٩٩٧م.
- طريق الحرير العظيم: الانبعاث من أجل الحوار، دراسات روسية عن طريق الحرير للباحث فلاديمير ميجيريتسكي.
- بحث لباخودير ترسونوف رئيس البعثة الفنية لمعهد الفنون التابع لوزارة الثقافة الأوزبكية حول طريق الحرير.
- على طريق الحرير العظيم في أسيا الوسطى، كتاب لمجموعة من علماء أوزبكستان.
- بحث للعالمة الأكاديمية غالينا بوغاتشينكوفا عن طريق الحرير.
- وثائق ومنشورات اليونيسكو.
- اليونيسكو تستكشف تاريخ العلاقات بين الشعوب، صحيفة الموقف العربي، العدد ٢٨٠ تاريخ ٢٤ - ٣٠ يوليو/تموز ١٩٨٩م.
- كتاب الدكتور ساطع المحلي عن طريق الحرير.
- د. عفيف البهنسي، طريق الحرير دولي قبل قيام الدولة، مجلة الكويت، العدد ٨٨ ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٩م.
- طريق الحرير دائرة في الحضارة البشرية، مجلة المدار - العدد ٣٠٢ - السادس عام ١٩٨٨م.
- رحلة السياح على طريق الحرير الكبير، نشرة وكالة نوفوستي - طشقند.
- المسلسل التلفزيوني (طريق الحرير العظيم).
- جمال عبود، حوار مع مخرج مسلسل طريق الحرير العظيم، صحيفة البعث - دمشق، العدد ٨١٩١ تاريخ ٢٧ فبراير/شباط١٩٩٠م.

من العمارة التقليدية بالجزائر



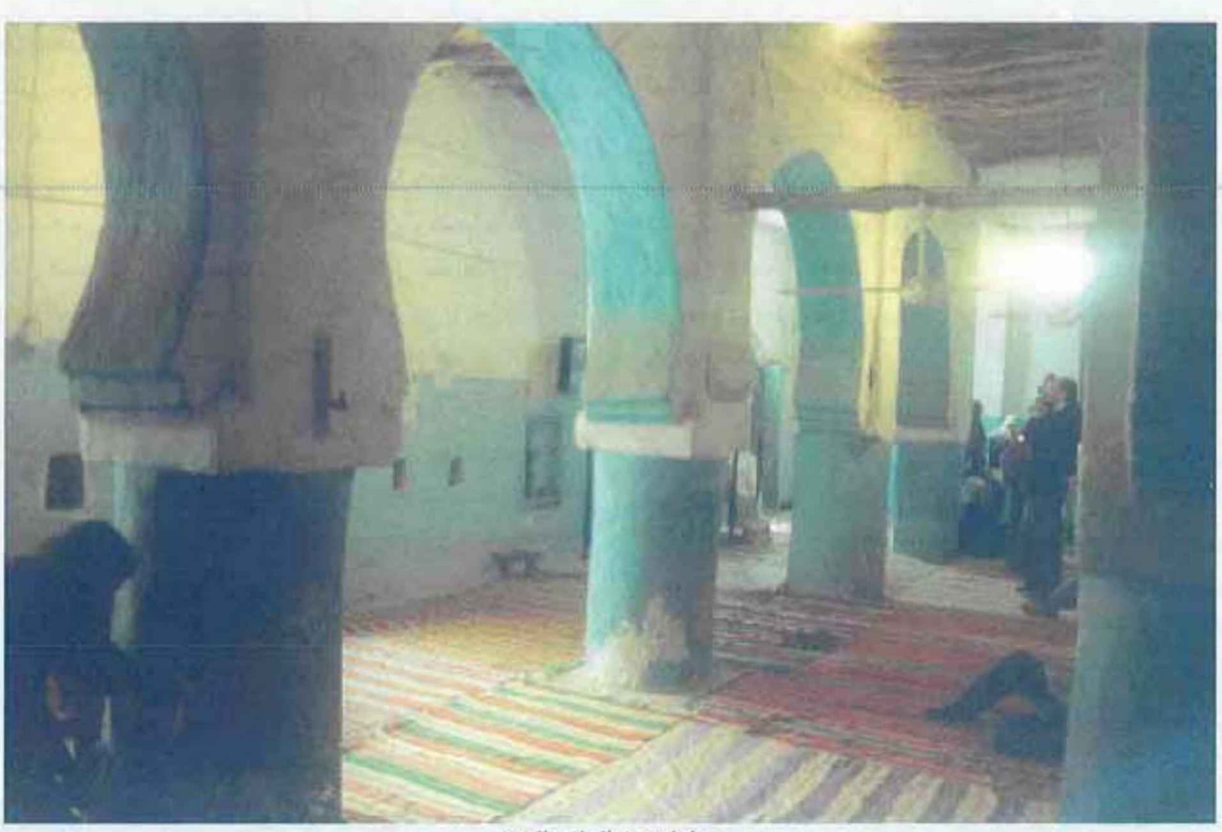
علي حملاوي
الجزائر . الجزائر

يعرف القصر من خلال الدراسات الحديثة بأنه: «هو الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعًا نوعيًا، الذي تخزن فيه مجموعةٌ بشرية، ذات مصلحة واحدة، محصولها الزراعي الموسمي، وتستعمله وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية والطقوسية والاجتماعية والتجارية، ووقت الحرب للاحتماء به عند هجوم العدو(١)». ولذا فإن الهدف الأساسي من بناء القصور هو تخزين المنتجات الزراعية والمواد الغذائية للقبائل الرحل أو المتاخمة لها، وهو ما يبدو جليًا في أسماء بعض القصور مثل قصر تمرنه (تمرنا ـ من التمر). وتعد القصور الصحراوية بالنسبة إلى المشتغلين في حقل الآثار والدراسات المعمارية من العناصر الثابتة في البنية المعمارية البشرية، وصورة لإبداع البربر الهندسي(٢).

ويختلف مفهوم القصر (أو القصر بقاف ساكنة وصاد مفتوحة) في المناطق الصحراوية اختلافًا كليًا عما هو متداول في المصادر والمراجع العربية(٣). فالقصر هنا تكتلات سكنية متراصة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية، تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة. يحيط بهذه التكتلات أحيانًا سور سميك تتخلله مزاغل ومدعم بأبراج، وأحيانًا يخلو منها بتاتًا، وتعوض بجدران البيوت الخارجية لتشكل في النهاية ما يشبه السور يحيط بجميع أرجاء القصر، يستند من الخارج إلى دعامات نصف هرمية الشكل. وتعدّ هذه الطريقة بالنسبة إلى الأهالي بمنزلة سور حقيقي نستشفه من خلال الكلمات المتداولة إلى يومنا هذا كقولهم: «من وراء السور».

وحددت المصادر كيفية التعامل معها إذ يقول الفرسطائي: «وإذا التصقت جدران البيوت بالسور فليؤخذ كل واحد ببنيان ما انهدم»(٤).

ومن الميزات التي تتجلى بالقصور الصحراوية وجودها بمحاذاة الطرق والمسالك التجارية، وبالقرب من الأراضي الصالحة للزراعة، والمجاري المائية، وفوق قمم الجبال أو على سفوحها أو على هضبات صخرية صلبة، حتى يتمكن



دعامات من الجامع العتيق

من توفير الأمن لأصحابها وضمان العيش لهم بصفة دائمة ومستمرة. وهي الشروط نفسها التي يجب أن تتوافر عند إنشاء المدن الإسلامية كما أوصت بها المصادر العربية(٥).

استعملت كلمة قصر في بعض المصادر التاريخية للدلالة على أنها تجمعات سكنية آهلة بالسكان أو هُجرت من طرف أصحابها. فقد وردت لدى الرحالة الإدريسي في وصفه لمدينة لبدة(٦)، وعند الحسن الوزان في حديثه عن قصر العباد(٧). كما يمكن للقصر أن يضم مجموعة من القصور تعرف وتشتهر باسم واحد، يؤكد ذلك وصف الشيخ محمد بن الحاج عبدالرحيم لقصر تمنطيط بأدرار حين يقول: «...وهي متصلة البنيان في قصور غير متباعدة السيسان بل هي متلاصقة العمران... وحولها بساتين(٨)».

يحتوي القصر بداخله على دور الأهالي مقسمة أحياء وقصبة أو قصبتين محصنة تستغل عند الضرورة، ومسجد جامع يعرف عادة باسم الجامع العتيق أو الجامع الكبير، علاوة على المساجد المخصصة لأداء الصلوات الخمس. وقد تتعدد هذه الأخيرة أحيانًا حتى يصبح لكل حي أو قبيلة مسجدها الخاص بها، بالإضافة إلى المرافق الضرورية مثل السوق والدكاكين والرحبات.

ويرتبط القصر بالجانب الفلاحي ارتباطًا وثيقًا؛ ذلك أن الزراعة من العناصر الأساسية لعمارة البلدان(٩)، ولذا غالبًا ما تحيط به البساتين الخضراء لكونها المصدر الرئيس والوحيد للسكان، وحاجزًا منيعًا للتقليل من حدة العواصف الرملية، وتكسير التيارات الهوائية وتوزيعها.

ينسب القصر أحيانًا إلى ولي صالح بوصفه مؤسس القصر، أو إليه يرجع الفضل في لمّ شمل سكانه، ويسمى باسمه، أو إلى الاتجاهات، مثل القصر القبلي (الجنوبي) أو القصر الظهراني (الشمالي)، أو إلى لون مادة بنائه، مثل القصر الأبيض والقصر الأحمر. كما ينسب إلى القبيلة أو الجنس المستقر به، مثل قصر العرب أو قصر العبيد.

وأحياناً يضاف إلى كلمة القصر صفة من الصفات الدالة على موقعه أو قدمه أو حداثته أو كبره، مثل القصر التحتاني (السفلي)، والقصر الفوقاني (العلوي)، والقصر القديم، والقصر الجديد، والقصر الكبير. وأحياناً يشتق اسمه من شكله، أو ينسب إلى أشخاص أو أشياء أخرى، مثل قصر الرسول، وقصر بوعالم، وقصر الحويطة..

والجزائر كغيرها من بلدان المغرب العربي تزخر بالكثير من مثل هذه المنشآت، منها ما هو سائر في طريق الزوال بفعل العوامل الطبيعية والبشرية، ومنها الذي لا يزال يصارع الزمن. ولقد ارتأينا أن نقدم للقارئ العربي نموذجاً حيّاً من هذه المنجزات، متمثلاً بقصر تاجموت، بوصفه إرثاً حضارياً يجب الحفاظ عليه، وشاهداً مادياً على عبقرية أجدادنا في التصدي لقسوة الطبيعة وأهوالها.

موقع القصر

يقع قصر تاجموت بين خطي ٢ ٣١ طولاً و ٣٣ ٥٣ عرضاً، وعلى بعد ٤٠ كلم شمال غرب «الأغواط» العاصمة الحالية للولاية. تبعد هذه الأخيرة عن الجزائر العاصمة بنحو ٤٤٨ كلم جنوباً. فهي تعدّ من الولايات الواقعة على الحدود الشمالية للصحراء. تنتشر في هذه المنطقة مجموعة من القصور تعود إلى عهود مختلفة، وتمتد على السفح الجنوبي لجبال عمور وعلى قممه(١٠). ويعد قصر تاجموت أحد القصور المهمة الواقعة بهذا المكان لكونه حائزاً على الشروط الضرورية المذكورة آنفا، والتي تساعد على استقرار العنصر البشري، ولكونه لايزال محافظاً قليلاً على هيكله الأصلي موازنة بالمنشآت المجاورة. بني القصر فوق هضبة صخرية ذات شكل مثلث تكثر بها النتوءات والرؤوس، ثم يمتد باتجاه منحدرها الجنوبي وبمحاذاة ممرٍ ومسلك للقوافل التجارية، وبالقرب من مجرى وادي مزي، وغير بعيد عن جبال القعدة الغنية بأشجارها.

نشأة القصر

إن ما يلحظ حول القصور الصحراوية بصفة عامة هو أن تاريخها قلما يعثر عليه في المصادر التاريخية كما هو الشأن بالنسبة إلى المدن الإسلامية، بل هو راسخ في أذهان أهاليه مثلما هو الحال بقصرنا. وتنقل لنا الرواية الشفوية المستقاة بعين المكان، وكما تناقلتها المراجع(١١)، أن تسمية القصر مشتقة من «تاج الموت» الذي كانت تضعه الملكة على رأسها كلما حكمت على المذنبين بالإعدام. وهي أسطورة خيالية حيكت حوله، مثلما جرت العادة لدى المؤرخين القدماء، حين يُقرن بناء بعض المدن الإسلامية أو تسميتها بأساطير من نسج الخيال، ليضفوا على مؤسسيها صبغة القدسية أو القوة. وترى بعض المراجع التاريخية أن القصر بنته في سنة ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م قبيلة بني يوسف بعد أن اضطرت إلى هجر بلدتها، وهو قصر بدلة الواقع شمال قصر ابن بوطة، نتيجة للصراعات والنزاعات المتواصلة بينها وبين القبائل المجاورة لها(١٢). والحقيقة أن ما لدينا من معطيات تاريخية، وإن كانت في الحقيقة ضئيلة، دليل واضح على نفي ما تردده المراجع حول نشأة القصر، وتؤكد في الوقت ذاته أنه كان موجوداً قبل السنة المتداولة بشأنه. فلقد ورد اسم «تاجموت» في رسالة، مؤرخة في سنة ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٨م، وجهها الرحالة المغربي أبو سليم العياشي إلى تلميذه وصديقه المجيلدي يصف له فيها الطريق التي سلكها في أثناء



بيت ابن تريكي. منظر عام

ذهابه إلى الحج، وينصحه بأخذ الحيطة في أماكن معينة(١٣).

وبالنسبة إلى تسمية القصر وعلاقتها بالأسطورة، فإنه يبدو أنها خرافة لا أساس لها من الصحة. فلقد ورد اسمه في المصادر بأشكال مختلفة، تاجموت وتاودموت(١٤)، وتجمعوت(١٥)، وتجموت(١٦). وحسب اعتقادنا فإن هذه الأسماء كلها هي مجرد تغييرات وقعت مع مرور الزمن على الاسم الأصلي للقصر. فكلمة تاجموت، قد تكون هي نفسها الكلمة البربرية «تاجنوت» أي البئر المتسعة والعميقة قليلاً، والتي يقدر عمقها بنحو ٣م ووجود الماء فيها دائم(١٧).

أما من الناحية السياسية، فقد عرف القصر جميع الحملات التي شهدتها منطقة الأغواط، لكونه جزءاً لا يتجزأ منها، لكنه لم يعان من ضرباتها مثلما عانته القصور المجاورة مثل (قصري الأغواط وعين ماضي). فقد كان سكانه من المسالمين، يسارعون إلى إبعاد الضرر عنهم قبل أن يحل بهم(١٨). كما اتخذ القصر في فترات لاحقة ملجأ لخلفاء الأمير عبد القادر بعد رحيله من عين ماضي (١٨٣٦ أو ١٨٣٨م). فقد أمر الأمير خليفته عبد الباقي بالاحتماء بقصر تاجموت بعد قتل جميع شخصيات الأغواط وتدمير بلدتهم(١٩). واحتمى بها أيضا خليفته الثاني الحاج العربي في أثناء ملاحقته من قبل حاكم الأغواط أحمد بن سالم وشيخ الزاوية التجانية عام ١٨٤٠م.

القصر في نظر الرحّالين والقادة العسكريين الأجانب

على الرغم من اتخاذ هذا القصر محطة من محطات القوافل التي كانت تعبر المنطقة آنذاك، حسبما أورده العياشي، إلا أنه لم يحظ بأدنى اهتمام من قبل الرحّالين العرب. وباستثناء ما ذكره الدرعي بأنها قرية جامعة لابأس بها (١١٢٩هـ - ١٧١٦م) والأغواطي «وبيوتهم مبنية بالحجر والطين»(٢٠)، فإن معظم المعطيات المتعلقة


منظر لمباني القصر المتراصة

بالقصر مستقاة من وصف الرحّالين الأجانب. ومن أهم الذين جاؤوا حوله:

- الجنرال دوماس:

قام برحلته إلى المنطقة خلال عام ١٨٤٥م، ويصفه قائلا: «تاجموت قرية صغيرة وجميلة. تحتوي على حوالي مئة منزل. لا يوجد فيها سور، بل تحيط بها البساتين والحدائق الخضراء، وهي بدورها محاطة بجدران. يتم الدخول إلى القصر عبر بابين تعلوهما أبراج صغيرة ذات شرفات. ويسمى المدخل المتجه إلى عين ماضي بباب صفين، أما الثاني المقابل للأغواط فيعرف بباب أولاد محمد»(٢١).

- العقيد تروملي:

زار هذا القائد العسكري القصر في المنتصف الثاني من القرن ١٩م، ويصفه بقوله: «بني قصر تاجموت من الطوب المجفف في الشمس، ويقع على المنحدر الجنوبي لهضبة صغيرة. وهي ليست محصنة، وتحتوي على بابين. وما تجدر الإشارة إليه أن غالبية مساكنها محطمة إثر الحادثة التي وقعت بين ابن سالم والحاج العربي عام ١٨٤٢م. تحيط بالقصر حدائق غناء، بها مجموعة من أشجار الفواكه والنخيل»(٢٢).

- الرسام فرومنتان:

كانت زيارته في عام ١٨٥٣م، أي بعد خمسة أشهر من احتلال المستعمر الفرنسي للمنطقة. ومن أهم ما جاء في

وصفه ما يأتي: «تاجموت قصر فقير دمرته الحرب. نصل إليه بعد اجتيازنا للمقبرة، حيث يتضح من بعيد باب مربع الشكل مثل بقية الأبواب العربية. وقد فتح هذا المدخل في البرج الرابط بين سور المدينة وجدران الحدائق. تمتاز شوارعها بالضيق ويخيم عليها الظلام. وهي مبلطة ببلاطات لزجة... وعند وصولنا إلى نهاية زقاق ضيق، دخلنا بهواً مظلماً، يشتمل على مقاعد يبلغ ارتفاعها نحو أربع أقدام عن مستوى الأرض. كما يحتوي القصر على قصبة لم يبق منها سوى بعض أجزاء من جدرانها، ويحيط بها سور هو الآن أطلال. وبعد أن قضينا ليلة واحدة بتاجموت، خرجنا من باب صفين المقابل لعين ماضي. ويحيط بهذه البلدة من ثلاث جهات بساتين خضراء»(٢٣).

قصر تاجموت ـ منظر عام

ـ مالتسان (هـ.ف):

كانت زيارة هذا الرحالة الألماني في عام ١٨٦٣م، ومن بين ما ورد في حديثه عن القصر: «تاجموت تقع فوق مرتفع حجري، كونته طبيعة الأرض الصحراوية البديعة. لقد كانت هذه الهضبة الصغيرة التي تقع فوقها المدينة وبساتينها ذات شكل مثلث الزوايا، وحول قاعدة هذا المثلث الصخري كانت تمتد أشجار النخيل وضوء الشمس يضيئها. وكان هناك سور، يبدو كسور المدينة من بعيد، ولكنه لم يكن في الحقيقة سوى مرتفع من الطين يحيط بالمدينة وينحدر ليحيط ببساتين النخيل أيضاً. ويرى فوقه في بعض الأحيان برج هرمي الشكل، مسنن ذو كوى لإطلاق النار... وفي تاجموت أنزلنا «بيت الضيافة» وأكرمنا إكراماً إلى حد ما»(٢٤).

وصف القصر

اتخذ قصر تاجموت شكلا شبه مثلث ذي أضلاع منحنية لتفادي النتوءات البارزة بالموقع. يتم الدخول إلى القصر من بابين رئيسين اندثرا مع الزمن، وهما باب صفين باتجاه عين ماضي غرباً، وباب أولاد محمد باتجاه الأغواط شرقاً. يتكون القصر من الداخل من مجموعة من المباني المتراصة والمتلاحمة تبدو للناظر إليها من بعيد وكأنها كتلة واحدة تدل على تماسك أفراد مجتمعه ووحدتهم. وقد روعي في بناء مساكنه ما يتطلبه الدين الإسلامي الحنيف، من المحافظة والتزام الحشمة وعدم إلحاق أي ضرر بالجار (٢٥). ولذا، فإنه مع تكتل بيوته وتراصها، قلما يزيد البيت على طابق واحد. وإذا دعت الضرورة إلى طابق آخر فإنه يخضع لشروط، منها ألا يحجب أشعة الشمس عن الجيران، وألا يكشف عن أسرار بيوتهم. وباستثناء أسس المباني وأجزاء من بيت ابن تريكي، فإن معظم منشآت القصر شيّدت من الطوب المقولب المجفف في الشمس. ويعدّ الطوب من المواد النظيفة بيئياً والعازلة للأصوات، كما يمتاز بضعف مقاومته ولذا فإن الجدران المصنوعة منه تكون سميكة.

تتخلل المباني المتلاحمة شوارع رئيسة ينحصر دورها في ربط القصر بالأماكن الخارجية المحيطة به، كالبساتين والمقبرة والقصور المجاورة وغيرها، وفي ربط مداخل القصر بعضها ببعض مثلما هو الحال بالشارع الذي يربط بين باب صفين وباب أولاد محمد. تتفرع من هذه الشوارع أزقة ضيقة وملتوية غير مغطاة في الوقت الراهن، وهما ميزتان تساعدان على التخفيف من حدة أشعة الشمس، واستغلال أكبر قدر من الظل للبيوت أو المارة، كما

تساعدان على تكسير التيارات الهوائية والرياح العنيفة التي غالباً ما تتعرض لها المناطق الجنوبية(٢٦). علاوة على ما يوفره الانحناء من ميزة (سيكولوجية) للسائر بها، فهي توحي له بقصر المسافة التي سيقطعها(٢٧).

يحتوي القصر كذلك على رحبة تمتاز بقلة شساعتها. ويعدّ هذا العنصر من الناحية الاجتماعية المكان الملائم لممارسة جميع الأنشطة اليومية والطقوسية، فبها تعرض منتجات الفلاحين العائدين من المزارع مساء، وبها يسحق الزرع، وبها تقام الأفراح والمناسبات الدينية. أما من الناحية العمرانية فهي نقطة التقاء الأزقة والفضاء الذي تتنفس من خلاله الشوارع والدروب، ووسيلة لتسهيل حركة المرور وتنظيمها داخل القصر. أما القصبة التي تحدث عنها فرومنتان فلم يبق من آثارها أي شيء، ما عدا اسمها العالق في ذاكرة المسنّين. ويحتل الجامع العتيق إحدى النقط العالية بالقصر، التفّت به في الجهة الغربية قاعة لتعليم القرآن وحفظه، وهي ما تعرف بالمحضرة، بينما التفت الدور حولهما من جميع الجوانب.

- الجامع العتيق:

يشغل الجامع العتيق وسط القصر مما يجعل الوصول إليه من مختلف الجهات أمراً سهلاً. وتذكر الروايات الشفوية المتداولة والمتناقضة في الوقت نفسه عن تاريخ بنائه أن الجامع قديم العهد يعود تاريخ تأسيسه إلى عشرة قرون. وترى من جهة أخرى أن الفضل في بنائه يعود إلى شخصيتين مجهولتي الهوية وكذلك الفترة الزمنية التي عاشا خلالها، وهما «قدور بن بركة وأحمد قندة». فالأول تضيف الرواية، هو صاحب قطعة الأرض التي تبرع بها لبناء الجامع، أما الثاني فهو الذي أشرف على عملية البناء. ولتدعيم هذه المقولة بأدلة مادية، يعتمد ناقلو الرواية على حجج تزيد من حدة الإشكالية، وتتمثل في وجود ضريح في مؤخرة بيت الصلاة ينسب إلى البناء، بالإضافة إلى كتابة بخط نسخي رديء غير واضح تعلو مدخل بيت الصلاة يعتقد أنها تخلد اسمه.

إن ما تجدر الإشارة إليه، هو أن المعلومة المذكورة آنفا لا تتناسب والمعطيات التاريخية المقدمة عن القصر من جهة، والدينية من جهة أخرى؛ فلقد جرت العادة أن يخصص مكان خارج بيت الصلاة يدفن فيه الولي الصالح الذي قام بالتدريس أو الإمامة في هذا الجامع ويسمى باسمه، أو أن يدفن المعماري، وفي حالات نادرة، جنب العنصر الذي قام بتشييده، ولذا فإنه من الراجح أن يكون الضريح الموجود في بيت الصلاة لجامع هو لأحد الشيوخ الذين تعاقبوا على تدريس القرآن أو إعطاء دروس فقهية أو الإمامة فيه، وهو ما يتناسب مع ما أورده الدرعي، فقد يذكر أنه التقى بتاجموت الإمام «أحمد بن بركة» وهو رجل طاعن في السن(٢٨)، وليس قدور بن بركة الذي تتحدث عنه الرواية. ألا يمكن أن يكون هذا مجرد خطأ وقع فيه ناقلو



أحد شوارع القصر

الرواية؟ كما أن موقع الضريح بمؤخرة بيت الصلاة يطرح إشكالية أخرى وهي: هل وجوده هناك أصلي أو جاء نتيجة لعملية إضافة وقعت في بيت الصلاة؟ فحسب ما تناقلته الرواية فإن المكان الأصلي للضريح يقع حيث جدار القبلة الحالي، وعند توسعة بيت الصلاة بالناحية الشرقية (جدار القبلة) تم نقله من هذا المكان إلى المكان الموجود فيه حاليًا. ويبدو أن كلتا الحالتين تتعارض والشريعة الإسلامية. فلقد كره الإسلام الصلاة على الميت بالمسجد استدلالاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «من صلى

على جنازة في المسجد فلا شيء له»(٢٩)، فكيف بدفنه داخل بيت الصلاة! كما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد في عدة أحاديث من ذلك «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدا»(٣٠). وبالنسبة إلى نبش القبور ونقلها من مكان إلى آخر، فإن الفقهاء أجمعوا على ضرورة احترامها وعدم نبشها ما بقي من جسم الميت شيء من لحم أو عظم، فإن بلي وصار ترابًا جاز دفنه في موضع آخر، وجاز الانتفاع بأرضه في الغرس والزرع والبناء وسائر وجوه الانتفاع به(٣١). وهنا نتساءل كم سنة يحتاج جسم الإنسان ليتحول إلى تراب؟ فبقايا إنسان ما قبل التاريخ كفيلة بالإجابة عن هذا السؤال.

وبناء على ذلك فإننا نرى أن مكان الضريح الآن كان في البداية منعزلاً عن بيت الصلاة، وإثر عمليات الزيادة التي يعتقد أنها وقعت في الجدار المقابل لجدار القبلة، تم إلحاق القبر ببيت الصلاة دون اللجوء إلى نبشه أو المساس به. كما أن الكتابات التذكارية التي تخلد أسماء المشرفين على عمليات البناء، غالبا ما توجد في أماكن بارزة للعيان، ولم تكن في أي حال من الأحوال تقتصر على إمضاء فقط مثلما هو الحال بجامع تاجموت. ولذا فإنه من المحتمل جداً أن القطعة المهداة للجامع، هي المساحة التي تتقدم بيت الصلاة والتي تحتوي على الميضأة والسلم والصحن والرواق، وقد تكون هذه الأعمال من إنجاز «أحمد قندة».

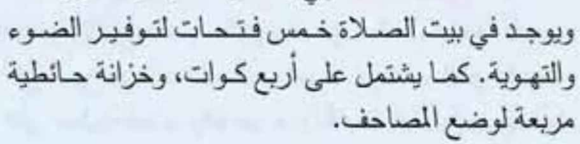


نموذج لمدخل أحد البيوت الصحراوية

وما يلاحظ أن الجامع غير متساوي الأضلاع، وجدرانه غير مستقيمة، ومختلفة في سمكها من مكان إلى آخر، كما تنعدم به الزوايا القائمة، وهي إحدى سمات العمارة الصحراوية. يتم الدخول إليه من باب رئيس ذي مصراعين حديديين، يؤدي بدوره إلى رواق يشغل أحد جوانبه سلم يصعد بواسطته إلى السطح. وبالجدار الجنوبي للرواق فتح مدخل يفضي إلى غرفة البئر وبيت الوضوء. وفي الجدار المقابل للمدخل الرئيس فتح باب آخر يؤدي إلى بيت الصلاة، يعلوه عقد حدوي مدبب يتوسطه هلال كتبت عليه عبارة (قنده)، وتحلي واجهته عناصر زخرفية قوامها شريط مضفور.

يتميز بيت الصلاة بأن طوله أكبر من عمقه أو عرضه حتى يسمح لعدد كبير من المصلين من أداء صلاتهم بالصف الأول. و تقدر مقاساتها بنحو ٢١ر١٦م في الجدار الشمالي و١٧م في الجنوبي، أما عرضه فنحو ١٠ر١٥م للجدار الشرقي و ٣٦ر١٥م للجدار الغربي. تعرض بيت الصلاة إلى إصلاحات وزيادات في الآونة الأخيرة، فقد أضيف إليه بلاطة في الجهة الجنوبية، وتمت إعادة تسقيفه بوسائل محلية وفق نمطها الأصلي.

ويتكون بيت الصلاة من أربع بلاطات متوازية على جدار القبلة، ترتكز بدورها على أربع عشرة دعامة، ثمان منها موزعة على مساحة بيت الصلاة كافة، أما الست الباقية فهي رصفت في الجدار الشمالي والجدار الغربي. تمتاز تلك الدعامات بالخشونة والقصر وكثرة العدد موازنة بالمساحة التي تشغلها، مما يبعث في نفوس المصلين جواً من الرهبة والخشوع. تعلو الدعامات أقواس نصف دائرية متجاورة ومدببة تنتهي بأسفلها ما يشبه الدرجات.



ويوجد في بيت الصلاة خمس فتحات لتوفير الضوء والتهوية. كما يشتمل على أربع كوات، وخزانة حائطية مربعة لوضع المصاحف.

- المحراب:

لم يُراعَ في بنائه قاعدة الوسطية أو المحورية. فقد جاء منحازاً إلى اليمين في اتجاه الجدار الجنوبي، وهي ضرورة أملتها الحتمية المعمارية المتمثلة في قصر المسافة بين المدخل والموقع الذي يجب أن يكون فيه. ومن حيث



طريقة سقف الجامع العتيق

شكله فقد بدا بالمظهر التقليدي المعروف في معظم محاريب المغرب الإسلامي، وهو محراب مجوف ذو شكل نصف دائري، تعلوه حنية خالية من الزخرفة. ويبدو أن هذا الشكل أصبح محببًا في المناطق الصحراوية، وشاع استعماله في الوقت الذي أضحت فيه حنية المحراب سمة من سمات التطور الفني للعمارة الإسلامية الدينية. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى سهولة تشكيلها، ولا تتطلب مهارة فنية راقية. ويتميز محراب تاجموت بعمقه الواضح مما جعله يبرز إلى الخارج. وما يلاحظ على هذا العنصر هو عدم الانسجام والرشاقة التي تميزت بها المحاريب الإسلامية، فهو يخلو من أي عنصر زخرفي، وعدم التناسب بين ارتفاع عقده وارتفاع الجدران التي يعتمد عليها.

ـ المنبر:

عكس ما يلاحظ في بعض الجوامع الصحراوية(٣٢)، جاء منبر الجامع العتيق بتاجموت على شاكلة المنابر المعروفة في العالم الإسلامي. فهو أثاث صنع من مادة الحديد ويعود إلى فترة متأخرة، غير أنه اتبع في تصميمه وزخرفته المنابر الخشبية، فهو يتكون من أربع درجات، وزُيّن إطار صدره بزخارف نباتية وهندسية وكتابية.

ـ التغطية:

لتغطية بيت الصلاة استعملت مواد محلية جلبت من الأماكن القريبة. وتتم العملية بوضع جذوع أشجار العرعار أو الصفصاف عوارض تربط بين جدارين وتترك بين الواحدة والأخرى مسافة، ثم يوضع فوقها القصب والجريد بطريقة متقاطعة فيما بينها مشكلة بذلك ما يشبه المعينات، ثم يغطى الكل بطبقة من الطين حتى يمنع تسرب مياه الأمطار إلى الداخل. ولتفادي تجمّد المياه فوق السطوح لجأ البناء إلى ميل مستوى السطح تدريجيًا باتجاه الميازيب والتي بدورها تصرفها إلى الخارج.

ـ المحضرة:

هي مؤسسة تعليمية تزود الطفل برصيد من المعارف الدينية والتربوية وغيرها. وهي، وإن لم ترق بالتعليم إلى ما وصلت إليه المدارس الإسلامية الأخرى، قد أسهمت في

قسط كبير في محو الأمية، كما شكلت حصناً منيعاً ودرعاً واقياً ضد تفشي أي ثقافة أجنبية عن الثقافة الإسلامية. وبالنسبة إلى محضرة قصر تاجموت فقد كانت قاعة صغيرة لا يتعدى شكلها شكل الغرفة. وكانت داخل أسوار الجامع قبل تحويلها إلى ميضأة.

ـ الدور:

شيدت دور القصر وفق التقاليد الإسلامية المعهودة، فهي تتكون من سقيفة تتقدم المدخل مكوّنة ما يُعرف بالمدخل المنكسر، أو يكتفى بإقامة جدار يكسر محورية الباب. وتحتوي البيوت على فناء شاسع تتوزع حوله الغرف لتستمد منه ضوء النهار، إضافة إلى غرفة خاصة يقتصر دورها على حفظ المؤونة بمختلف أنواعها كالتمر والحبوب الجافة وغيرها، يطلق عليه بيت الخزين(٣٣). ولذلك تزود بالوسائل الضرورية للخزن والمتمثلة في بناء أحواض أو مطامير ذات شكل هرمي، ترتفع عن مستوى الأرض، وهي ما تعرف في بعض المناطق باسم الخوابي.

ومن الأمثلة على مساكن قصر تاجموت يمكن ذكر بيت ابن تريكي. وهو يقع في الشارع الرئيس الرابط بين المدخلين الرئيسين للقصر. ومع عدم اكتمال بنائه لظروف تُجهل أسبابها، يعد هذا المنزل من أهم منازل القصر وأروعها من حيث المساحة التي يشغلها أو من حيث مادة بنائه، فقد شيد من الحجارة الصلبة التي يكثر استعمالها في المناطق الباردة. وهو الآن في حالة يرثى لها وذلك للأضرار البشرية والطبيعية التي لحقت به. وتقول الرواية الشفوية المتداولة هناك: إنه بني في أواخر القرن ١٩م، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى مالكه ابن تريكي، وهو شخص مجهول الهوية لدى الأهالي.

يأخذ المبنى شكلاً مستطيلاً تقدر مقاساته بنحو ١٧ر٨٠م طولاً ونحو ١٦ر٣٠م عرضاً وسمك جدرانه نحو ٦٠سم. يتم الدخول إليه من الجهة الجنوبية من خلال باب بسيط تبلغ فتحته ١ر٧٠م. ويفضي المدخل مباشرة إلى صحن فسيح تتوزع حوله من الجهة الشمالية والشرقية مجموعة من الغرف ذات مقاسات مختلفة. أما الجهة الجنوبية والغربية فبقيتا شاغرتين لعدم اكتمال البناء. يفصل بين الغرف والفناء رواق يطل على الصحن بثلاث بوائك تتكون من تسعة عقود مدببة، خمسة منها بالوسطى

المراجع والهوامش

١. أيوب، عبد الرحمن: «من قصور الجنوب التونسي: القصر القديم »، النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٨م، ص١٣١، كذلك: J.Despois Les greniers fortifiés de l'Afrique du nord",. Les Cahiers de Tunisie, II,1953:p,38.

٢. أيوب: المرجع نفسه، ص١٣٠.

٣. ابن منظور (جمال الدين محمد): لسان العرب، ج٦، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص٤١١، وماجد (عبد المنعم)، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٢١ ـ ١٢٥.

٤. الفرسطائي (أبو العباس أحمد): القسمة وأصول الأرضين تحقيق وتعليق وتقديم الشيخ بكير ومحمد صالح ناصر، ط٢، نشر جمعية التراث، القرارة، ص١٩٣.

٥. ابن أبي الربيع (شهاب الدين)، سلوك المالك في تدبير الممالك، دراسة وتحقيق ناجي التكريتي، ط١، تراث عويدات، بيروت، باريس، ١٩٧٨م، ص ١٥١.

٦. يقول فيها: «فلم يبق الآن منها إلا قصران كبيران، وعمارها وسكانها قوم من هوارة البربر، ولها على نحر البحر الآن قصر كبير عامر أهل، به صناعات وسوق عامرة، وللبلدة نخل كبير». الإدريسي (أبو عبد الله محمد)، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣م، ص١٧٥. و«لبدة» تعرف قديما بلبتيس مقنا Leptis-Magna وهي مدينة تقع شرق طرابلس، وتبعد عنها بنحو ١٢٣كلم، شيدها الرومان، ثم خربت، وأعيد تعميرها من طرف المسلمين، وبقيت عامرة إلى أن خربها بنو هلال.

٧. «هو قصر مشيد على جبل شاهق يبعد عن فاس ستة أميال... لم يبق منه غير السور والمسجد» انظر: الوزان (الحسن بن محمد)، وصف إفريقية، ترجمة د. حجي و د. محمد الأخضر، ط٢ ن ج١، دار المغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣م، ص٢٩٢.

٨. ليوعبدلي(المهدي)، «أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات»، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، يوليو-أغسطس ١٩٨٦م، ص ٨٣ ـ ٨٧.

٩. ابن أبي الربيع، سلوك المالك،، ص١٥١.

١٠. جبال عمور أو جبل بني راشد كما يعرف لدى المؤرخين القدماء نسبة إلى قبيلة بربرية تعرف ببني راشد نسبة إلى أبيهم راشد. ولما استولى الهلاليون «العمور» على المنطقة نسب جبل بني راشد إليهم. وتعدّ جبال عمور من بين جبال الأطلس الصحراوي المتكونة من جبال القصور وجبال أولاد نائل وجبال الأوراس وجبال النمامشة. تمتاز جبال عمور بالرطوبة موازنة مع المحيط العام، وبارتفاع تضاريسها إذ تبلغ أعلى قمة فيها نحو ٢٠٠٨م بجبل كسل قرب البيض. وتسكن هذه الجبال جماعات اختصت بزراعة الحبوب ورعي الماعز والغنم.

11-E.Mangin , op.cit , 1893,p.385.

12- J.Mélia ,Laghouat ou les maisons entourées de jardins,Plon Nour it,Paris1923 , p.221.

13-M.Si.Lakhdar, Les étapes du pélerin ,Quatrième Congrés de la Fédération des Sociétés savantes de l'Afrique du Nord, Rabat18-20 Avril 1938, t2,:677.

١٤. ابن هطال التلمساني (أحمد)، رحلة محمد الكبير «باي الغرب الجزائري» إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط١، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٩م، ص٦٨. كذلك الهامش ٢ من الصفحة نفسها.

١٥. الأغواطي(الحاج ابن الدين)، «رحلة الأغواطي» تقديم أبي القاسم سعد الله، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر ١٩٨٢م، ص٦٥.


مدخل سور أحد القصور الصحراوية عليه زخارف فنية

واثنان لكل واحدة من البوائك الجانبية. ترتكز العقود على ست دعامات مربعة الشكل، وأربع دعامات على شكل حرف اللام(٣٤). يفصل بين الدعامة والأخرى مسافة تقدر بـ ٥٠ر١م. ويشغل الجزء العلوي من الدعامات حنيات قد يكون الغرض منها إضاءة الصحن ليلاً. يتقدم الرواق مجموعة من الغرف ذات مقاسات مختلفة تتميز إحداها باحتوائها على نصف جدار يقسم الغرفة قسمين غير متساويين. تستمد الغرف ضوء النهار من الصحن عن طريق فتحات الرواق الذي يتقدمها. وكانت هذه الغرف مغطاة بوسائل محلية كخشب العرعار والقصب والرتم على غرار أغلب المساكن الموجودة بالقصر.

يوجد خارج أسوار القصر دار مخصصة للوافدين من الغرباء وعابري السبيل تعرف بدار الضيافة تقابل البساتين والحدائق المحيطة به، متخذة شكل نصف دائرة، مما جعلها تعرف لدى الأهالي بتاجموت أم هلال.

كانت هذه نظرة خاطفة على أحد القصور التي تزخر بها بلادنا، وقد آن الأوان للاهتمام بها وذلك لما تقدمه من خدمات للمجتمع عمرانياً ومعمارياً وسياحياً. ولتبيان أهمية العمارة التقليدية نكتفي بذكر ما قاله المهندس المعماري، وولف توتشترمان: «إن الضرورة أصبحت ملحة للاستفادة من العمارة التقليدية، بعد أن أدرك المهندسون المتخصصون الأخطاء الكامنة في النمط المعماري الحديث الذي يطبق لكل الأغراض تطبيقاً عشوائياً في كل الأنحاء والأجواء».

١٦. الدرعي(العباس محمد بن ناصر)، الرحلة، مخطوطان محفوظان بالمكتبة الوطنية للجزائر تحت رقمي: ١٣٤٩و١٩٥١، ص٢٠.

17-R.Capot Rey et A.Comet et B.Blaudin de Thé , Glossaire des principaux termes géographiques et hydrogéologiques sahariennes, Institut du Recherches sahariennes , Typo Litho , Alger , 1963 , p.74 , n355.

١٨. ويتجلى ذلك فيما نقله ابن هطال التلمساني عن حملة الباي محمد الكبير بقوله: «وفي هذه الدار الحواجب دفع أهل تاجموت جميع قطيعتهم التي تحملوها» ثم يضيف «ولما نزل أتاه أهل تاجموت واستشاروه، هل يأتون له بالعطف في هذه الدار أو حتى ينزل عليهم، فقال لهم لا تنزل عليكم لأني إن نزلت أخاف أن يضركم الجيش». انظر: ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير، ص٥٢ و ٦٨. بينما يرى منجا Mangin أن محمد الكبير دخل تاجموت واحتلها وأبعد رئيسها وهو علي بن بوبكر وعوضه بشخص آخر وهو علي بن العربي انظر: E.Mangin , op.cit , 1893 ,p.386.

19- E.Mangin, op.cit 1894,p.82.

٢٠. الأغواطي (الحاج ابن الدين)، «الرحلة»، ص٦٥.

21-L.C .Daumas, Le Sahara algérien Paris Alger 1845..., pp.27-28.

22-L.C.Trumelet, Les Français dans le désert ,Paris 1886...,p.501.

23-E.Fomentin, Un été dans le Sahara ,Paris 1930..., pp231-241.

٢٤. مالتسان (هـ.ف)، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقية، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر ١٩٨٠م، ص٢٤٧.

٢٥. حث الإسلام على ألا يرتفع البناء أكثر من طابق واحد. انظر ابن خلدون، المقدمة ط٢، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت١٩٦١، ص٧٢٨.

٢٦. هناك من يرى أن التواء الأزقة يعود إلى الخوف الذي رافق الإنسان، وهو ما جعله في بحث مستمر عن حلول توفر له أقصى درجات الأمان والاستقرار. انظر: الجبوري، (حسين علي)، «أثر الخوف والقلق على طراز البناء في منطقة النجف وكربلاء» مجلة التراث الشعبي، وزارة الإعلام، العدد ٧، السنة السادسة، بغداد ١٩٧٥م، ص٨٨.

٢٧. عكاشة (ثروت)، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٤م، ص٦٥.

٢٨. كتب الاسم: أحمد بن بركة في المخطوط الأول للدرعي ١٩٥٤م، ص٢٠، بينما كتب في المخطوط الثاني ١٣٤٩م، ص٧٥، بسيدي أحمد بن بركات.

٢٩. سابق، (السيد)، فقه السنة، المجلد١، دار الفكر، دمشق ١٩٩٣م، ص٢٨٢.

٣٠. الألباني (محمد ناصر الدين)، مختصر صحيح الإمام البخاري، ج١، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي ١٩٨١م، ص٣١٣. الحديث رقم ٦٦٧. سابق (السيد)، المرجع نفسه، ص٢٩٥.

٣١. الغرناطي، (أبو القاسم محمد)، القوانين الفقهية، الدار العربية للكتاب ١٩٨٨م، ص١٠٢. كذلك سابق (السيد)، المرجع نفسه، ص٣٠١. الألباني، المرجع نفسه، ص٣٦٧.

٣٢. في هذه الحالة يكون المنبر فتحة في الحائط تتقدمها درجات مبنية من الطوب أو الحجر.

٣٣. يسميها ابن الصغير بالأهراء (ج.هري)، وهو بيت كبير وضخم يجمع فيه طعام السلطان.انظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص٣٦. وفي بعض المناطق تعرف بدار المونة.

٣٤. تقول الرواية المستقاة من عين المكان إن الدعامات كانت من الطوب، ثم استبدلت بالحجارة.

. مصادر الصور: الإنترنت وكاتب المقال.

يهود الولايات المتحدة الأمريكية

أصولهم وموقفهم من إسرائيل

جمال عبد السميع الشاذلي
الجيزة - مصر

تعدّ الجالية اليهودية في الولايات المتحدة من أكبر الجاليات اليهودية في العالم وأهمها؛ وذلك للدور المهم الذي تؤديه في السياسة الأمريكية، ودعمها الدائم لإسرائيل.

بداية الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة الأمريكية

بدأت الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، ومع بداية الهجرة اليهودية من أوربا، إذ لم يتجه جميع اليهود إلى فلسطين، بل اتجه عدد غير قليل منهم إلى أمريكا.

وقد قام بعض الأمريكيين بالترويج للهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان وكلاء السفن البخارية يدركون أن المهاجرين حمولة مربحة، ولهذا فقد كانوا يبالغون في تزيين الهجرة، ويؤكدون أن الرحلات الحديثة عبر المحيطات تتسم بالأمان والراحة(١).

وقد أدّت المصادمات التي وقعت بين الروس واليهود عام ١٨٨١م دوراً مهمّاً في تدفق الهجرة اليهودية، وهي المصادمات التي عرفت باسم «البوجروم»(٢)، إذ بلغ عدد المهاجرين من أوربا إلى الولايات المتحدة الأمريكية نحو ٢٥٠ ألفاً تقريباً، أي بمعدل سنوي قدره ٣ آلاف، أما الفترة من عام ١٨٨١م، حتى عام



اليهود في أمريكا في زيادة مستمرة

١٨٩٩م فقد ارتفع عدد المهاجرين اليهود إلى ٤٥٠ ألفاً، وكان المتوسط السنوي هو ٢٣ ألفاً تقريباً. وتعلق إحدى اليهوديات على جذب الولايات المتحدة الأمريكية للمهاجرين اليهود، فتقول: «كانت أمريكا على كل لسان، وكان رجال الأعمال يتحدثون عنها، وكانت النسوة في الأسواق يتوقفن عن الشجار؛ كي يناقشن هذا الموضوع من متجر إلى متجر، والأشخاص الذين لهم أقارب في تلك الأرض المشهورة كانوا يقرؤون

خطابات عنها لينيروا أذهان الأشخاص الأقل حظًا، وكان ساعي البريد يذكر للناس عدد الخطابات الواردة من أمريكا ومن الذين سيحظون بها»(٣).

ولم تكن هجرة اليهود إلى أمريكا بالأمر اليسير، بل كانت هناك مشقة كبيرة سواء في موافقة السلطات الأمريكية على هجرة اليهود أم في كيفية الوصول إليها، فقد كان المهاجرون ينقلون بقطارات السكك الحديدية، ويبقون فيها لمدة عشرين إلى ستين ساعة، وكانوا يصابون بالدهشة عندما يصلون إلى شواطئ أمريكا ويرون المباني الشامخة في أمريكا. وقد حاول يهود أمريكا تشجيع اليهود على الهجرة إليها، بينما حاول اليهود الصهاينة الضغط على اليهود للهجرة إلى فلسطين، وبالفعل قام أبناء جماعة «بنى بريت» (٤) بالترويج للصهيونية، ورأوا أن تدفق اليهود إلى أمريكا قد يؤدي إلى تعرض الموقف اليهودي كله فى أمريكا للخطر، في محاولة منهم لإظهار خوفهم على اليهود، ولكنها – في حقيقة الأمر – كانت تبغي تهجيرهم إلى فلسطين، وغلق أبواب الهجرة إلى أمريكا أمامهم.

وقد ازداد عدد اليهود المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد عام ١٨٩١م، إذ هاجر ١٣٥ ألف يهودي من روسيا بمفردها، كما هاجر نحو ٦٠ ألف يهودي روماني. وقد توقفت هجرة اليهود إلى أمريكا إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، وبدأ المهاجرون يتدفقون مرة ثانية على الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٢١م، ووصل عدد اليهود الذين هاجروا من أوربا إلى أمريكا في الفترة من عام ١٨٨١ - عام ١٩٣٠م نحو أربعة ملايين يهودي.

وقد كان عام ١٩٢١ عامًا حاسمًا في الهجرة اليهودية إلى أمريكا، إذ قام الرئيس الأمريكي وارن هاردنج بعقد جلسة غير عادية للكونجرس الأمريكي لصياغة قوانين الهجرة الأمريكية، وفي خلال أحد



جيلان مختلفان من يهود إسرائيل

عشر يومًا أقر الكونجرس القانون، وطبقًا لقوانين الهجرة الجديدة، أصبحت الهجرة السنوية للأغراب من أي جنسية من الجنسيات محددة بمقدار ٣٪.

وقد توزع المهاجرون اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية في المجتمعات الصغيرة داخل أمريكا عن طريق ما عرف باسم «مكتب النقل الصناعي»، وهو هيئة أسسها جماعة من اليهود الألمان الذين هاجروا إلى أمريكا، على أمل التخلص من الازدحام الرهيب في الحارات التي شغلها اليهود في أمريكا، وعاش نحو نصف مليون يهودي في المدن الأمريكية الكبرى مثل مكيفالاند وشيكاغو ونيويورك. وكان تركز اليهود في المدن الأمريكية يعود إلى عدم ممارسة اليهود للزراعة واحترامهم لمهن اعتادوها مثل التجارة، والإقراض بالربا، وأصبحت مدينة نيويورك بصفة خاصة هي التي تضم أكبر عدد من اليهود، فبنهاية الحرب العالمية الثانية كانت مدينة نيويورك تضم ٤٦٪ من عدد اليهود في أمريكا، وكانوا يمثلون ٣٠٪ من عدد سكان مدينة نيويورك بالكامل. وكانت بعض المهن وقفًا على اليهود فقط مثل صناعة الملابس، وصناعة المنسوجات.

اليهود في أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية

كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) بمنزلة نهاية إنجلترا وفرنسا بوصفهما قوتين عظميين، وبداية ظهور الولايات المتحدة الأمريكية على أنها قوة عظمى، بعد اشتراكها في تلك الحرب بجوار بريطانيا وفرنسا فيما عرف باسم «دول الحلفاء» في مواجهة دول «المحور» بزعامة ألمانيا، والتي انتهت بهزيمة «دول المحور».

ولهذا بدأ اليهود يركزون نشاطهم ويثبتون أقدامهم في أمريكا؛ حتى يكون لهم دور مؤثر في مسار السياسة الأمريكية، واستغلت الصهيونية، الوجود اليهودي

لم تكن هجرة اليهود إلى أمريكا بالأمر اليسير، بل كانت هناك مشقة كبيرة سواء في موافقة السلطات الأمريكية على هجرة اليهود أم في كيفية الوصول إليها



عدم الاستقرار الاقتصادي من أسباب معاناة اليهود في إسرائيل

المكثف في الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على مزايا اقتصادية وسياسية تؤهلها لأن يكون لها دور مهم في السياسة الأمريكية.

وقد تركز النشاط الصهيوني في مدينة نيويورك التي تضم - كما أشرنا سابقًا - أكبر عدد من اليهود، وقد تم عقد أهم المؤتمرات الصهيونية في مدينة نيويورك، وهو مؤتمر بلتمور في مايو عام ١٩٥٢م، وقد حدد المؤتمر الأطماع الصهيونية في فلسطين والتي جاءت في ثلاث نقاط:

- فتح باب الهجرة دون قيد وتحت إشراف الوكالة اليهودية.
- تكوين فرقة يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء، ولها علمها الخاص، وفي ذلك إشارة إلى حق الصهيونية في تأسيس دولة تصبح فيما بعد عضواً في الأمم المتحدة.
- تحويل فلسطين بأسرها إلى كومنولث يهودي(٥).

وظهر التدخل الأمريكي الرسمي في القضية الفلسطينية بإصدار الرئيس الأمريكي «ترومان» نداء إلى حكومة بريطانيا بالسماح الفوري بدخول مئة ألف يهودي من يهود أوربا إلى فلسطين (٦).

ويُظهر هذا حرص اليهود على توثيق علاقاتهم مع الدول العظمى، فقد وثقوا علاقاتهم مع الإنجليز إبان الحرب العالمية الأولى، وساندوا بريطانيا في هذه الحرب، وحصلوا على وعد بلفور عام ١٩١٧م، وعندما بدأ نجم بريطانيا يأفل، بدأ اليهود يبحثون عن القوة القادمة، ورأوا أنها الولايات المتحدة الأمريكية، فنصبوا شباكهم حولها. كما كان للولايات المتحدة الأمريكية دور مهم في اتفاقية التعويضات التي تم توقيعها بين ألمانيا وإسرائيل(٧)، وهي الاتفاقية التي أعطت إحساسًا وهميًا بأن اليهود هم الضحايا الوحيدون للحرب العالمية الثانية على الرغم مما يشوب هذا من مغالطات تاريخية واضحة؛ لأن العالم أجمع عانى من النازية، فقد راح ضحية الحرب العالمية الثانية نحو ستين مليونًا.


عانى اليهود كثيراً للوصول إلى أمريكا

المنظمات اليهودية ودورها في دعم إسرائيل

تشير الإحصاءات إلى أن ستة ملايين يهودي يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، ويشكلون ٣٪ من عدد سكانها(٨). واستطاع هؤلاء اليهود أن يشكلوا منظمات يهودية تمارس ضغوطاً على الولايات المتحدة، وتخدم المصالح الإسرائيلية، وتلك المنظمات هي:

- اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشؤون العامة «إيباك»:

منظمة «إيباك» من أهم المنظمات اليهودية في أمريكا، وقد أسست هذه المنظمة عام ١٩٥٤م، وتم تسجيلها في الكونجرس الأمريكي كجماعة مصالح قانونية لها الحق في عرض وجهات نظرها والدفاع عن مصالحها أمام لجان الكونجرس المختلفة، ويزيد عدد أعضائها على ثمانية آلاف عضو، وتشرف على أكثر من مئتي تجمع يهودي في الولايات المتحدة الأمريكية. وتجند «إيباك» أكثر من مليوني يهودي لخدمة نشاطها، سواء سياسيًا لخدمة السياسة الإسرائيلية، أو في الدعم المادي لإسرائيل.

ظهر التدخل الأمريكي الرسمي في القضية الفلسطينية بإصدار الرئيس الأمريكي «ترومان» نداء إلى حكومة بريطانيا بالسماح الفوري بدخول مئة ألف يهودي من يهود أوربا إلى فلسطين

- مؤتمر المنظمات اليهودية الأمريكية والمعروف باسم «مؤتمر الرؤساء»:

وقد أعلن عن تشكيله عام ١٩٥٥ بهدف إيجاد رابط عضوي بين مصالح المجتمع اليهودي الأمريكي وإسرائيل. ويضم هذا المؤتمر ٤٨ منظمة يهودية تضم في عضويتها جميع اليهود الذين يعيشون في كل أنحاء الولايات المتحدة(٩).

- رابطة مناهضة تشويه السمعة:

وانبثقت هذه الرابطة عن التنظيم اليهودي العالمي «بني بريت»، ومهمة هذه الرابطة هي ملاحقة أي شخص أو نائب بالاتهامات والتهديدات، واعتبار ذلك النشاط مستمراً حتى يعود هذا الشخص إلى الخط الذي ترتضيه الرابطة(١٠).

- الصندوق القومي اليهودي والجباية اليهودية الموحدة:

ويضم الصندوق القومي اليهودي كل يهود الولايات المتحدة الأمريكية، وهدف هذا الصندوق هو جمع ضريبة سنوية بنسبة معينة مطابقة للدخل، ويحد أدنى معين للمساهمة في تدعيم إسرائيل، وأن يقوم الصندوق بتوظيف التبرعات والمساهمات المالية المختلفة، واستثمارها في مشروعات إنتاجية مختلفة في الولايات

المتحدة الأمريكية، وإسرائيل، ولا تقصد إلى الكسب بقدر ما تسعى إلى خدمة إسرائيل(١١).

- منظمة البناء الصهيونية، ورابطة العمل الصهيوني ومؤسسة هداسا المهتمة بالجوانب الصحية:

وترمي هذه المنظمات الثلاث إلى التغلغل داخل كل قطاعات الشعب الأمريكي، والارتباط بتلك القطاعات من خلال تبادل المنافع(١٢).

- لجنة الدفاع عن الحقوق المدنية:

وتهتم هذه اللجنة بالدفاع عن الأمريكيين (أفرادًا وجماعات)، والذين يعانون من ظروف اقتصادية صعبة، وظروف اجتماعية سيئة، بهدف خلق التعاطف بين هذه الأقليات واليهود في الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية وإسرائيل من ناحية ثانية (١٣). وتؤدي تلك المنظمات دورًا مهمًا في دعم إسرائيل والضغط على الولايات المتحدة في أي قرارات تتخذها سواء ضد العرب أو ضد إسرائيل؛ أضف إلى ذلك أن يهود الولايات المتحدة الأمريكية يسيطرون على أغلب المراكز الاقتصادية، والشركات والصحف الأمريكية، مما يوجه اليهود كل ما في حوزتهم لخدمة إسرائيل، وضمان تدفق المساعدات العسكرية والاقتصادية لها، ومقاومة أي دعم أمريكي للدول العربية؛ للمحافظة على التفوق الإسرائيلي على الدول العربية عسكريًا واقتصاديًا.

كان تركز اليهود في المدن الأمريكية يعود إلى عدم ممارسة اليهود للزراعة واحترامهم لمهن اعتادوها مثل التجارة، والإقراض بالربا

لماذا لم يهاجر يهود الولايات المتحدة إلى إسرائيل؟

عملت إسرائيل على دعم الهجرة اليهودية إليها سواء قبل إقامتها أو بعدها، وكانت أوربا هي المعين المهم الذي قامت منه بتهجير أغلب يهودها، وبعد إقامتها وجهت أنظارها نحو دول إفريقية وآسيا ونجحت في تهجير عدد كبير من يهود هذه الدول إليها. ويفوق عدد يهود الولايات المتحدة الأمريكية عدد سكان إسرائيل نفسها، والتي يبلغ عددها أربعة ملايين، وبضعة آلاف، إلا أن هؤلاء اليهود الأمريكيين يرفضون الهجرة إلى إسرائيل، والحقيقة أن هذا الرفض له مردوده، ويمكن أن نجمل أسبابه فيما يأتي:

- إن وجود اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية، وسيطرتهم على المراكز الاقتصادية فيها سيجعلانهم عامل ضغط دائم على الولايات المتحدة، ولو هاجروا لفقدوا عامل الضغط هذا. وهذا - في حقيقة الأمر - هو أحد العناصر المهمة التي حددها تيودور هرتزل - زعيم الحركة الصهيونية - في إقامة الدولة اليهودية، فقد كان يرى أنه يجب هجرة اليهود المعدمين، حتى يجدوا بديلاً لحياتهم البائسة، ثم ترك العنان للأثرياء اليهود(١٤) ولم يفرض عليهم ضرورة الهجرة.

المراجع

١. هوارد مورلي ساشتر: تاريخ الشعب اليهودي. ترجمة المخابرات العامة (د.ت)، ص٤٦٩.

٢. البوجروم: كلمة روسية تعني مذبحة بمعناها العام، ثم انتقلت من معناها العام إلى المعنى الخاص، وأصبحت تطلق على المصادمات التي وقعت بين الروس واليهود.

٣. تاريخ الشعب اليهودي. ص٤٦٩.

٤. بني بريت: هو التعليم اليهودي العالمي الذي يهتم بالنشاطات التعليمية والاقتصادية والثقافية بين اليهود في جميع أنحاء العالم.

٥. د. صلاح العقاد: العرب والحرب العالمية الثانية. معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

٦. وليم فهمي: الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ص٦٣.

٧. د. جودة عبد الخالق: من يساعد إسرائيل، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٦٦.

٨. روجيه جارودي: المأزق إسرائيل. ترجمة ذوقان قرقوط. دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٤م، ص٦٢.

٩. صحيفة دافار الإسرائيلية، ٢٠ يناير١٩٩٢م.

١٠. أفرايم ومناحم تلمي: قاموس المصطلحات الصهيونية، ترجمة أحمد فؤاد العجرمي ص ٥٧.

١١. د. عبد الوهاب المسيري: موسوعة المعاجم والمصطلحات الصهيونية. مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ٢٩٧٥م، ص٢٤٢.

١٢. دانيال كارفي. هتسيونوت، ماسافي لتولدوت هتنوعا هتسية يفت (الصهيونية مختارات من تاريخ الحركة الصهيونية) هكيبوس همؤحاد، تل أبيب، الجزء التاسع ١٩٨٤م، ص٩٥ (بالعبرية).

١٣. المرجع السابق.

١٤. د. محمد خليفة حسن: الحركة الصهيونية، طبيعتها وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص٩٨.

معدلات الصرف

العلاقة الدقيقة بين علم الاقتصاد وعلم السياسة

ترجمة: صلاح يحياوي

ماديسون ـ أمريكا

يُعدّ كتاب معدلات الصرف Exchange Rates لنيال فرغسون Niall Ferguson جهداً واسع المعرفة وممتازًا وذا برنامج مزدوج معقد.

يهدف أحدهما إلى دحض الأساليب التقليدية الشعبية للحتمية(٢) الاقتصادية في نظرية بول كينيدي Paul Kennedy عن التمدد الإمبريالي المتجاوز الحد كسبب للضعف التدريجي الوطني، وكرؤية فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama للديمقراطية والرأسمالية المنتصرتين.

ويقصد الثاني إلى إقناع الولايات المتحدة بالتصرف على نحو أكثر شبهًا بتصرف الإمبراطورية البريطانية القديمة «فرض ديمقراطية واقتصاد سوق على الدول الشريرة».

إن الهدفين متصلان. ويقترح فرغسون أن يتحمل الأمريكيون مسؤولياتهم الإمبريالية لإدارة النظام العالمي على نحو أكثر جدية؛ لأنهم كانوا مرتبكين بنظريات الحتمية الاقتصادية المريبة.

لقد تمّ في القسم الأكبر من الكتاب تبني الهدف الأول مُستَتَقْرَبًا بدراسة «رابطة النقد» التي تربط علم السياسة وعلم الاقتصاد اللذين يتحكم كل منهما بالآخر. ولكن كيف تنجح أمور تعتمد على قرارات اتخذتها كائنات بشرية لا يمكن التنبؤ بها. لا يستطيع علم الاقتصاد ولا علم السياسة التنبؤ بالتاريخ البشري الذي «نادراً ما تكون له أي علاقات سببية خطية». يستشهد فرغسون بتوماس كارليل(٣)، «إن التاريخ الذي انقضى هو



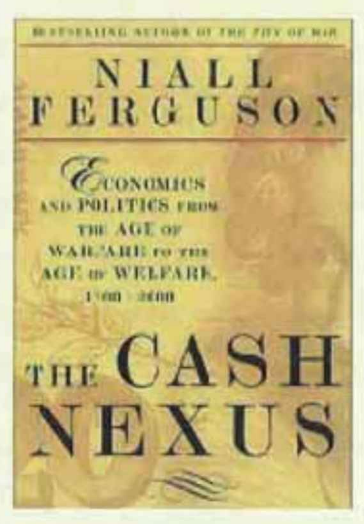
وجود فوضى يعمل دائماً طالما بقي حيًا بحيث لا ينفك يُجسّد نفسه من عناصر لا تحصى في شكل بعد آخر». إن هناك مع ذلك ارتباطات سببية بين العالمين

الاقتصادي والسياسي. يحتوي كتاب «رابطة النقد» على تحليل وإعلام وافرين، وتُوضح مقدمةٌ لبقة كامل الخلاف. كانت الحرب غالبًا محركَ النمو الاقتصادي، وبخاصة التغير المالي. وبإمكان علم الاقتصاد التأثير تأثيرًا عظيمًا في الإمكانات العسكرية. ومع ذلك تستطيع الدول الأكثر فقرًا الانتصار إن كان لديها مؤسسات عالية تجعل قوتها التدميرية تتصرف بسرعة. لقد حدث هذا تقريبًا في الحربين العالميتين كلتيهما عندما سددت الأنظمة الألمانية الفاشستية ضربات كاسحة في البداية. فكي تكون الدول الرأسمالية فعالة عسكريًا عليها أن تُكَيِّف قوتها الاقتصادية، وتستنفرها.

الولايات المتحدة اليوم - كالإمبراطورية البريطانية منذ قرن مضى - عرضة للانتقاد ليس من أجل التمدد المتجاوز الحد، بل من أجل التمدد القاصر

كانت بعض المؤسسات من الناحية التاريخية ذات شأن حاسم: نظام منطقي لجمع الضرائب، وبرلمان يُجيز فرض الضرائب ويُدخل تحسينات عليها، ودَيْن قومي يتيح استعارة ثقيلة الوطأة لتغطية مصاريف الحرب، ومصرف مركزي يدير دَيْنًا ومالاً لتفيد منهما الدولة. إن أمثال هذه المؤسسات تنشط الاقتصاد بكامله، وتسرع تطوره.

تُعد بريطانيا الهانوفرية(٤) المثال الموضِّح المفضَّل لدى فرغسون. فعلى الرغم من أن اقتصادها كان أصغر على نحو هائل من اقتصاد منافستها الفرنسية فقد أتاحت المؤسسات الاقتصادية السياسية العليا لبريطانيا تعبئة الثروة والقوة لتنتصر عسكريًا. ويعلن الفصل الأخير من الكتاب مباشرة الرسالة التي كان فرغسون قد عزَّزها منذ البداية: الولايات المتحدة اليوم - كالإمبراطورية البريطانية منذ قرن مضى - عرضة للانتقاد ليس من أجل التمدد المتجاوز الحد، بل من أجل التمدد القاصر. لقد ضعفت بريطانيا تدريجيًا؛ ليس لأنها أجهدت اقتصادها، بل لأنها أخفقت في تعبئة مواردها في الوقت المناسب لردع ألمانيا. فهو يقول: لو كانت بريطانيا مصممة على المقاومة وليس على تسوية الخلافات لتوجب عليها تعزيز جيش مشاة من أجل ساحات القتال حيث كان قدَرُ أوربا محددًا. لم يكن النقص في الموارد عذرًا. ففي القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر قامت بريطانيا الأكثر فقرًا بكثير بتعبئة نسبة أكبر بكثير من ثروتها القومية للحرب؛ وذلك على نحو ناجح.




توماس كارليل

فإن أخفقت الولايات المتحدة في تعبئة ثروتها، فإن من المحتمل أيضًا أن تضعف تدريجيًا، إن العالم يصرخ طلبًا لمُشَرِّع. وكما بينت كوسوفو فإن التطور وتوزيع

القوة العسكرية قد أتاحا عصراً جديداً من دبلوماسية السفينة ذات المدافع(٥).

غير أن فرغسون يستمر قائلاً: «الأمريكيون غير واثقين من أنفسهم حول استخدام قوتهم الجديدة - التي لم يسبق لها مثيل - لفرض ديمقراطية واقتصاديات السوق. وبتوسيع الناتو NATO(٦) وسعوا تعهداتهم، لكنهم أخفقوا في توسيع إمكاناتهم وفقًا لذلك.

إن زعماء دولة واحدة ذات مصادر اقتصادية لجعل العالم مكانًا أفضل يفتقرون إلى الشجاعة للقيام بذلك.

إن أطروحة فرغسون الواسعة حول العلاقة الغامضة بين علمي السياسة والاقتصاد - على ندرة جدتها - هي - مع ذلك - احتراس مُرَحَّب به ضد التوقعات الساذجة لرجال الساعة مُنظِّري السلام والداعين إلى الانتصار بحثًا عن السلطة والسيطرة في العالم. إن طريقته في رفض حجة التمدد المتجاوز الحد هي مع ذلك طريقة أقل نجاحًا، إذ ليست المشكلة في وفرة الحجج والمعطيات التي تعيق مسيرة «رابطة النقد» فحسب، بل أيضًا في نظر تاريخ لا يبدو فيه تغير في الأسس.

يبدو تاريخ فرغسون مكتوبًا بالزمن الحاضر. وهذا يجعل تطبيق تجربة من عصر إلى آخر أمرًا طبيعيًا. غير أن فوارق في السياق قد تم تجاهلها بسهولة.

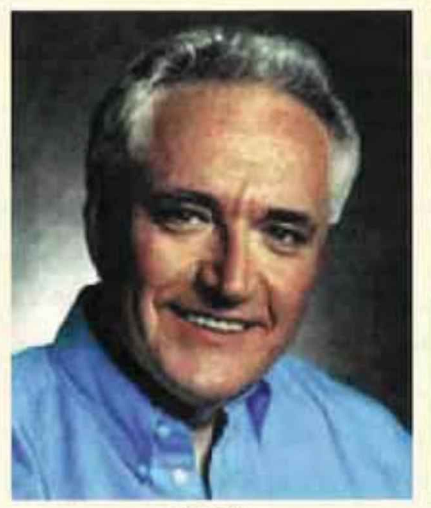
إن هذا هو مسؤولية قانونية جديدة لتحليل ضعف بريطانيا التدريجي، أو توقعات أمريكا سواء بسواء.

يبدو من الصعب إنكار أن بريطانيا كانت قد أُحبطت كقوة عالمية من جراء تكاليف الحربين العالميتين الثقيلة. ربما كان بإمكان بريطانيا التسلح على نحو أكثر فعالية ضد ألمانيا مقدمًا. غير أن بريطانيا فقدت دورها العالمي الإمبريالي ليس بسبب منافستها الشريرة ألمانيا، بل بسبب صديقتها العظمى الولايات المتحدة. إن كتاب روبرت سكيدلسكي R. sk idlesky عن حياة كينز Keynes(٧) «الحرب من أجل بريطانيا Fighing for britain» يرسم هذه الصورة على نحو مفعم بالحيوية.

كان كينز في النهاية يقاتل لينقذ الإمبراطورية البريطانية، ليس من الغزو الألماني، بل من التولي الأمريكي للأمر والسلطة. لا ينفك المؤرخون - وهم يفكرون مليًا في قَدَر بريطانيا - عن التساؤل لماذا لم يُبذل جهدٌ أكبر لتسوية الخلافات مع الألمان الإمبرياليين قبل الحرب العالمية الأولى - وهي حجة تم التطرق إليها مرة في كتاب «رثاء الحروب The Pity Of Wars». كان الوقت قد فات في زمن هتلر دون أن يترك مجالاً للتهدئة. وكان الأوان قد فات أيضًا مع ألمانيا العدو المميت غير القابل للمصالحة لإنقاذ



فوكوياما



بول كينيدي

الإمبراطورية البريطانية من الاتكال على أصدقائها الأمريكيين. فهل نجم ضعف بريطانيا التدريجي عن معارضة ممارسة قوتها، أم عن إخفاق التوصل إلى تفاهم مع عالم متغير؟

إعادة تشكيل

ينصح فرغسون أمريكا باستخدام طاقتها لإعادة تشكيل الكرة الأرضية أو صياغتها حسبما تشاء. وهنا أيضًا قد لا يكون معيرًا ما يكفي من انتباه إلى السياق الذي هو في هذه الحالة نظام العالم المتطور للقرن الحادي والعشرين. للبدء بذلك قد لاتكون الولايات

المتحدة قوية إلى الحد الذي يُظن. وكما يشير هو نفسه: «فإن الولايات المتحدة ـ على عكس بريطانيا الإمبريالية ـ هي مجرد مُصَدِّر لبضائع وخدمات، لرأس مال وسكان. وفي الغنى الهائل الذي نحن فيه في هذا البلد، إننا نأخذ من باقي العالم أكثر مما نعيد إليه. وفي هذه الحال قد تكون مشكلتنا العظمى على المدى الطويل تفادي رد فعل عالمي النطاق ضدنا. إن مقاومة العراق وصربيا ليست هي التي تهددنا بتمدد متجاوز الحد، بل بتعاظم روسيا والصين، وأخيراً أوربا نفسها».

إن القوى الكبرى في باقي العالم هي أكثر قلقًا من القوة العظمى الشريرة مما هي من خارجين ثانويين على القانون الذين يتيحون الفرصة لتداخلات القوة العظمى.

عالم أحادي القطب

وعلى نحو قابل للأخذ والرد فإن السياق السياسي الطبيعي اليوم هو على نحو سطحي أحادي القطب. وهناك ـ كما في أوج السلام البريطاني المفروض(٨) Pax - Britanica ـ عالم أكثر تعددية آخذ في التشكل تحت السطح.

تتضمن نصيحة فرغسون أن يُعارض بالقوة نشوءُ أية قوة أخرى. «إن هذا تمدد متجاوز الحد، تمدد ضخم على نحو حقيقي قد يجعل أخطاء القرن العشرين السياسية الطبيعية تبدو ثانوية. إن سياسة أمريكية عالمية أكثر حكمة وعلى مزيد من التناغم مع ميولنا الوطنية وتوازننا الوطني هي سياسية تسوي الخلافات مع القوى العظمى الناشئة وتتملقها في أنظمة من رتبة محلية. فالناتو يبدو مكانًا واضحًا للبدء، مع قوة دفاع أوربية منشأة حول الاتحاد الأوربي. وتبقى الولايات المتحدة منتظرة في المكان أو بقربه، ولكن من دون الدخول إلى الطريق».

نوَّه تحليل فرغسون بالاتحاد الأوربي على نحو هزيل. إنه لا يشير بتفصيل تام إلا إلى الاتحاد المالي الأوربي بالموازنة مع علاقات متبادلة نداً لند ـ تقريباً ـ مع الاتحاد المالي اللاتيني في القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين، وعلى قَدْر مماثل تقريباً من احتمال البقاء، قد لا يكون خطأ فرغسون غير المقصود خطأ سياسيًا طبيعيًا فحسب، بل هو تاريخي أيضًا. كان كارليل متحمسًا من دور الزعماء الفرديين في إنهاء أحداث، وكذلك في صياغة تأثير فكرة العصر التي حدد إظهارها للعيان من هم الزعماء الناجحون أو المخفقون. لا يبدو أن فرغسون على تماس وثيق مع فكرة تشكيل أوربا أو صياغتها هذه الأيام. ففي خياله السياسي الطبيعي لا يبدو أنه قد حدث شيء في إطار التاريخ منذ القرن الثامن عشر. وهذا ما جعل من الأسهل عليه تجاهل ما قد يكون التطور الأكثر مغزى في أوربا منذ الحرب العالمية الثانية ألا وهو إنشاء الاتحاد الأوربي.

إن أي سياسة تنكر هذا التغير مكتوبٌ عليها باللا علاقية. إن الباخرة الأقيانوسية البريطانية الضخمة قد سُحبت إلى الشاطئ، ولم تعد تُختار للسباحة مع التاريخ. قد يكون العَرَضُ الأكثر إيلامًا هو التقرير التواق إلى الماضي في بعث بريطانيا إمبريالية مع أمريكا إمبريالية.

المراجع والهوامش

١. معدلات الصرف Exchange Rates، مقال كتبه ديفيد كالو David Calleo، أستاذ الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة Johns Hopkins عن الكتاب الذي صدر مؤخراً بعنوان The Cash Nexus (رابطة النقد: المال والسلطان في العالم الحديث ١٧٠٠ ـ ٢٠٠٠م) لمؤلفه نيال فرغسون Niall Ferguson، ونشر المقال في The New York Times Book Review في ٢٥ آذار/مارس ٢٠٠١م.
٢. الحتمية Determinism مذهب يقول: إن أفعال المرء والتغيرات الاجتماعية و... هي ثمرة عوامل لا سلطة للمرء عليها. (المترجم)
٣. Thomas Carlyle (١٧٩٥ ـ ١٨٨١م) كاتب ومؤرخ اسكتلندي.
٤. هانوفرية نسبة إلى Hanover الأسرة الملكية التي حكمت بريطانيا العظمى تحت ذلك الاسم من عام ١٧١٤م إلى عام ١٩٠١م، أو إلى مجلس هانوفر التشريعي ١٧٦٥ ـ ١٧٧٥م. (المترجم).
٥. Gunboat Diplomacy علاقات دبلوماسية تشمل استخدام القوة العسكرية أو التهديد بها وبخاصة من قبل دولة قوية ضد دولة أكثر ضعفًا (١٩٢٥ ـ ١٩٣٠م). (المترجم).
٦. NATO حلف شمال الأطلسي North Atlantic Treaty Organization (المترجم).
٧. البارون جون ماينارد كينز John Maynard Keynes ١٨٨٣ ـ ١٩٤٦م. اقتصادي وكاتب إنجليزي (المترجم).
٨. سلام فرضته بريطانيا العظمى على دول معادية وبخاصة في القرن التاسع عشر (١٨٩٥ ـ ١٩٠٠م) (المترجم).



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣٠١)

رجب ١٤٢٢هـ - سبتمبر /أكتوبر ٢٠٠١م

الفائز الأول: **حسام الدين سامي أحمد حسن - عمان - الأردن.**

الفائز الثاني: **عبدالحميد محمد عبدالحميد الشافعي - ميت غمر - مصر.**

الفائز الثالث: **رياض إدريس حسن - حلب - سورية.**

الفائز الرابع: **عادل قائد عطاء العريقي - صنعاء - اليمن.**

الفائز الخامس: **محمد مكرم عمر محمد - الدمام - السعودية.**

الفائز السادس: **أحمد رامي القطان - الرميثية - الكويت.**

الفائز السابع: **رانيا أحمد سلامة غنام - الزرقاء - الأردن.**

الفائز الثامن: **علية عبدالحميد أحمد عثمان - القاهرة - مصر.**

حل مسابقة العدد (٣٠١)

١- على شرف السبعين ودعت ماضياً
وشيّعت لَمّاح الرؤى والأمانيا

قائل البيت هو: بولس سلامة.

٢- ذهب مع الريح: **رواية للكاتبة الأمريكية مارجريت متشيل.**

٣- الباتيك: **فن الرسم والطبع على القماش.**

٤- إسكيمو: **معناها الذين يأكلون اللحم نيئًا.**

٥- سيف الدين الرحال: **أديب مهجري ترجم معاني القرآن الكريم إلى الإسبانية.**

أسئلة مسابقة العدد (٣٠٤)

ضع علامة ☐✓ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) من قائل هذا البيت:

قل للمشيرِ إلى أبيه وجَدّه أعلمتَ للقمرين من أسلافِ؟

☐ أحمد شوقي ☐ جرير.

(٢) قرفة وقرنفل: ☐ رواية شهيرة للروائي البرازيلي جورجي أمادو ☐ مسرحية ساخرة عن الإقطاع الإنجليزي لجورج برناردشو.

(٣) الزُّباد: ☐ طيب يخرج من غدد بعض الحيوانات ☐ حجر شبه كريم يميل إلى الزرقة.

(٤) ظهران الجنوب: ☐ نجم شهير، بظهوره يبدأ الموسم الزراعي بالمملكة العربية السعودية
☐ مدينة في محافظة عسير في السعودية.

(٥) ابن زُهر: ☐ طبيب عربي أندلسي، حارب الشعوذة والخرافات في الطب ☐ كاتب وشاعر أندلسي، عرف بهجائه اللاذع.

الاسم: ________ **المدينة:** ________ **ص.ب:** ________ **هاتف:** ________

العنوان: ________ **الدولة:** ________ **الرمز البريدي:** ________ **ناسوخ:** ________



شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى: ١٠٠٠ ريال.
الجائزة الثانية: ٧٠٠ ريال.
الجائزة الثالثة: ٥٠٠ ريال.
الجائزة الرابعة: ٤٠٠ ريال.
الجائزة الخامسة: ٢٥٠ ريالاً.
الجائزة السادسة: ١٥٠ ريالاً.
الجائزة السابعة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).
الجائزة الثامنة: مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.
والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا بحظ وافر لجميع القراء الأعزاء.

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الكرنك متحف بلا جدران

خالد خلف زيدان
المنيا - مصر



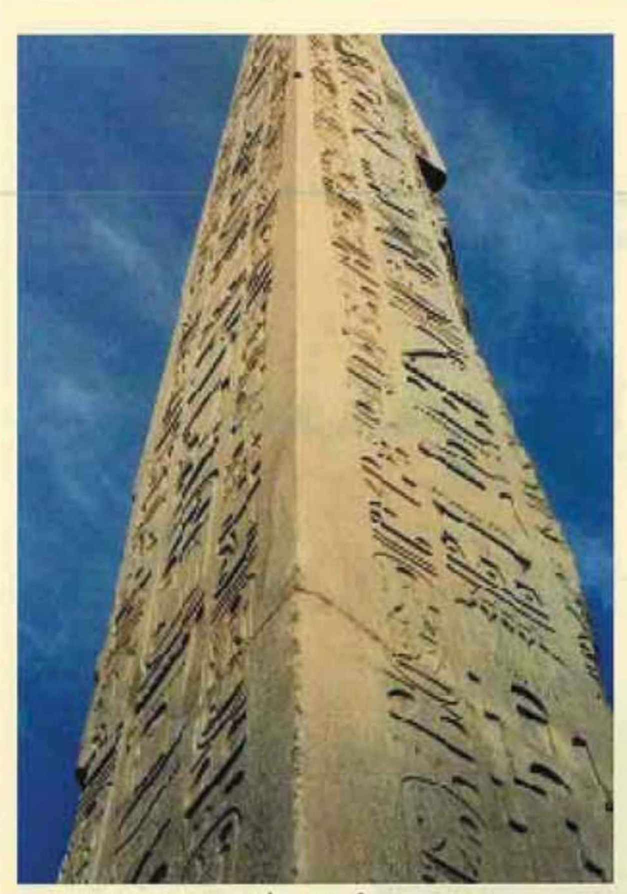
مازالت معابد الكرنك التي تشغل مساحة تزيد على ستين فدانًا في شمال الأقصر بصعيد مصر - تثير دهشة الناظرين، وتلهب خيال الزائرين روعة وجمالاً، بفخامة أبنيتها، وسموق أساطينها، وفخامة صروحها، وشموخ مسلاتها، وتألق نقوشها. لذلك فهي تعدُّ بحق معرضًا مكشوفًا أو متحفًا بلا جدران نستطيع أن نتتبع فيه بصورة جلية آثار التاريخ المصري القديم وحضارته في نهضاته وكبواته خلال ألفي سنة تقريبًا.

التاريخ يبوح بأسراره

تبدأ علاقة الكرنك بالتاريخ في أوائل عهد الدولة الفرعونية الوسطى (٢٠٥٢ - ١٧٨٥ق.م) عندما أصبح آمون الإله الرئيس لمملكة طيبة، وارتفع معه في

التقديس العضوان الآخران في ثالوثه وهما قرينته «موت» وابنه «خنسو». فمنذ هذا التاريخ بدأ معبد آمون يبرز أول مرة، وذلك على يد أمنمحات الأول (١٩٩١ ـ ١٩٦٢ق.م)، غير أن خليفته سنوسرت الأول (١٩٧١ ـ ١٩٢٦ق.م) هو الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في عمارته آنذاك. ومما أمكن الاستدلال عليه في الكرنك أن معبد الدولة الوسطى فيه، كان يقع عند المباني القائمة حاليًا بين صالة الأعياد لتحتمس الثالث وخلف الهيكل الجرانيتي لفيليب أريديوس، وكان يشتمل على ثلاث قاعات متتابعة، وكان في الأخيرة منها ناووس على قاعدة كبيرة من المرمر.

ومنذ أن بلغ آمون القمة بعد إدماجه مع رع في أيام الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ ـ ١٣٠٧ق.م) غدت تفتح باسمه البلاد، وتقام له المنشآت، وأخذت تغدق على معابده العطايا والهبات، حتى أصبح معبده في الكرنك يملك الأراضي الواسعة والمصانع المختلفة، وله السفن تنقل منتجات حقوله ومصنوعاته، وامتلأت خزائنه بالذهب والفضة، وشونه بالغلال، ومخازنه بالأخشاب الثمينة، وحظائره بالبقر


مسلة تحتمس الأول

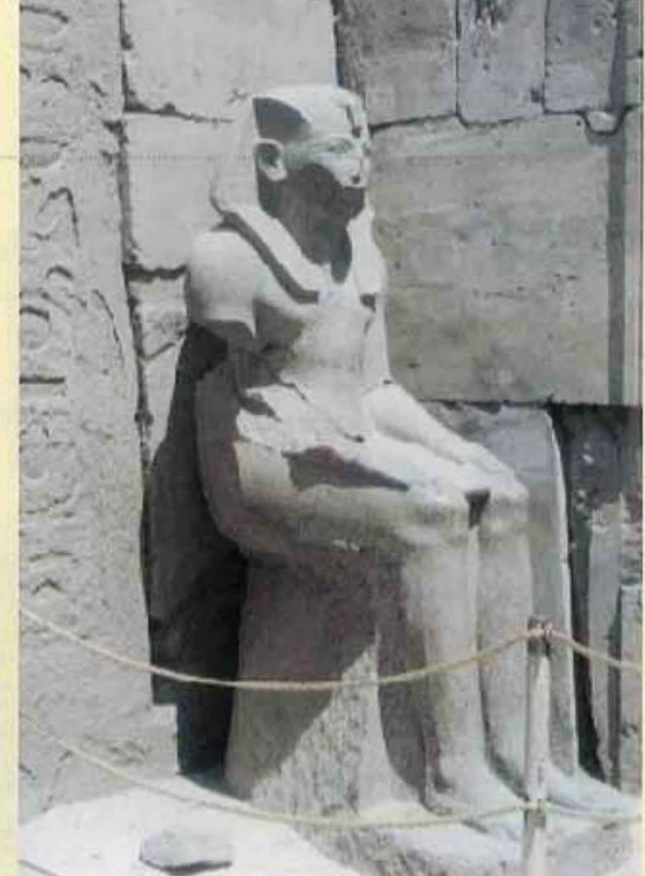

طريق الكباش



منظر عام لآثار الكرنك

والأغنام. وقد بدأ هذا العمل أحمس الأول (١٥٥٠ ـ ١٥٢٥ق.م) بعد أن حرر البلاد من ربقة الهكسوس، ثم تبعه أمنوفيس الأول (١٥٢٥ ـ ١٥٠٤ق.م) الذي يشير مهندسه «إنني» إلى الصرح الكبير الذي شيّده له بالمعبد بقوله: «إن ارتفاعه يبلغ ستين ذراعاً، وهو مصنوع من حجر طرة الجميل». غير أن أول من أضاف إضافات مهمة إلى المعبد هو تحتمس الأول (١٥٠٤ ـ ١٤٩٢ق.م) الذي شيد لنفسه فناءً كبيراً إلى الناحية الشمالية الغربية من مبنى الدولة الوسطى مع صرح يعرف الآن بالصرح الخامس. لكنه عندما وسع خططه زحف إلى الوراء ناحية الغرب، وأقام صرحاً آخر أكبر يعرف بالصرح الرابع، وأقام بين الصرحين بهواً كانت أساطينه وسقفه من خشب الأرز، ثم نصب أمام الصرح الغربي مسلتين لا تزال إحداهما قائمة حتى اليوم، وهي تجاوز مسلة ابنته حتشبسوت (١٤٧٣ ـ ١٤٥٨ق.م) التي أزالت جزءاً من سقف بهو أبيها لتخلي مكاناً لتسمو فيه هذه المسلة وشقيقتها التي سقطت، ولم يبق سوى قمتها التي مازالت نائمة بجوار البحيرة المقدسة.

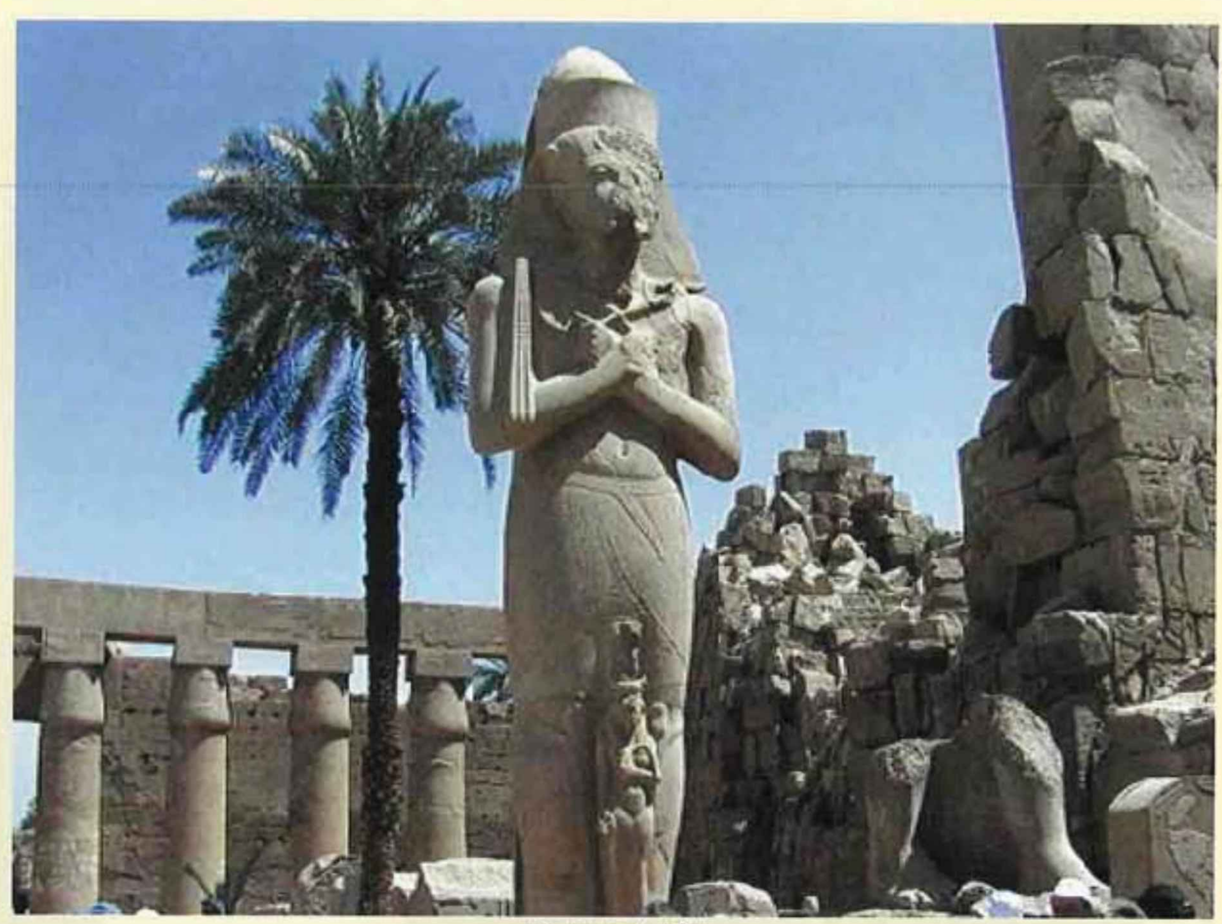
وبخلاف مسلتيها شيّدت حتشبسوت بالكرنك الصرح الثامن، وحجرة تحمل جدرانها مناظر تمثلها وهي تقدم القربان لآمون رع. غير أن تحتمس الثالث (١٤٧٩ ـ ١٤٢٥ق.م) شوه شكلها حقداً عليها. على أن أعماله الأخرى كانت أكثر جدارة باسمه؛ وذلك ببنائه عدة مقاصير في فناء جده تحتمس الأول، وتشييده الصرح السادس الذي أقام بينه وبين الصرح الخامس صالة بها مجموعة من الأعمدة. بالإضافة إلى تجميله لأرجاء المعبد خمس مسلات جلبها من جرانيت أسوان الوردي.


تمثال لتحتمس الثالث

ولم تتوقف منشآت تحتمس الثالث بالكرنك عند هذا الحد، فقد أقام خلف الصرح السادس الحجرتين الخاصتين بالسجلات، وأظهر بقاياهما العمودان المربعان من الجرانيت الجميل المرسوم عليها بالحفر البارز ما يمثل السوسن والبردي. وحتى هذا الوقت كان امتداد المعبد نحو الغرب، لكن الملك أضاف صالة كبيرة إلى الأعياد في النهاية الشرقية للبناء، كذلك أقام حجرة من الحجر الرملي تغطي ثلاثة من جوانبها أخبار حملاته في سورية.

وبعد تحتمس الثالث بنى أمنوفيس الثالث (١٣٩١ ـ ١٣٥٣ق.م) أعمالاً متعددة في الكرنك، ولكنها ـ على كثرتها وروعتها ـ مبعثرة، فما من شك في أن طريق الكباش قد أضاف الكثير إلى روعة المدخل الجنوبي. وما من شك أن الصرح الثالث كان واجهة غربية في غاية الروعة. هذا ويعدّ حورمحب (١٣١٩ ـ ١٣٠٧ق.م) آخر من خلد اسمه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة بأعمال معمارية في الكرنك، إذ بنى الصرح التاسع وملأه بأحجار معبد أمنوفيس الرابع (١٣٥٣ ١٣٣٥ق.م) بعد أن هدمه، ويتجه محوره نحو الشمال، وقد تهدم بشكل واضح. كما بنى أيضاً الصرح العاشر


بهو الأعمدة العظيم

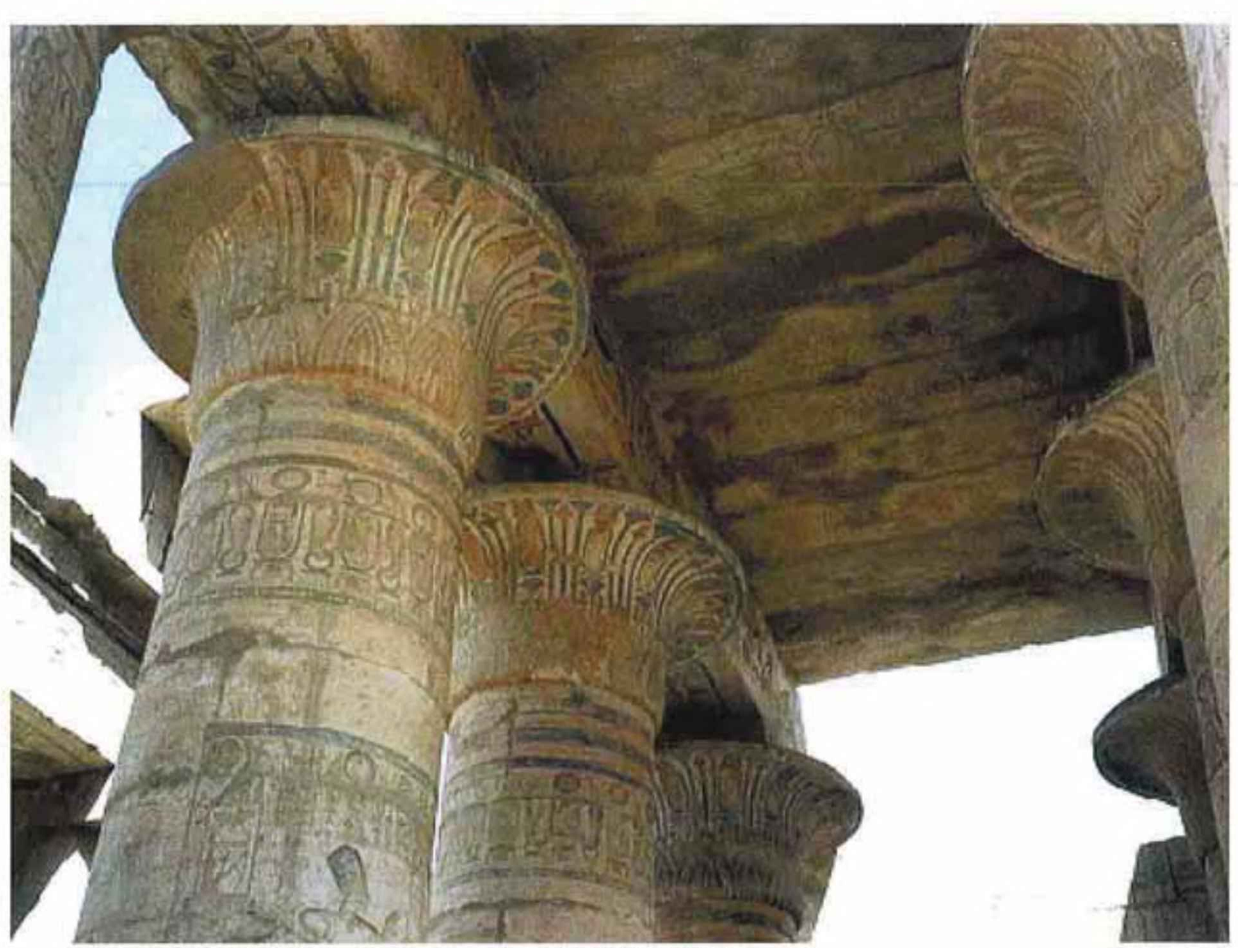


تمثال بينوجم وزوجته

وجعل له باباً من الجرانيت في سور المعبد، ويعدّ هذا الصرح مدخل المعبد من الجنوب، ويتجه منه طريق كباش يصل معبد آمون بمعبد زوجته «موت».

وبقيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٧ ـ ١١٩٦ ق.م) بنى الملوك أمثال رمسيس الأول (١٣٠٧ ـ ١٣٠٦ق.م)، وسيتي الأول (١٣٠٦ ـ ١٢٩٠ق.م)، ورمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق.م) وسيتي الثاني (١٢١٤ ـ ١٢٠٤ق.م) مباني ضخمة شامخة منها بهو الأعمدة العظيم، والصرح الثاني الذي يقع إلى الغرب منه.

ولما أحكم الليبيون قبضتهم على البلاد وكونوا الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ ـ ٧١٢ق.م) وأسسوا عاصمتهم في بويسطة، حدث انتعاش في المعمار بالكرنك؛ وقد أظهر هذا الفناء الفسيح الذي أقاموه غرب بهو الأعمدة كيف كانت خطتهم عظيمة بل أعظم من قدراتهم في الواقع. ولعمر الحق إن هؤلاء الليبيين لم يكونوا الدخلاء الوحيدين الذين أضافوا إلى العمارة الكرنك، بل تبعهم الإثيوبيون الذين كونوا الأسرة الثالثة والعشرين (٧١٢ ـ ٦٥٧ق.م) وكان أبرز ما أنجزوه هو الصرح الأول الضخم الذي يكوّن حالياً الواجهة الغربية للمعبد. كما أضاف البطالمة إلى المعبد أجزاء أخرى فيما بعد، من أهمها مقصورة فيليب أريدايوس التي شيّدها بقدس الأقداس، وأعمال الزخرفة التي قام بها بطليموس الثالث (٢٤٧ ـ ٢٢٢ق.م) على بوابة تيوس بمعبد حتشبسوت. ولربما كان بطليموس الزمار (٨٠ ـ ٥١ق.م) آخر من ساهم في أعمال معمارية في الكرنك، وذلك من خلال نقوشه التي تركها على جدران معبد بتاح.



تيجان بهو الأعمدة العظيم

ملامح معبد آمون

إن أول ما يطالعه الزائر وهو يشرف على الكرنك عن بعد هو ذلك الصرح الشاهق الذي أنشأه الإثيوبيون، ولم يكتمل البناء فيه بصفة نهائية، ويعدّ الواجهة الأمامية للمعبد من ناحية النيل، ويبلغ عرضه ١١٣م، وله برجان ارتفاعهما ٤٥م وسمكهما ١٥م.

وقبل أن يقترب الزائر من هذا الصرح الهائل يستوقفه الرصيف الذي كان يصل النهر بالمعبد. يليه ساحة تنصب عليها مسلة صغيرة لسيتي الأول. بينما لم يبق من المسلة الثانية سوى قاعدتها. ثم يسير الزائر في طريق الكباش، وهو من صفين من تماثيل أبي الهول، يتكون كل منها من رأس كبش وجسم أسد، وقد وقف رمسيس الثاني - الذي أنجزت هذه التماثيل في عهده - تحت رأس الكبش في حماية الإله آمون.

وما يكاد الزائر يجتاز الصرح الأول حتى يجد نفسه في فناء مكشوف تبلغ مساحته ثمانية آلاف متر مربع يرجع تشييده إلى عهد البوبسطيين. وإلى اليسار مقصورات ثلاث بناها سيتي الثاني لثالوث طيبة المقدس. وكان يتوسط الفناء رواق أقامه الملك طهارقا في القرن السابع قبل الميلاد، وقد كان في حقيقة الأمر جوسقًا يستقر على قاعدة في وسطه الزورق المقدس إبان الاحتفالات. وكان يتألف من صفين من الأساطين، في كل صف خمسة أساطين في شكل غصن بردي يجمعها معًا جدار جانبي، وقد تهدمت جميعها ولم يبق منها غير أسطون واحد في نهاية الصف الأيمن، وهو يسمو في الفضاء بارتفاع



آثار لا حصر لها

واحد وعشرين متراً، وتتألف ساقه من خمسة وعشرين طنبوراً من الحجر الرملي الذي أجيد نحته، أما التاج فيتكون من خمسة مداميك، ويبدو على شكل زهرة البردي اليانعة.

ويقابل جوسق طهارقا في الجهة الجنوبية معبد رمسيس الثالث، الذي يبلغ طوله اثنين وخمسين متراً، ويقف عند بوابته تمثالان لرمسيس، وخلف البوابة فناء على جانبيه رواقان من ستة عشر عموداً تستند إلى كل منهما صورة الملك في شكل الإله أوزيريس. وتلي ذلك قاعة عمد أمامية، ومن خلفها مقصورات لثالوث طيبة، وقد خصصت الوسطى منها لآمون، والشرقية لموت، بينما خصصت الغربية لخنسو. وتزين جدران هذا المعبد مناظر لرمسيس الثالث أبرزها ما يمثله وهو يذبح أسراه، أو هو يتسلم من آمون رمز اليوبيل، أو هو يتقدم الكهنة الذين يحملون المراكب المقدسة.

ويجدر بنا ونحن نعرج إلى الصرح الثاني الذي شيده رمسيس الأول أن نلقي نظرة عابرة على رواق البوبسطيين بمدخله الذي شيّده شيشنق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ق.م) في الزاوية الجنوبية الشرقية لفنائهم الرحب، ونقوشه التي تمثل أوسركون الثاني (٩٢٤ - ٩٠٩ق.م) وأوسركون الثالث (٨٨٣ - ٨٥٩ق.م) وتاكلوت الثاني (٨٦٠ - ٨٣٥ق.م) وهم في حضرة الآلهة المختلفة. بيد أن أهم نقوش هذا الرواق تلك التي سجلت على الجدار الجنوبي لصرح رمسيس الأول، وتبرز انتصارات شيشنق على إسرائيل وهدمه لمعبد سليمان في أورشليم.

ويقف على جانبي الصرح الثاني تمثالان لرمسيس الثاني نحتا من الجرانيت الوردي، ولكن ضاع الجزء العلوي من التمثال الأيسر. ويجانب الساق اليسرى للتمثال الأيمن مُثلت الأميرة «بنت عنات». وقد عثر بالقرب من هذا التمثال في عام ١٩٥٤م على تمثال آخر من الجرانيت الوردي لبينوجم رابع ملوك الأسرة الحادية والعشرين، يمثله واقفًا وأمامه زوجته. وقد وقفت على قدميه، ومثلت أصغر حجمًا.

بهو الأعمدة العظيم

إن أبرز ما يسترعي الانتباه خلف الصرح الثاني على وجه الخصوص، وفي الكرنك على وجه العموم، هو بهو الأعمدة العظيم الذي وضع لبناته الأولى حورمحب، ثم واصل البناء من بعده رمسيس الأول وابنه سيتي الأول، واكتمل البناء على يد رمسيس الثاني. وتبلغ مساحته زهاء خمسة آلاف متر مربع، ويحتوي على مئة وأربعة وثلاثين عمودًا في ستة عشر صفًا، منها اثنا عشر عمودًا في صفين في الوسط بساق أسطوانية وتاج على شكل زهرة البردي المتفتحة، ويبلغ ارتفاع كل عمود بغير الركيزة ٢٥ر١٩م، وقطره نحو ثلاثة أمتار ونصف المتر أيضًا، والتاج ضخم ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ونصف المتر، وقطره في أعلاه خمسة أمتار ونصف المتر. ومن الأتعاب التي تحملها هذه الأعمدة ما يصل وزنه إلى سبعين طنًا.

ويبلغ ارتفاع الأعمدة الجانبية وعددها مئة واثنان وعشرون عمودًا نحو ٧٥ر١٤م بغير الركيزة، وساقه أسطوانية مخنوقة في أسفلها، وتاجه على شكل براعم البردي. وبذلك يقع سقف البهو على مستويين، بحيث يعلو وسطه جانبيه بنحو ثمانية أمتار. وكانت الأعمدة الجانبية ترتكز على أعمدة أخرى قصيرة مربعة بنيت بينها نوافذ حجرية تسمح لضوء معتدل ينير الطريق الذي يتوسط البهو والذي يبلغ عرضه ستة أمتار.

وهكذا يبدو هذا العدد الهائل من الأعمدة كأنه غابة ضخمة متحجرة من البردي تشغل النظر، وتملأ النفس رهبة وبهجة في آن واحد، وذلك بفضل كثرة تفصيلاتها وروعة نظامها وتقارب مبانيها



لوحة دينية



ساحة مسلة تحتمس الأول

الشامخة، هذا بخلاف ما يزينها من مناظر ونقوش زاهية اللون. والحقيقة أن روعة هذه النقوش، خصوصاً تلك التي تتألق على حوائط البهو الخارجية، تستحق منا نظرة فاحصة متأملة، فعلى الحائط الشمالي يشدنا منظر سيتي الأول راكعاً أمام الإله «حوراختي» الذي يحمل في يده اليسرى فرعاً من النخيل تتدلى منه الرموز الدينية المختلفة، ويبارك الملك بيده اليمنى، وتقف خلفه سيتي الإلهة «ورت حكاو» زوجة حوراختي حاملة في يدها اليمنى فرعاً آخر بينما تبارك الملك بيدها اليسرى. ثم يأتي منظر يمثل سيتي راكعاً تحت الشجرة المقدسة لهليوبوليس وتحوت يكتب اسمه على أوراقها.

وفي الطرف الشرقي من الحائط نشاهد مجموعة المناظر الحربية التي تمثل سيتي وهو يخضع الشعوب الأجنبية، فتارة يقوم الآسيويون بتقطيع الأشجار لتمهيد الطريق أمامه، وتارة يحاول الأسرى الاحتماء منه بقلعتي «بيكانانا» و«ينعام» بينما هو يتعقبهم ويجرهم خلف عربته، وتولّي عربات البدو ومشاتهم الأدبار أمام هجماته وهو عائد مظفر ليقدم غنيمته لأبيه آمون رع. ثم نشاهده في الطرف الغربي للحائط وهو يحارب الليبيين، ويقبض على أحد شيوخهم الذي نراه لابساً ريشة واحدة وقد تدلت خصلة من شعره، وهو ما يتميز به المحاربون الليبيون.

وإذا يممنا وجوهنا شطر الحائط الجنوبي لنستعرض نقوش رمسيس الثاني فسنجدها تقص علينا حملته ضد الحثّيين ومعاهدة الصلح التي أتمها مع ملكهم «حطوشيليش». ثم نشاهد منظراً يمثله وهو يقود أسراه أمام آمون رع، في أسفله الكتابة

المعروفة باسم «شعر بنتاؤور» وهو النص الشعري لمعركة قادش، وقد سمي كذلك لأنه كتب بواسطة كاتب يدعى بنتاؤور.

ناطحتا سحاب في قلب الكرنك

لم يبق من مسلات الكرنك الإحدى عشرة التي كانت تشمخ في نواحيه المختلفة سوى اثنتين فقط مازالتا تسمقان عند الصرحين الثالث والرابع، وهما من أبرز ملامح المعبد الآن.

شيّد المسلة الأولى المهندس«إنني» لسيده تحتمس الأول، ويبلغ ارتفاعها ٩٠ر١٩م ووزنها ١٤٣ طناً، وهي تميل إلى الغرب بنصف متر، وفيها شرخ سيّئ في وسطها يهددها بالسقوط ما لم تتخذ التدابير اللازمة. بينما شيّد المسلة الثانية المهندس «سنموت» لمعشوقته ومولاته حتشبسوت، ويبلغ ارتفاعها ٥٦ر٢٩م ووزنها ٣٢٣ طنّاً. وهي أطول المسلات الخمس المنتصبة على أرض مصر. بل وأعلى منشآت الكرنك المعمارية ارتفاعاً على الإطلاق.

وقد قُدَّت معظم المسلات التي كان يزخر بها الكرنك من مقالع الجرانيت المنتشرة في شرق أسوان، ولنا أن نتصور مدى الجهد الهائل والتنظيم

ضخامة التماثيل والأعمدة من سمات معبد الكرنك



البحيرة المقدسة



جزء من معبد خنسو

الإداري المحكم اللذين كانا وراء إتمام قطع مثل هذه الجلاميد العملاقة ونقلها في شهور قليلة. وها هي ذي حتشبسوت تخبرنا على نقوش مسلتها بأنها «قد عملت هذا الأثر تذكاراً لها لدى أبيها آمون حتى يبقى اسمها مخلداً إلى الأبد» وتضيف «أن العمل استغرق مدة سبعة أشهر لإنجاز قطعه من الصخر». كما يسجل لنا المهندس «إنني» من خلال نقوش مسلة تحتمس الأول «أنه نقل مسلتي مولاه من أسوان حتى شاطئ الكرنك في مركب طوله ستون متراً وعرضه عشرون متراً، ولم تستغرق الرحلة غير بضعة أشهر».

قاعة الاحتفالات الكبرى

بعبور الصرح السادس تلوح أمام الأعين منشآت تحتمس الثالث وأهمها ذلك المعبد الفريد الذي شيّده في أوائل سني حكمه. ويتألف من تسع قاعات في صف واحد في الجنوب، ومن بهو كبير يطلق عليه بهو الأعياد، وقد عثر في إحدى الحجرات المجاورة له على «لوحة الكرنك» التي تضم أسماء طائفة كبيرة من ملوك مصر حتى الأسرة الثامنة عشرة، ولكنها نقلت إلى متحف اللوفر في عام ١٨٣٤، ثم من ثلاث مقصورات في الشمال، وقاعات أخرى في الشرق يتوسطها قدس الأقداس، ومنها ما تعرف بحديقة النبات.

وبهو الأعياد يبدو كأنه سرادق ضخم مستطيل الشكل، طوله نحو أربعين متراً، ويتوسطه صفان من أساطين عالية في كل صف عشرة أساطين من طراز ما يسمى أسطون الخيمة، ساقه ملساء وأسطوانية تقريباً، لا يكاد يزيد سمكها عند قاعدتها على سمكها

في أعـلاها إلا قليلاً جـداً، وتاجـه في شكـل الجـرس المقلوب حتى تستقر عليه ركيزة فوقها عتب. ويحيط بصفي الأساطين من جوانبها الأربعة اثنان وثلاثون عموداً مربعاً أقل ارتفاعاً منها، وبذلك يستوي السقف على مسطحين بينهما فتحات واسعة كان الضوء يدخل منها خلال قضبان من خشب فيما يظن.

وما يعرف بحديقة النبات هو قاعة مستطيلة فيها صف من أربعة أساطين في شكل حزمة البردي، تمتاز بدقة خطوطها ورشاقتها، وتحلّي الجدران صور شائقة لنباتات وطيور وحيوانات جلبها تحتمس الثالث من سورية في السنة الخامسة والعشرين من حكمه إلى إحدى حدائق المعبد بما يجعله أول مؤسس لحديقة حيوان في العالم.

أما قدس الأقداس ففيه مقصورة جرانيتية بناها فيليب أريدايوس شقيق الإسكندر الأكبر، وهي تُطلّ من جانبها الشرقي على أطلال معبد الدولة الوسطى، وتنقسم قسمين، في الداخلي منهما قاعدة حجرية كان الزورق الإلهي يوضع عليها، وتزين جدرانها مناظر بأعمال تحتمس الثالث الحربية، وصور هداياه لمعبد آمون، كما تزين النجوم الصفر سقفها السماوي الأزرق.

ويكتنف الطريق إلى قدس الأقداس عمودان من طراز خاص أقام تحتمس الثالث كلاً منهما من حجر واحد من الجرانيت الوردي. تزين أحدهما وهو الجنوبي زهرة السوسن، والآخر وهو الشمالي زهرة البردي، وترمز هاتان الزهرتان إلى الوجهين القبلي والبحري.

كما يبدو تحتمس وقد مُثل على العمودين بتاج الوجه القبلي تارة، وبتاج الوجه البحري تارة أخرى في حضرة الإله آمون والإلهتين موت وحتحور.



نقوش جدارية


مدخل أحد المعابد

البحيرة المقدسة

تقع في جنوب المعبد، يبلغ طولها مئة وثلاثين متراً، وعرضها ثمانين متراً، وعمقها أربعة أمتار، وتتخلل جوانبها المبنية بالحجر سلالم تفضي إلى سطح الماء. كانت تستخدم في التطهر والتطهير، وفي كثير من الأعياد الدينية كان تمثال الإله يتنزه فيها في زورق محلّى بزخارف ثمينة. ومن القصص الشعبي ما يحكي أنه لا يزال يظهر على سطحها زورق من ذهب فيه موسيقيون ومغنيات، وأن أحد الأهالي كان نائماً في المعبد فصحا على موسيقى شجية، ولما نظر إلى مصدر النغم رأى في البحيرة زورقاً من ذهب، وإذ شاقه رؤياه بدر منه صوت فقطعت سيدة في الزورق حبل المرساة واختفى الزورق عن النظر، ووجد الرجل عند شاطئ البحيرة مدقّاً وقضيباً من ذهب خالص.

وفي الركن الشمالي الغربي من البحيرة أثر كبير من الجرانيت الوردي أقامه أمنوفيس الثالث لـ «خبر» إله الشمس في شكل الجعل. والمنظر الذي عليه يمثله وهو يقدم قربان النبيذ لـ «آتوم» إله هليوبوليس ليمنحه الخلود. ثم هناك على مقربة منه بقايا مسلة لحتشبسوت تستلقى على الأرض.

معبد خنسو

معبد متكامل يقع في جنوب معبد آمون، بدأ بناءه رمسيس الثالث، وأضاف إليه رمسيس الرابع، ورمسيس السابع، وأتمّه الكاهن الأكبر حريحور، كما أسهم في تحلية جدرانه ملوك آخرون حتى العهد البطلمي. وقد خُصِّص في الأصل لعبادة الابن في ثالوث طيبة، إذ كان خنسو في البدء شكلاً من أشكال

الإله حورس، ولكن عندما وُحِّد آمون بإله الشمس رع أصبح من الطبيعي أن يُوحَّد ابنه بالمصدر الثاني للنور السماوي، وأضحى خنسو إله القمر.

ويجري محور المعبد من الجنوب إلى الشمال، ويؤلف وحدة معمارية واضحة المعالم، إذ يتقدمه طريق صغير تحف به تماثيل كباش، ويؤدي إلى صرح تحلّي واجهته أربع ساريات، ويتوسطه مدخل من الجرانيت، وفي مؤخرته درج يؤدي إلى صفة بمنزلة ردهة لبهو الأساطين. ويعتمد سقف بهو الأساطين على ثمانية أعمدة في صفين، وتعلو الأعمدة الأربعة الوسطى الأعمدة الجانبية. ومن

أعمدة على شكل الجرس المقلوب

وراء ذلك مقصورة الزورق المقدس تتوسط قاعة كبيرة مستطيلة، تكتنفها حجرات ودرج. وفي المؤخرة قاعة تحيط بها قاعات من ثلاثة جوانب.

وأمام معبد خنسو بوابة كبيرة بناها تيوس خليفة نخت نب أف أحد ملوك الأسرة الثلاثين، ثم زخرفها بطليموس الثالث، وتمثل مناظرها المنقوشة بطليموس وهو يقرب القربان لمختلف الآلهة، وتصحبه زوجته أحيانًا.

معبد موت

معبد متهدم في أغلب أجزائه، كان مخصصًا لعبادة الإلهة موت. يتصل بمعبد زوجها آمون بطريق كباش يبدأ من الصرح العاشر، ويشرف على البحيرة المقدسة من جهتي الجنوب والغرب. بدأ بناؤه أمنوفيس الثالث، وقام سيتي الأول ورمسيس الثالث ببعض الأعمال فيه، ثم أضاف إليه بطليموس الأول بوابة كبيرة.

ويتكون المعبد من مدخل يؤدي إلى فناء واسع، وخارج المدخل أعمدة مربعة عليها شكل الإله «بس» وهو يطرد الأرواح الخبيثة. وفي الفناء تماثيل كثيرة على هيئة امرأة برأس لبوة كان أمنوفيس الثالث قد نذرها للإلهة سخمت، ولكن شيشنق الأول نقش اسمه على بعضها.

وثمة فناء آخر مجاور لهذا الفناء يحوي تماثيل مشابهة يصعد بنا إلى أطلال صالة أعمدة وراءها بعض الحجرات المخربة تمامًا، وقد عثر في أثناء الحفائر التي أجريت بجوار هذا الفناء بين عامي ١٨٩٥ - ١٨٩٦م على عدد من التماثيل المهمة من بينها تمثال لسنمون مهندس حتشبسوت وتمثال لباكن خنسو مهندس رمسيس الثاني.

معبد بتاح

يقع في شمال معبد آمون، يدخله الزائرون من الغرب، ويمر بخمسة أبواب متوالية بُني الثاني والرابع منها في عصر حتشبسوت، ثم جددهما الفرعون النوبي شيكو (٦٩٨ - ٦٩٠ق.م)، وبنى البطالمة الأبواب الثلاثة الأخرى. ثم هناك رواق على جانبيه عمودان تاج كل منهما على شكل باقة الأزهار المتفتحة. وبعبور بوابة صغيرة بناها تحتمس الثالث نجد فناء يستند سقفه إلى عمودين، لكل منهما ستة عشر ضلعًا، ويتوسطه قدس الأقداس الذي يحتوي على تمثال للإله بتاح، ويجاوره حجرتان في اليمنى منهما تمثال من الجرانيت الأسود لزوجته سخمت.

وتظهر الرسوم الموجودة على الجدران تحتمس

الثالث وبطليموس الحادي عشر وهما يتعبدان لثالوث طيبة وبتاح وحتحور. وبخلاف قيمته الفنية والمعمارية مازال لمعبد بتاح أهمية أدبية ممتازة، فهنا التقى «باسر» عمدة طيبة وبصحبته «ناسي آمون» ساقي الملك لقاءه المشهور مع ثلاثة من ممثلي عمال الجبانة، حيث تحدث دون ترو وورط نفسه في مشكلات جمة مع اللجنة التي جاءت لبحث اتهاماته الخاصة بسرقة المقابر في جبانة طيبة.

مقصورة سنوسرت

شيدها سنوسرت الأول بالكرنك في مكان غير معلوم على وجه الدقة. ولكنها سقطت بتعاقب السنين وظلت مفككة حتى استخدمها أمنوفيس الثالث في بناء الصرح الثالث. وقد عثر «شيفريه» على أحجارها كاملة، فأعاد ترميمها، وأقامها من جديد في شمال الصرح الأول، وجعل لها مدخلين متقابلين يبلغ كلاً منهما طريق صاعد. ويستند سقفها المرصع بالنجوم إلى أعمدة أربعة، وفي وسطها قاعدة حجرية للقارب المقدس. وتعلو السطوح الخارجية نقوش غائرة تمثل أقاليم مصر القديمة وعددها اثنان وأربعون إقليمًا. وعلى السطوح الداخلية نقوش خفيفة البروز لمناظر تقديم القرابين وممارسة الطقوس الدينية، فيرى سنوسرت الأول في حضرة إله الحرب «منتو» وإله الشمس آمون رع يُمثل في هيئة إله الخصب والتناسل.



نقوش تحتضن الأرض

الاسم والمعنى

كان أول اسم أطلق على الكرنك هو «أبت سوت» ومعناه في اللغة المصرية القديمة «الذي يقوم بمراجعة الأماكن على القوائم الملكية»، وقد ظهر هذا الاسم أول مرة في عهد الدولة الوسطى، فقد وجد مكتوبًا على جدران مقصورة سنوسرت أول. وما كاد يطل عصر الرعامسة حتى تغير معنى الاسم إلى «أجلّ الأماكن المختارة». وفي العصر الإغريقي أطلق عليه «السماء فوق الأرض». أما الاسم الشهير والمعروف بالكرنك فقد أطلقه العرب، وهو محرف من كلمة «خورنق» الفارسية المعربة التي تعني القرية المحصنة أو المجلس الذي يأكل فيه الملك ويشرب.

المراجع

١. الآثار المصرية في وادي النيل: جيمس بيكي. ترجمة: لبيب حبشي وشفيق فريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
٢. العمارة في مصر القديمة: محمد أنور شكري. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.
٣. موسوعة مصر القديمة: سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.
٤. تاريخ الحضارة المصرية: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة. د.ت.
٥. مصر القديمة، دراسات في التاريخ والآثار: مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٧م.
٦. تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي: جيمس هنري بريستد. ترجمة حسن كمال. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.
٧. دليل آثار الأقصر: حسن صبحي بكري، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٨٦م.
٨. آثار الأقصر: محمود عبدالقادر محمد، القاهرة ١٩٨٥م.
٩. الأقصر، تاريخ العمارة في مصر القديمة: سيد توفيق، القاهرة ١٩٩٠م.
١٠. موسوعة تاريخ مصر: أحمد حسين، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٣م.

11- Ramses The Great, Master of The World: William Macquitty - London, 1983.
12- All of Egypt: Abbas Chalaby - Florence - 1996.
13- Egypt of The Pharaohs: Gardiner - Oxford - 1959.

- مصادر الصور: «الفيصل» وكاتب المقالة.

التجربة الأندلسية في دراسات المستشرقين الإسبان

حسن عزوزي
فاس - المغرب

لقد كان أشد ما تفتقر إليه المكتبة العربية والغربية على السواء قبل قرن من الزمن هو الدراسات الشمولية التي تنظر إلى التجربة الأندلسية على أنها حضارة إنسانية تثير كثيرًا من التساؤلات، وتتجاذبها مختلف الآراء والنظريات، ولا تكتفي بمجرد السرد الوصفي، وإنما تحاول تحليل تلك الحضارة لكونها «حالة فريدة» من نوعها في تاريخ الحضارات عامة وتاريخ الإسلام بصفة خاصة.

ولعل ما يجعل حضارة الأندلس جديرة بأن تلقى اهتماماً خاصاً من الدارسين هو تعقّدها وعدم بساطة تركيبها، ذلك أنها كانت تتألف من عناصر متعددة ومتباينة أشد التباين في أصولها البشرية والثقافية، لكنها كانت متكاملة، وقد ساهم كل ذلك في تكوين حضارة مستقلة ومتميزة لم تفتقر إلى الأصالة والإبداع مهما اقتبست واستعارت من الحضارة الإسلامية المشرقية، وقد بدا ذلك الاستقلال والإسهام الأصيلان في كثير من المجالات العلمية والفنية والعمرانية، مما جعلها محط اهتمام الباحثين والمؤرخين من العرب والمستشرقين على السواء.

وسنعنى في بحثنا هذا بتجلية معالم مختلف مواقف المستشرقين الإسبان من التجربة الأندلسية - وذلك عن طريق الإشارة إلى نخبة من المستشرقين ممن يُعدّون ممثلين للحركة الأكثر اتساعًا للاستشراق والمنهجية الغربية، فقد أولى كثير منهم اهتمامًا خاصًا بالحضارة الأندلسية وتاريخها. وذلك لارتباطه بتاريخ أوربا من جهة، وبالعالم الإسلامي من جهة أخرى، وقد رأوا هذا التاريخ جزءًا لا يتجزأ من تاريخ إسبانيا القومي خلال العصر الوسيط. ومن خلال دراسات هؤلاء وأبحاثهم تكونت تصورات ورؤى مختلفة للتاريخ الأندلسي مما يطرح أسئلة حول مدى تطابق تلك التصورات والواقع التاريخي الذي عرفته إسبانيا خلال ثمانية قرون من الوجود الإسلامي.

وقد تباينت مواقف هؤلاء المستشرقين إزاء التجربة الأندلسية، واختلفت آراؤهم في بعض قضايا التاريخ التي تشكل محطات رئيسة في كل الدراسات الاستشراقية في الموضوع. ويرجع هذا الاختلاف والتباين إلى اختلاف التكوين الفكري والثقافي للدارسين، وإلى الفترات التاريخية المدروسة، ومدى التركيز في جوانب معينة من ذلك التاريخ.

وسنحاول تأكيد مواقف المستشرقين الإسبان لكونهم أبرز من اهتم بالتاريخ الأندلسي مع الاقتصار على إبراز معالم بعض المواقف ذات التأثير المستمر في مجال البحث التاريخي حول الأندلس، والخطوط العريضة العامة والملامح السائدة لمنهجية الاستشراق الإسباني.

وسوف نتطرق إلى إبراز الدور الفعال الذي أدّته مدرسة كوديرا Codera في الاهتمام بالحضارة والأدب

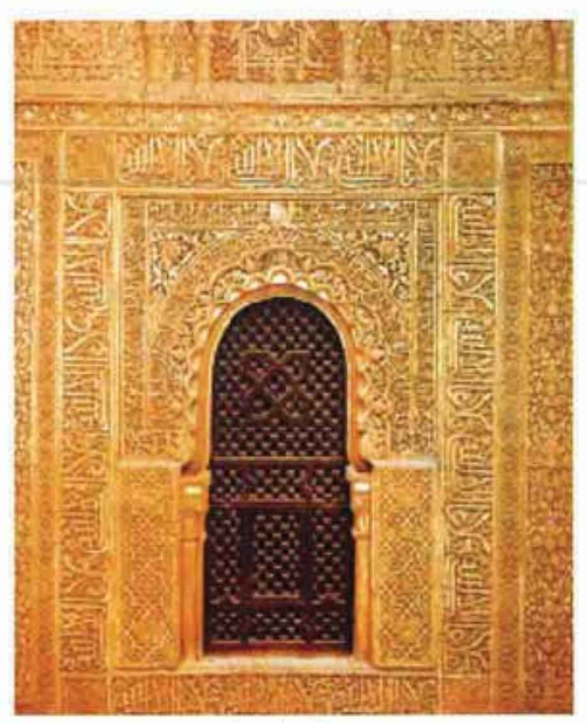
الأندلسيين، مركزين الحديث في مدى شغف أبناء المدرسة بالبحث في كل ما يتعلق بالأندلس بموضوعية وحياد تامين مع التركيز في واحد من أولئك، وهو أسين بالاثيوس Asin Palacios، وعلى نقيض هذه المدرسة برزت مدرسة سانشيت ألبورنوث S. Alpornoz التي يجدر الوقوف عندها والتعرض لبعض أهم جوانب النقاش الحاد الذي دار بينه وبين أمريكو كاسترو Americo Castro حول طبيعة التجربة الأندلسية وقيمها، حتى أصبح لكل منهما أتباع داخل إسبانيا وخارجها خصوصاً في أوربا وأمريكا، إذ كان شانشيت ألبورنوث يدرس بجامعة بوينس إريس بالأرجنتين.

الموقف الإيجابي لمدرسة بني كوديرا

يعدّ المستشرق الإسباني فرانسسكو كوديرا (ت١٩١٧م) رائد مدرسة بني كوديرا، وهو من أعظم رجالات الاستشراق، وذلك لما بذله من جهود كبيرة في سبيل إحياء التراث الأندلسي، وتشجيع تلامذته على التخصص في هذا الميدان. وهكذا استطاع تكوين مدرسة المستشرقين الإسبان الحديثة، وهي من المدارس المعتدلة في حقل الاستشراق، التي ارتبط بها كثير من المستعربين برباط الإنصاف التاريخي الموضوعي للوجود الإسلامي بالأندلس، وهكذا تسموا بأسرة كوديرا. ومبالغة منهم في الحرص على موضوعيتهم استعاروا لأنفسهم الكلمة العربية (بني) أي أبناء كوديرا (بني كوديرا).

لقد أُشرب كوديرا حب العرب والعربية، وأوتي بسطة في العمر أتاحت له فرصة التنقيب طويلاً في التراث الأندلسي وإخراج بعضه إلى الوجود، وترك بعد ذلك مهمة مواصلة الطريق نفسه إلى تلامذته، ومن أشهرهم خوليان ريبيرا Ribera (١٨٥٨ ـ ١٩٣٤م)، وأسين بالاثيوس (١٨٧١ ـ ١٩٤٤م)، وأنخل جونثالث بالنثيا A.g. Palencia (١٨٩٩ ـ ١٩٤٩م) وغارسيا غومس G. Gomez وغيرهم.

لقد كان كوديرا يمثل غرة بيضاء في جبين الاستشراق الإسباني في القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذي شهد بالمقابل بروز عدد من المستشرقين الذين عادوا الحضارة الأندلسية، ونظروا إليها نظرة حقد وتعصب. فكان كوديرا بإخراجه لأنفَس ما جادت به قرائح علماء الأندلس خير من



باب قصر الحمراء

ساهم في تعريف الحضارة الأندلسية وتوضيح معالم قوتها وحيويتها؛ وذلك بتمجيد التجربة الأندلسية التي عرفتها إسبانيا، وإعلان فضلها على الحضارة الإنسانية بصفة عامة، والأوربية بصفة خاصة. وهكذا كان يرى أنه من الواجب تعريب أوربا وحضارتها فيقول: «إن من الخطأ العمل على أوربة إسبانيا بل الواجب هو تعريب أوربا، وعلى إسبانيا أن تسترد دورها الأندلسي القديم في هذا التعريب».

ويعدّ ريبيرا من أشهر تلامذة شيخ المستشرقين الإسبان، فقد كان ملازماً لأستاذه، مساعداً إياه على إخراج كنوز العلم الأندلسي في إطار ما يعرف بالمكتبة العربية الإسبانية Biblioteca Arabica Hispana فأخرجا منها عشرة أجزاء(١) (مدريد ـ سرقسطة ١٨٨٣ ـ ١٨٩٥م).

وقد تلمذ لريبيرا باقي أفراد مدرسة كوديرا، نذكر منهم على الخصوص أسين بالاثيوس وبالنثيا. ويعدّ الأول(٢) من أغزر المستشرقين الإسبان إنتاجاً وأوفرهم حظاً في تناول معالم الحضارة الأندلسية في شتى جوانبها، فقد كان الرجل من علماء اللاهوت المسيحيين، وهذا ما أتاح له فرصة التركيز في جانب الفكر الديني والصوفي في

الأندلس، فاستطاع في دراساته المتنوعة التعرض لشتى التيارات الدينية التي عرفتها الأندلس في مسيرتها الحضارية الممتدة على مدى ثمانية قرون.

ويُعد بالاثيوس من المتخصصين في مجالات معينة من تاريخ الفكر الأندلسي، فهو يدرس الأفراد(٣) والموضوعات الخاصة (المونوغرافيا) بصفتها جزءاً من الحضارة الأندلسية على الرغم من معرفته العميقة بحضارة الإسلام كنظام عام. ولعل أبرز جانب يمكن اكتشافه في كثير من دراساته هو تركيزه في مدى تأثير التجربة الأندلسية في حضارتها وفكرها وعلمائها في أوربا ونهضتها بصفة عامة، والفكر الحضاري الإسباني بصفة خاصة. وهذا ما أسهم بالفعل في خلق موقف جديد أعاد النظر في مدى العلاقة بين الحضارة الأندلسية والحضارة الأوربية، وذلك من خلال مناظرات ومساجلات علمية متأججة بين مختلف التيارات العلمية، وقد كان كتابه «الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية» La excatologia musulman en la adixing Comedia أخطر عمل قام به بالاثيوس في نطاق تأكيد أصالة الفكر الأندلسي الإسلامي، ومدى تأثيره في الفكر المسيحي الأوربي. لقد أثار الكتاب جدلاً عميقاً، ونقاشاً حاداً من كثير من الباحثين المهتمين. وقد جمع المؤلف كل ما أثير حول كتابه من ردود وأبحاث إيجابية كانت أو سلبية ونشرها ملحقة بكتابه في طبعته الثالثة.

لقد ظلت ملحمة دانتي المعروفة بالكوميديا الإلهية موضع إجلال وإكبار من طرف الأوربيين ظناً منهم أنها من إنتاج دانتي الأصيل وتفكيره، لكن ما إن تم نشر كتاب بالاثيوس حتى ثارت ضجة عارمة تمثلت في نقاش وجدال مستمرين حول مدى مصداقية العمل الدانتي الذي بدأ ينزلق من عليائه ويبدو عملاً مقتبساً ومنقولاً فكرة وتخطيطاً من معجزة المعراج.

لقد بين بالاثيوس في كتابه اكتشاف ترجمات قصة المعراج التي عملت للملك ألفونسو، فأمكن التأكد من أن موضوع المعراج كان في متناول الناس، وأن الترجمة المذكورة أصبحت سهلة المنال بالنسبة إلى قراء الإسبانية واللاتينية والفرنسية، وذلك بعد أن كتبت على مستوى شعبي.

وقد أصبحت مسألة اطلاع دانتي على قصة المعراج الإسلامية أمراً مسلماً به عند الباحثين المحدثين. يقول المستشرق الإيطالي ليفي دلافيدا: «وهكذا يتأكد لنا اليوم أن نظرية أسين بالاثيوس قد أصبحت فوق مستوى النقاش، إن القضية لم تعد قضية إمكان اطلاع دانتي على المصادر العربية، وإنما هي قضية حقيقية ينبغي التسليم بها»(٤).

إن الذي نود تأكيده ونحن نستعرض إسهام بالاثيوس المهم في مجال الأندلسيات هو حرصه الشديد على توضيح علاقة التأثير التي أحدثها علماء الأندلس ومفكروها وفلاسفتها في كثير من مفكري أوربا عامة وإسبانيا بصفة خاصة.

لقد هيمنت على كتابات هذا المستشرق روح التأثير هذه وأبعادها على المستوى المحلي الإسباني أو على المستوى الأوربي، فاشتهر بدراسة حركة التفاعل الثقافي بين المسيحية والإسلام Comparatisme Islamo-Chretien انطلاقاً من اللقاء الحضاري الذي جمع بين الديانتين على أرض إسبانيا الإسلامية، ولنذكر هنا باختصار كتابات بالاثيوس عن الصلات بين التصوف الإسلامي والمسيحي فقد ترجم عدداً كبيراً من النصوص لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ومحيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ) وشرحها، كما وضع دراسة مطولة (٥) عن ابن عباد الرندي (ت ٧٩٢هـ) الذي رأى فيه المثل الذي احتذاه يوحنا الصليبي St John of Cross، كما عقد دراسة أخرى بيّن فيها مدى تأثير فلسفة ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) في توماس الأكويني وتأثير روحانية الغزالي في الفيلسوف باسكال Pascal.

> مدرسة المستشرقين الإسبان الحديثة من المدارس المعتدلة في حقل الاستشراق، التي ارتبط بها كثير من المستعربين برباط الإنصاف التاريخي الموضوعي للوجود الإسلامي بالأندلس

لكن بالاثيوس لم يكن دوماً مصيباً في دراساته التي هيمنت عليها فكرة التأثير والتأثر بين الإسلام والمسيحية، فقد كان يغلو أحياناً غلواً شديداً في تلمس الأشباه وادعاء التأثير والتأثر، ولم يستند إلى وثائق كتابية أو نقول شفوية تدل على الاطلاع من جانب المتأثر المزعوم على ما قاله أو كتبه المؤثر المفروض. ففي كتابه «الإسلام في ثوب نصراني» L'Islam christianise حاول أن يستدل على


دانتي

أن أفكاراً مسيحية دخلت في مفاهيم الإسلام في العصور الأولى، وأن تلك الأفكار قد أخذت طابعاً وأشكالاً إسلامية، ثم انتقلت في صورتها الإسلامية الحديثة إلى الأندلس، ومنها إلى بلاد مسيحية أخرى، وهنا لم يجد المتصوفون ورجال الدين المسيحيون غرابة فيها، فأدخلوها في مؤلفاتهم؛ لأنها - في زعمه - مسيحية الأصل. وقد طبقت فكرته هاته بإلحاح على ما كتبه عن الأندلسي ابن عربي، ولذلك سمى كتابه الذي وضعه عن حياة هذا الصوفي وفكره «الإسلام في ثوب نصراني».

وقد جمع بالاثيوس مقالاته المتعلقة بتأثير الإسلام عامة والفكر الأندلسي خاصة في أوربا والمسيحية في كتاب يحمل عنوان: «تأثيرات الإسلام». وقدم له بمقدمة موجزة عن منهجه وأهدافه في دراسة التشابهات والتأثيرات، وهو كتاب جامع في بابه ومن خير أعمال بالاثيوس، فيه نظرات لماحة، وإن كانت تعوزها أحياناً الأسانيد الدالة على حدوث التأثير فعلاً(٦).

هكذا إذن يمكن القول، بعد أن أبرزنا باختصار خاصية التجربة الأندلسية دينياً من حيث الأثر الواضح لكتابات علماء الأندلس الدينية والروحية: إن أسين بالاثيوس يعدّ طوداً شامخاً من أطواد الاستشراق الإسباني، وعلماً بارزاً من أعلام مدرسة كوديرا، إليه يرجع الفضل الكبير في بيان مدى تأثير التجربة الأندلسية عبر كبار أعلامها ومفكريها وفلاسفتها في الحضارة الأوربية بصفة عامة.

الموقف السلبي لمدرسة فرانسسكو سيمونت

تتباين دراسات مؤرخي العصور الوسطى وآراؤهم Medievistes في تحليل الحضارة الأندلسية من حيث الاتجاه، ففرانسسكو سيمونت F. Simonet وسانشيث ألبورنوث ومنندث بيدال M. Pidal قد ارتبطت أبحاثهم بتقديم الفترة الإسلامية على أنها امتداد للتطور الحضاري الإسباني.

إن بعض المستشرقين الإسبان يعدّون التجربة الأندلسية فترة عارضة في تاريخهم الوطني، كما يرون الفتح الإسلامي للأندلس نوعاً من الغزو المدمر الذي حوّل القوميات الوطنية إلى مجتمعات مستشرقة، ماعدا مجموعة قليلة من الأشراف القوط Wisigotho استطاعت الاحتماء بالجبال الشمالية. ومن هناك تمكنوا من تنظيم حملات الاسترداد Reconquista على مدى سبعة قرون من الحروب الصليبية التي مكنتهم في النهاية من الانتصار على المسلمين وطردهم نهائياً، وهذا الاتجاه

في فهم حضارة الأندلس لايزال صداه سائداً في الثقافة الشعبية الإسبانية.

بعد صدور كتاب دوزي: «تاريخ مسلمي إسبانيا» عام ١٨٦١م، تحركت همم كثير من المستعربين الإسبان الذين تحمسوا لدراسة جديدة للتاريخ الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية، وقد ساهمت أبحاثهم تلك في تصحيح الآراء السطحية والنظريات غير العلمية التي سادت حتى ذلك الوقت. وتبين أنه ـ على عكس ما كان رائجاً ـ استطاع كثير من القوميات الوطنية سواء تلك التي أسلمت أو غيرها البقاء بعد الفتح الإسلامي والتعايش في سلم ورخاء مع مسلمي الأندلس.

وهكذا ظهرت دراسة سيمونت حول مستعربي إسبانيا(٧) معتمداً على وثائق ومصادر جديدة لم يستعملها غيره من قبل، فجاءت الدراسة الواقعة في مجلدين مفيدة، إلا أنها كانت صادرة عن هوى مريض، ومشوهة للتاريخ الأندلسي.

ويعد سيمونت الإسباني الكاثوليكي من أشد المستشرقين عصبية لقومه، بذيء اللسان، عميق الحقد على الإسلام والمسلمين، وقد شحن كتابه هذا وغيره من الأبحاث بمجموعة من الاتهامات والافتراءات في حق التاريخ الإسلامي بالأندلس، وبإنكار تام لكل ما تركته التجربة الأندلسية على أرض إسبانيا من بصمات واضحة المعنى، ومنجزات حضارية رفيعة المستوى شهد بفضلها المستشرقون قبل غيرهم من المسلمين. لقد جاءت صورة المستعربين في كتابه ممجدة ومعظمة، بدا فيها هؤلاء مؤتمنين على الحضارة الإسبانية الأصلية والقومية في مواجهة للغزاة المسلمين والخونة من الذين اعتنقوا الديانة المحمدية.

وهكذا أراد المؤلف ـ حسب زعمه ـ إنقاذ ما أمكن إنقاذه من تاريخ إسبانيا القومي.

فحاول جاهداً أن يعلي من شأن مستعربي إسبانيا، وركّز حملته في مدى التأثير الحضاري الذي أحدثه أولئك في الفاتحين المسلمين. ونشير في السياق نفسه إلى كتابه الآخر: Glosario de Voces ibericasy latinas usadas entre los Mozarabes (Medrid 1885). حاول فيه البرهنة على أن آلافاً من الكلمات الإيبيرية واللاتينية قد انتقلت إلى اللغة العربية المتداولة بإسبانيا آنذاك مستهدفاً من وراء ذلك محاولة إثبات أن المسلمين في الأندلس كانوا متأثرين بالحضارة اللاتينية أكثر من كونهم مؤثرين فيها. وهذا ما يدفعنا إلى الإشارة إلى الاتجاه الذي حمل رايته سانشيث أليورنوث في مقالته(٨): (إسبانيا قبل الإسلامية وإسبانيا الإسلامية) التي بيَّن فيها أهمية تأكيد انتقال التراث الغوطي الإسباني المحلي إلى حضارة إسبانيا الإسلامية. ومن ثم رؤية الهوة الفاصلة بين العصرين الروماني ـ الغوطي والإسلامي أقل حدة واتساعاً مما يتصور الكثير من الباحثين.

لقد ضمَّن سيمونت كتابه مقدمة طويلة واثنين وأربعين فصلاً حافلة كلها بالكذب المتعمد والتزييف الصارخ، يقول في المقدمة: «إذا كان العرب الذين أخضعوا الشام ومصر وغيرهما من بلاد الشرق لم يستطيعوا أن يدخلوا أية ثقافة ذات قيمة بحكم كون نصارى هذه البلاد أرقى منهم في المستوى الحضاري فإنهم من باب أولى لم يكونوا قادرين على أن يقدموا شيئاً لنصارى بلاد المغرب ورثة الحضارة الرومانية».


بالاثيوس

إن منهج سيمونت في كتابه يعتمد على الخلط والافتراء وتصيد الآراء الضعيفة والمواقف الشاذة، وثقافته الإسلامية ضئيلة جداً، ويتبين ذلك من خلال فهمه العقيم لكثير من المسائل والتعاليم الإسلامية التي يتعرض لها بين الفينة والأخرى خلال اندفاعه الشديد من أجل الانتصار لموقفه المعادي للحضارة الإسلامية بالأندلس. وعلى نهج خاطئ من الاختلاف والمغالطة يحاول جاهداً الرفع من وزن المستعربين، وإعلاء شأنهم في التأثير الحضاري، والدفع بمسلسل الاستمرارية للحضارة الإسبانية القومية، فيقول مثلاً مغالطاً: «بفضل المستعربين الأندلسيين عرفت الأندلس الإسلامية العلوم الرياضية والفلكية والطبية التي كان يكرهها عامة الشعب المسلم، والدليل على ذلك أن الكتب التي وصلتنا في الفلاحة والطب وفي غير ذلك من الفنون والحرف كان يقوم عليها في ظل الخلافة الأندلسية كثير من النصارى والمستعربين»(٩).

هكذا إذن يأبى سيمونت إلا أن ينكر ويغض الطرف عن أسماء مئات من العلماء المسلمين الأندلسيين الذين افتنوا في شتى العلوم والفنون، وبرزوا في مختلف التخصصات العلمية من طب وهندسة وفلاحة ورياضيات وفيزياء وفلك، ويحاول الاستدلال على مقولته بمثال واحد أو مثالين من المستعربين الذين اشتهروا في أيامهم ثم خفت صيتهم لما ضاع تراثهم. وسيمونت، في أثناء استدلالاته، يحاول أن ينسب كل تحضر وتمدُن إلى مستعربي الأندلس، ولا يهمه في ذلك الاعتماد على مصادر تاريخية أصيلة وأسس علمية رصينة، غرضه الوحيد هو الحط من شأن الحضارة الأندلسية والغض منها ضارباً في التعصب الأعمى والمقت البغيض للإسلام والمسلمين بسهم وافر.

في مقالة له تحت عنوان: «مستعربو فالنسيا والأندلس بين التاريخ والأسطورة»(١٠) بيَّن المستشرق الفرنسي بيير كيشار P. Guichard أنه لم يعد أحد من المؤرخين المعاصرين يدافع عن أطروحة المستعربين Mozarabism في أشكالها المتطرفة. لقد باتت الرؤية التاريخية لتلك الظاهرة تسيطر عليها، لمدة عقود من الزمن، الفكرة الأساسية التي أشرنا إليها، والمضمنة في كتاب سيمونت. لكن بعد تطور مناهج البحث في تاريخ الأندلس وظهور كثير من المصادر الدفينة، والوثائق الثمينة المتعلقة بتاريخ القوميات المسيحية في إسبانيا الإسلامية، تجلَّى للباحثين المعاصرين تطرف النظرية السيمونيتية وعدم صوابها.

وإذا بقي كتاب سيمونت المصدر الأساسي حتى الآن في تاريخ المستعربين، فإن فكرة (أيديولوجية) الاستمرارية L'ideologie Continuiste المهيمنة على الكتاب وفكر صاحبه لم يعد لها كبير الأثر في اتجاهات البحث الحديثة في الأندلسيات، بل إن من الدارسين من حاول نقض تلك النظرية وتفنيدها بناء على ما استجد من معلومات ووثائق جديدة. وقد سارع كثير من المستشرقين قبل غيرهم من العرب إلى التصدي لنظرية سيمونت خلال كتابات تاريخية رصينة أعادت النظر من جديد في تاريخ المستعربين.

وإذا كان سيمونت والبورنوث وغيرهما قد نددوا بالوجود الإسلامي في الأندلس بسبب ما يزعمون من سياسة الاضطهاد التي اعتمدها المسلمون تجاه نصارى الأندلس، حتى إن سيمونت قد خطط كتابه عن تاريخ المستعربين على هذا الأساس الفاسد، فإننا لا ننكر أن كثيراً من المستشرقين قد تأثروا بهذا الاتجاه على مدى عقود من الزمن، وإلى عهد قريب، بل إن منهم من أنكر وجود المستعربين مثال Enrique Bayerri ضارباً عرض الحائط ما تشهد به المصادر التاريخية من الوجود الحقيقي لهؤلاء في بلاد الأندلس إلى حدود فترة متأخرة. وإن لم تحدثنا عنهم بشكل مفصل ولا عن تاريخ انقراضهم، والذي يبدو أنه كان تاماً في أواخر القرن الثاني عشر.

وفي عام ١٩٦٩م ظهر كتاب غريب لإجناثيو ألاغوي Ignacio Olague تحت عنوان «العرب لم يغزوا الأندلس»(١١). أوضح فيه أنه لم يكن هناك فتح إسلامي عام ٧١١م، وأن جميع المعلومات الواردة في المصادر التاريخية والتي تتحدث عن الفتح الإسلامي قد اختلقت لإعطاء تفسيرات مناسبة ومقنعة لعمليات دخول الإسلام التي عرفها المجتمع الإسباني آنذاك مثله مثل باقي الدول التي انتشر فيها الإسلام إبان القرن الثامن الميلادي. وهكذا دعا المؤلف إلى مراجعة شاملة لتاريخ الفتح الإسلامي للأندلس بغرض التشكيك فيه ووضع تفسيرات خاطئة ومغرضة لأحداث التجربة الأندلسية في بدايتها.

«الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية» أخطر عمل قام به بالاثيوس في نطاق تأكيد أصالة الفكر الأندلسي الإسلامي، ومدى تأثيره في الفكر المسيحي الأوربي

بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا قبل الإسلامية

نشر سانشيث ألبورنوث عام ١٩٦٥م مقالة كان لها صدى كبير في الأوساط العلمية المهتمة بالتاريخ الأندلسي، كتبها أصلاً للرد على أمريكو كاسترو A Castro حاول فيها إثبات مدى التأثير الكبير - حسب رأيه - للحضارة الإسبانية المسيحية قبل دخول الإسلام في مختلف التجارب الحضارية التي عرفها التراب الإسباني من حضارة رومية وغوطية وأندلسية لكنه ركز في مقالته هاته الحديث في التجربة الأندلسية - كما يدل عليه عنوان المقالة - فعمد جاهداً إلى التدليل على أن بنية المجتمع الإسباني بنية ذات طابع غربي، وأن الأندلس قد طبعت الإسلام الذي دخلها

والثقافة العربية التي انتشرت بها بطابع غربي نتيجة تأثر الحضارة الأندلسية بالحضارة المحلية التي وجدت قبل دخول الإسلام، وقد عدّ وجود العرب والإسلام عاملاً مزعجاً وضاراً بصورة عامة، انحرف بإسبانيا بعيداً عن تطور التراث الروماني الذي عرفته الأمم اللاتينية الأخرى(١٢).

ويأسف المؤلف(١٣) لإهمال المؤرخين والدارسين بحث مسألة تأثير حضارة إسبانيا قبل الإسلامية في التجربة الأندلسية، فيبدأ حديثه بالكلام على مختلف الشرائح الاجتماعية المكوّنة للمجتمع الأندلسي إبان الفتح من عرب وبربر وغوط وغيرهم، محاولاً التقليل من شأن العرب، وقلة عددهم، وذلك لكي يستنتج من ذلك أنه لم يكن لهم تأثير يذكر في الملايين من السكان الأصليين المحتفظين بحضارتهم القومية الإسبانية. وإذا ما عثر المؤلف على نصوص صريحة تثبت نسبة كبيرة من أعداد البربر الفاتحين والقادمين من شمال إفريقيا فإنه يردّها ويتهم أصحابها بالمبالغة والتضخيم محاولاً في ذلك إيجاد مسوغات لتلك النصوص ليؤكد أن التأثير الإسلامي في الثقافة والعادات الإسبانية كان ضئيلاً جداً، بل على عكس ذلك يزعم المؤلف أن الإيبيريين على اختلاف أجناسهم ودياناتهم قد عاشوا قروناً طويلة متمسكين بماضيهم قبل الإسلامي إذ يقول: «إن التراث الذي تلقفته بلاد الأندلس من إسبانيا المسيحية الغوطية كان متنوعاً، فقد شمل اللغة والآداب والفن والثقافة والحياة اليومية والتقاليد والتعليم والاقتصاد والتدين وغير ذلك».

ويمضي المستشرق الإسباني على النحو نفسه في تأكيد مدى التأثير الإسباني في التجربة الأندلسية في مجال الموسيقى والشعر(١٤)، وفي ميدان الهندسة المعمارية التي ادعى أنها تخالف الفن المستشرقي، مما يدل على أنها متأثرة بالمعمار الإسباني القديم. وعندما يتحدث المؤلف عن احتفاظ مسلمي الأندلس بمبدأ الشرف وتمسكهم به يأبى إلا أن يرد ذلك المعنى الأخلاقي السامي إلى أسلافه الإسبان القدامى مرتئياً أن مسألة الشرف L'honneur كانت معروفة في إسبانيا قبل الإسلامية وعند نصارى الشمال.

ثم ينتقل المستشرق إلى الحديث عن علماء الأندلس وفقهائها فيصم الجميع بالجمود والتحجر والتفكير الضيق، وكعادته في تصيّد النصوص وآراء بعض زملائه من المستشرقين، فقد اعتمد في هذه النقطة على آراء أسين بالاثيوس الذي يعدّ - كما أسلفنا - أشهر من اهتم بدراسة الشخصيات العلمية الأندلسية. وهكذا، من خلال بعض النصوص المتناثرة من كتب أسين وغيره(١٥)، استطاع سانشيث ألبورنوث أن يعزّز مقولته بما يفيد - حسب زعمه - جمود فقهاء الأندلس وعلمائها وذلك لتعصبهم للمذهب المالكي، وعمدته في ذلك كتاب بالاثيوس عن ابن حزم الأندلسي(١٦) الذي عرف عنه انتقاد بعض علماء الأندلس الذين عارضوا في بداية الأمر دخول الأفكار والمصنفات المشرقية إلى الأندلس، ووصفهم بأنهم مستمسكون بديانة العجائز Religion de viegas، فانطلاقاً من بعض الروايات التي لا تعدو أن تكون شاهدة على تمسك الأندلسيين بالمذهب المالكي دون غيره، وفي فترات معينة استطاع بالاثيوس وتبعه في ذلك كثير من المستشرقين أن يقرّروا بسهولة حكما مطرداً مضمونه أنه كان يغلب على علماء الأندلس وفقهائها التحجر والجمود، وهذا منهج استشراقي خاطئ يطبقه هؤلاء على كل مجالات الإسلاميات، ويكفينا في الرد على هذه الفرية العظيمة في حق علماء الأندلس الاستشهاد بابن حزم نفسه الذي كتب رسالة جليلة في فضل علماء الأندلس(١٧) ونبوغهم الفكري والعلمي، أبان فيها عظيم شأنهم وأصالة تفكيرهم، وهدفه من وراء ذلك مفاخرة علماء المشرق ومضاهاتهم والذين كان قد علا صيتهم في الآفاق بينما لم يكن يسمع عن علماء الأندلس وإنتاجهم الفكري إلا في حدود محدودة من رقعة العالم الإسلامي.

أطروحة مدرسة سانشيث ألبورنوث التي تصر على القول بسرعة اندماج الفاتحين العرب والبربر في المجتمع الإسباني أطروحة لا سند لها ولا يدعمها سوى التعصب الأعمى

وقد بلغ من حماسة ابن حزم ودفاعه عن العلم والعلماء بالأندلس أن وضع مقابل كل عالم مشرقي شهير من يوازيه في العلم والتخصص نفسيهما من علماء الأندلس. فقال مثلاً عن تفسير بقي بن مخلد (ت:٢٧٦هـ) المفقود بأنه لم يؤلف مثله في المشرق، بل إنه فاق تفسير ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) قيمة ووزناً.

فكيف يكون ابن حزم إذن، وهو المتعصب لأندلسيته

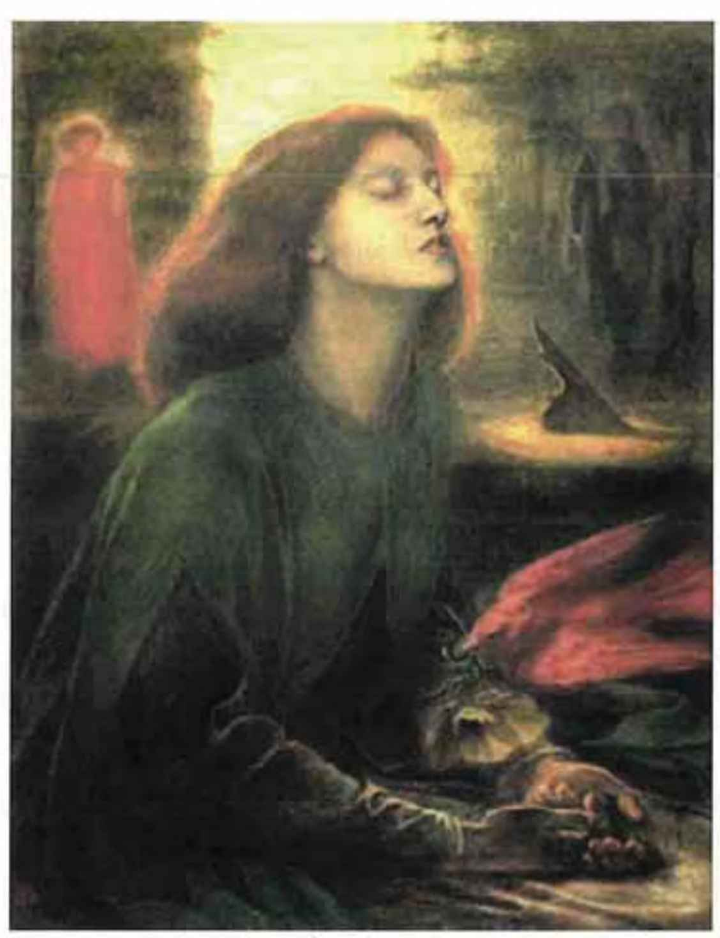
ولكل ما يمت إليها بصلة، أن يتهم عامة علماء الأندلس بالجمود والتقليد، وقد ظهر قبله وبعده عدد من العلماء والفلاسفة، كالباجي، وابن رشد، وابن عربي الحاتمي، وابن العربي المعافري، والشاطبي وغيرهم ممن اشتهروا في الآفاق.

إننا عندما نستمر في قراءة مقالة سانشيث ألبورنوث سرعان ما يتضح لنا الجواب في الصفحات الأخيرة، وذلك عندما حاول - وبئست المحاولة - أن يجعل من ابن حزم رجلاً «إسبانياً» وليس «أندلسياً». ولما لم يجد ما يعزز به فكرته هاته من نصوص بالاثيوس لم يتردد في اتهام هذا الأخير بكونه لم يع جيداً (تأسبن: L'hispanite) طبْع ابن حزم ومزاجه، فيقول واصفاً إياه: «لقد كان من جنس إسباني، ففي الملامح النفسية التي ينسبها المؤرخون (أبو حيان، وابن سعيد...) يتجلى الطابع العميق لتأسبنه الذي يمكن أن نستبينه في الصفات الآتية: الفخر - الحب - المروءة - حب الحقيقة - تعصبه لآرائه - انتقاده العنيف لمخالفيه...إلخ». لقد كان يجسد فعلاً المثال الأصيل للإنسان الإسباني L'homo hispanus(١٨).

لقد أثار مثل هذا الشطط في التفكير عدة ردود فعل في صفوف المستشرقين أنفسهم، فلم يتوان روسل P. E.Russel في أن يصف ساشيث إلبورنوث بالعنصرية والنازية، كما أن إصرار هذا الأخير على تأكيد أهمية العرق والدم والجنس الإسباني في التأثير في العنصر الأندلسي لم يجد آذاناً صاغية من طرف الدارسين والباحثين، إذ إن علاقات الزواج التي ربطت بين كثير من الفاتحين المسلمين ونساء النصارى الإسبانيات، ونجم عنها عنصر مسلم جديد عرف باسم المولدين الذين أصبحوا - بمرور الزمن - يؤلفون معظم سكان الأندلس، قد تفسر إلى حد ما اكتساب هؤلاء لبعض ملامح الثقافة الإسبانية وعناصرها، ولكنها غير كافية للتأثير في كل التراث الاجتماعي والثقافي للعنصر الأندلسي، كما ذهب إلى ذلك المستشرق الإسباني.

لقد تصدى له بعنف وقوة ميكلوس سترن Miklos Stern الذي اتهمه بعدم الموضوعية مطلقاً قائلاً: «كيف يمكن القول بأن صفات الفخر والحب والتعصب قد ورثها الأندلسيون من السكان الأصليين؟ وكيف يمكن الحكم على تعصب فقهاء قرطبة وثورتهم على بعض تصرفات الخلفاء بأنها راجعة إلى مزاج إسباني محض؟ هل يمكننا أن نبحث عن الدم الإسباني في عروق الفقهاء المتعصبين في المشرق والذين تسببوا في فتن مماثلة في بغداد؟ إني أسأل: أليس من الجدير التخلي عن مثل تلك التفسيرات في مجال التاريخ».

هكذا إذن يتبين أن أطروحة مدرسة سانشيث ألبورنوث التي تصر على القول بسرعة اندماج الفاتحين العرب والبربر في المجتمع الإسباني أطروحة لا سند لها ولا يدعمها سوى التعصب الأعمى، إننا لسنا هنا بصدد الرد على كل أطروحات هذا المستشرق المتعصب، ولكن كانت تكفينا الإشارة إلى أهم معالم اتجاهه الفكري في دراسة الحضارة الأندلسية ونظرته المتشائمة إلى التجربة



من الكوميديا الإلهية لدانتي

الأندلسية التي لم ير فيها خيراً ينشر ولا فضلاً يذكر(١٩).

ويجدر بنا أن ننتقل الآن إلى الحديث عن أهم جوانب النقاش الحاد الذي دار بين سانشيت ألبورنوث وأمريكو كاسترو اللذين لا يزال أتباعهما داخل إسبانيا وخارجها مستمرين في النقاش حتى الآن.

لقد دار النقاش حول طبيعة التجربة الأندلسية وأهميتها في إطار التاريخ الإسباني العام، فبينما يعدّ كاسترو التجربة الأندلسية من أهم أطوار التاريخ الإسباني وأكثرها فعالية وتأثراً على مسار ذلك التاريخ رأى سانشيث ألبورنوث أن وجود المسلمين والعرب منع المسيحيين الإسبان من الاستمرارية في تطورهم الحضاري والتاريخي، كما رأى الثقافة الأندلسية جزءاً من ثقافة أجنبية غريبة عن طبيعة الثقافة الإسبانية، وهو في رده وانتقاده العنيف لكتاب كاسترو «إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود»(٢٠)، قد حاول جاهداً الدفاع عن أطروحته الرامية إلى تأكيد «تأسبن» وتغريب إسبانيا الإسلامية التي تنفرد بخصائص دون غيرها وذلك منذ العصر القوطي، عاداً استمرارية الوحدة الثقافية والتاريخية الإسبانية عبر القرون حقيقة تاريخية على الرغم من الوجود الإسلامي فيقول: «تتميز إسبانيا عن الأصول التاريخية Linages للأسر الإسلامية التي كان عليها أن تتلاقى معها حسب التفكير المنطقي، ولايمكن أن تندرج داخل الكيان التقليدي لشعوب البحر الأبيض المتوسط فيما يسمى بالغرب، وتبتعد عن كل من هذه المجموعات أكثر مما تقترب منها»(٢١).

أما كاسترو فقد عدّ الوجود الإسلامي بالأندلس في جوار الممالك المسيحية من أهم العوامل التي دفعت إلى تطور إسبانيا المسيحية، فيذهب إلى أن تكوين إسبانيا إنما جاء نتيجة التحدي الحضاري الذي فرضته التجربة الأندلسية فيقول: «كانت إسبانيا في القرون الوسطى نتيجة تأليف بين موقف الخضوع والإعجاب أمام عدو متفوق وراق وأمام المجهود الحاصل للتغلب على ذلك الموقف الضعيف نفسه(٢٢). وإذا كان كاسترو قد ربط تاريخ إسبانيا بعلاقته بأوربا من جهة، وبالأندلس والشرق من جهة أخرى، فإن سانشيت ألبورنوث قد عرض لنظرته التاريخية لإسبانيا في إطار علاقتها بماضيها السابق لفترة الفتح الإسلامي مع التركيز في المقاومة الإسبانية للوجود الإسلامي واسترجاع الأندلس من طرف المسيحيين الإسبان كعنصر أساسي في التاريخ الإسباني.

وفي كتاب له آخر بعنوان: «مأساة الشرف في الحياة والأدب الإسبانيين» والذي يعدّ امتداداً لكتابه الأول، حاول مؤلفه أمريكو كاسترو أن يؤكد من جديد الحقيقة التاريخية لإسبانيا متشبثاً بآرائه الجريئة، معلناً أن حب إعطاء التفوق لمسيحيي إسبانيا على المسلمين واليهود لا يزال اليوم منتشراً في الكتابات التاريخية المعاصرة التي يتناسى أصحابها مكانة المسلمين واليهود في تكوين الطابع الخاص للتاريخ الإسباني، وذلك بتركيزهم على «عراقة الدم» وأهمية «الشرف الإسباني»، وكل هذا انطلاقاً من فكرة «الاستمرارية غير المنقطعة» للإسبان في تاريخهم العريق(٢٣).

بعض المستشرقين الإسبان يعدون التجربة الأندلسية فترة عارضة في تاريخهم الوطني، كما يرون الفتح الإسلامي للأندلس نوعاً من الغزو المدمر الذي حوّل القوميات الوطنية إلى مجتمعات مستشرقة

ويأسف كاسترو لطريقة تفسير أتباع التيار المعاكس لمسألة الجهاد الإسلامي إبان الفتح ملمحاً إلى موقف مننددث بيدال M. Pidal السلبي من المسألة(٢٤).

ومهما يكن الأمر فإن كلتا النظريتين: نظرية كاسترو الإيجابية ونظرية ألبورنوث السلبية مهما كانتا متضادتين، فإنهما تلتقيان في الاعتراف بالأهمية الكبرى للتجربة الأندلسية في التأثير في مجرى الأحداث في إسبانيا وكذا بالنسبة إلى كل أوربا الغربية.

فسانشيت ألبورنوث مهما عدّ الثقافة الإسبانية ثقافة مستقلة. فإن ذلك لا يعني أنه نفى وجود الثقافة الأندلسية، بل خصص لهذه الأخيرة عدة دراسات، مع أن تخصصه واهتمامه الأساسي هو تاريخ إسبانيا المسيحية، وقد وضع كتاباً ترجم فيه كثيراً من النصوص العربية المتعلقة بالتاريخ الأندلسي إلى الإسبانية(٢٥).

وقد كان للنقاش الذي دار بين المدرستين تأثير واضح في الدراسات الإسبانية الحديثة وغير

الإسبانية التي لا ينكر اقترابها أكثر من الموضوعية والحياد والتجرد عن الهوى والتعصب، مبتعدة إلى حد ما عن الخلافات الأيديولوجية والفلسفية سواء في إسبانيا أو خارجها.

خاتمة

لقد كان من الصعب جداً متابعة ورصد كل الوجوه الممثلة للاستشراق في ركب الحضارة الأندلسية، لهذا كان من الأنسب تعرف عينة منها من خلال تجلية الخطوط العريضة العامة لمواقفهم تجاه التجربة الأندلسية، تلك المواقف التي تباينت بين الإيجاب والسلب، إلا أن الاتجاه الأول كاد يطغى على الثاني خاصة إذا علمنا أن عقلاء الباحثين الإسبان اليوم قد أصبحوا يعملون من أجل مُصالحة إسبانيا مع نفسها وتجاوز عقدة التعصب، ومن ثم الإذعان للحقيقة؛ لأن الحضارة العربية الأندلسية لاتزال تعيش في وجدانها وذاكرتها وتقاليدها وتراثها الشعبي ولغتها. فالأندلسيون - كما يقول أمريكو كاسترو - هم الذين كوّنوا أول شعور وطني في إسبانيا، وأنه لولاهم لما أصبح لإسبانيا أي تميز أو خصوصية يُعليان من شأنها بين الأمم ليس في تاريخها الوسيط فحسب بل في تاريخها الحديث أيضاً.

الهوامش والمراجع

١. لقد استطاع كوديرا نشر كتاب «الصلة» لابن بشكوال، و«التكملة» لابن الأبار، و«المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي»، و«بغية الملتمس» للضبي، و«تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي و«فهرست ابن خير». كما أخرج ريبيرا كتاب «تاريخ قضاة قرطبة» للخشني كما حقق «ديوان ابن قزمان».

٢. انظر عنه: G. Gomez: Don Miguel Asin, in AL Andalus 1944 PP 268 - 291

٣. من أبرز دراساته ما كتبه عن:

- ابن حزم القرطبي: Aben Hazm de Gordoba Y su Historia de las Ideas religiosas.
- ابن عربي المرسي: el Mystico murciano Ben Arabi (1931).
- ابن مسرة Ibn Massarra Y su Escuela (1914).

٤. انظر: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية (القاهرة ١٩٧٠م) إعداد سهير القلماوي ومحمود علي مكي ص ١١٨.

٥. أسين بالاثيوس: سابق أندلسي مسلم يؤثر في القديس يوحنا الصليبي.
Un precurseur hispano - musulman de saint jean de la croix (Al Andalus Vol I (1933).

٦. د. عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين ط٢/١٩٨٩م ص٨٠.

7-Historia de los mozarapes de espana, madrid (1903).

وقد وضعه عام ١٨٦٦م، لكنه لم يطبع إلا بعد وفاة المؤلف لأسباب إيديولوجية بحتة.

٨. العنوان الأصلي للمقالة Lo Premuslim en la Espana musulmona وقد اعتمدنا الترجمة الفرنسية المنشورة تحت عنوان:
Espagne Preis Pamipue et espana Musulmane, بمجلة revue historique رقم ٢٣٧ لعام ١٣٦٧، ص ٢٣٥ - ٣٣٨.

٩. انظر رأيا مماثلاً لربيبرافي:

Pierre Guichard: Stuctues Sociales dans L'espagne musulmane Paris - Lahaye 1977 P10.

10- P. Guichard:les Mozarades de valence et d,al Andalus entre L'histoire et le Mythe in (Romm) No: 40 (1985) P17.

11- Ignacio Opague:les arbes n'ont Jamais envahi L,espagne Paris
1969.

وقد كتب كيشار رداً على هذا الكتاب في مقالة له بعنوان: Ont pein Envahi L,espagne en annales E,sc 1974.

12- Cl. Sanchez alporinoz "L'es pagne preistonnique et L'es pagne musulmane "in Revue historique No: 237/1867 P298.

13- Op Cit pp 298-299.

14- Ibid P304.

١٥. كما عند ليفي بروفنسال في كتابه حضارة العرب في إسبانيا» الترجمة العربية لذوقان قرقوط ص٢٧.

16- Asin Palacias: Aben Hazm de cordopa (Madrid 1927).

١٧. رسائل ابن حزم الأندلسي: تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦١م.

18 -Senchez Aldoruoz: Opcit p335.

١٩. يؤكد ألبورنوث أن أطروحاته الجديدية في دراسة التاريخ الإسباني إنما هي في الأصل للرد على كاسترو، وكما قال على حدّ تعبيره: «لقد تسببت جرأة كاسترو في دفع جرأتي».

20 - Americo castro: Espania en su historiq, cristianos, moros y judios, Ruenos Aires 1948.

21- Espana, in enignaa Historico.

وراجع كتاب «مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره» للدكتور محمد بن عبود ص٢٣.

22 -A. Castro: Op Cit P48.

23- Americo Castro: Le drame de L'honneur Dans lavie et dens le litterature Espagnales du XV siecles. Paris 1965 P59.

24- Opcit P63.

٢٥. كتاب (إسبانيا الإسلامية) ٢ la Espana musulmana (1946) vol، ولا يزال حقد المؤلف وتعصبه مستمرين، فقد نشر في السنوات الأخيرة عدة مقالات دعا من خلالها إلى الحذر والتيقظ من خطورة عودة الإسلام إلى الأندلس.

مؤلفات تستغرق الأعمار!

عبدالرحمن بن محمد العقيل
الرياض ـ السعودية

كم في عمر الإنسان من عشرات السنين حتى يجود بعشر أو عشرين من سني عمره في تأليف كتاب واحد، تاركًا مجدًا زائفًا يجنيه من تأليف عدد من الكتب التي يموت أغلبها يوم مولدها.

إنها ظاهرة مثيرة للعجب أن ينفق أحدهم سنواتٍ طوالاً من عمره في مؤلَّف واحد، وأعجب من هذا أن يكون له مؤلفات غيره تطول وتقصر (تحمل القيمة نفسها، أو تكاد).. وهي أيضًا ظاهرة غير مخصوصة بأمة من الأمم كما سنرى.

وإنك لتكاد تلمس في كل واحدة من هذه المطولات ـ سواء في عمر تأليفها، أو في طولها ـ فلسفة المؤلف مع الزمن، والإلماح إلى ما ينتابهم من مللٍ وإرهاق ويأس من إنجازٍ يدركون صعوبته.. يقول ول ديورانت في مقدمته عن مشروع كتابه «قصة الحضارة» ـ أنقله على طوله؛ لنفاسته ـ: «لست بحاجة إلى من يذكرني بأن هذا المشروع ضربٌ من الخبل، ولا إلى من يذكرني بأن مجرد تصور مثل هذا المشروع إمعان في غرور المرء بنفسه؛ فلقد بينت في جلاء أنه ليس في مستطاع عقل واحد أو حياة واحدة أن تقوم بهذه المهمة على الوجه الأوفى.

... إن علم تدوين التاريخ في صورته المُثلى لابد أن يرمي ـ في كل فترة من فترات الزمن ـ إلى تصوير مجموعة عناصر ثقافة الأمة مشتبكة بما فيها من مؤسسات ومغامرات وأساليب عيش؛ لكن تراكم المعرفة قد شطر التاريخ ـ كما فعل بالعلم ـ إلى نواحي اختصاصٍ تُعَدُّ بالمئات، وجفِل العلماء الحكماء من محاولة تصور الكل في صورة واحدة ـ سواء في ذلك العالَم المادي أو ماضي البشرية الحي؛ ذلك لأن احتمال الخطأ يزيد كلما اتسع نطاق المشروع الذي يأخذه الإنسان على نفسه.

... على أن المؤلِّف الذي أنهكه التعب يشاطر «تاي تنج» الذي نشر في القرن الثالث عشر كتابه عن «تاريخ الكتابة الصينية» إذ قال: «لو كنت

أنتظر الكمال، لما فرغت من كتابي إلى الأبد».

ولَمَّا كانت هذه الأيام - التي ينحو فيها الناس نحو استخدام آذانهم - لا تعمل على شيوع الكتب الغالية تُكتب في موضوعات بعيدة لا تشوق إلا من يعدُّون أنفسهم مواطنين للعالم كله، فمن الجائز أن تبطئ سائر حلقات هذه السلسلة في الظهور بفعل الضرورات القاسية التي تقتضيها الحياة الاقتصادية، أما إن أقبل الناس على هذه المغامرة التي حاولتُ بها جمع العناصر كلها في مركّب واحد... فستظهر الأجزاء التالية له - إن مُدَّ لي في العافية - على فترات طول الواحدة منها خمس سنوات».

ويقول القاضي إسماعيل بن علي الأكوع في مقدمة كتابه «هجَرُ العلم ومعاقله في اليمن»: «إن كتابي هذا لم يكن ليتحققَ ظهورُهُ لولا عونُ الله سبحانه وتعالى الذي يَسَّر لي أسبابَ المعرفة، وأمدني بالعزيمة التي صارعت الكللَ والملل، وقاومت التسويف والكسل، على الرغم مما كان ينتابني من الإرهاق والتعب، وأحيانًا الأمراض خلال رحلاتي العلمية الطويلة المتعددة التي تجاوزت عشرين عامًا في تحصيل مادة هذا الكتاب، ثم تصنيفها وترتيبها وإخراجها على هذا النحو...».

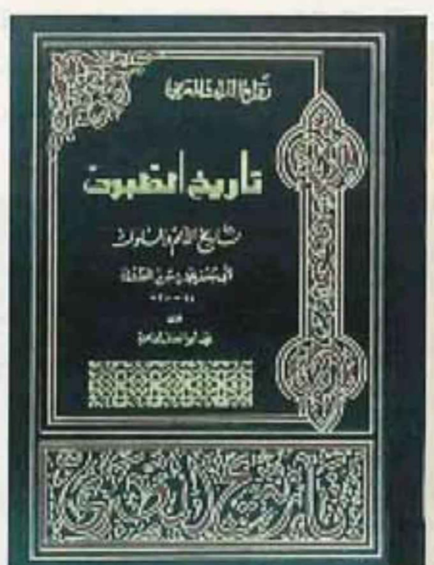
ويشير خير الدين الزِّركلي (ت ١٣٩٦هـ)، إلى تخوفه من الزمن قبل وفاته بقليل، يقول: «إني لأشعر شعورًا غريبًا أني في سباق مع الزمن، وأريد أن أنجز عملي هذا على خير وجه قبل حلول الأجل، ولا أظنه إلا قريبًا»(١).

وقد احتاط رحمه الله لكتابه قبل موته فأودع مبلغًا من المال في أحد المصارف ليتولى مجمع اللغة العربية بدمشق الإنفاق منه على طباعة «الأعلام».

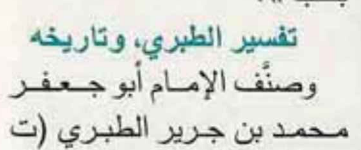
وأجد هاهنا أن دراسة فكرة تأليف كتابٍ في زمن طويل أمر جدير بالعناية، وقد حاولت تتبع نخبة من المطولات - سواء في عمر تأليفها، أو في طولها - عارضًا بشكل سريع للكتاب، ومنبهًا على قيمته، مبتدئًا بالصحيحين: البخاري ومسلم.

الصحيحان

صنَّف الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ) صحيحه في ١٦ عامًا من سني حياته. قال الإمام البخاري: «صنَّفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة، وخرَّجته من ستمئة ألف حديث، وجعلته حجة بيني وبين الله عزَّ وجل».. وقال: «ما كتبت في كتاب الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك فصلَّيت ركعتين».



وأما الإمام مسلم (ت ٢٦١هـ) فقد صنَّف صحيحه في ١٥ عامًا.. جمع فيه نحو ثلاثة آلاف حديث عدا المكرر، استخرجها من ثلاثمئة ألف حديث.. وقال: «ما وضعت شيئًا في كتابي هذا إلا بحجَّة، وما أسقطت منه شيئًا إلا بحجَّة».



تفسير الطبري، وتاريخه

وصنَّف الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) كتابين رائدين في موضوعيهما خالدين في تاريخنا، وهما تفسيره المسمى «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، وتاريخه المسمى «تاريخ الرسل والملوك».

أما تاريخه، وهو من أوائل كتب التاريخ وأطولها وأوثقها، فقد استغرق منه ١٣ عامًا، بدأ في تأليفه سنة ٢٩٠هـ، وانتهى منه سنة ٣٠٣هـ.. واستغرق إملاء الطبري تفسيره سبع سنين من سنة ٢٨٣هـ إلى سنة ٢٩٠هـ.

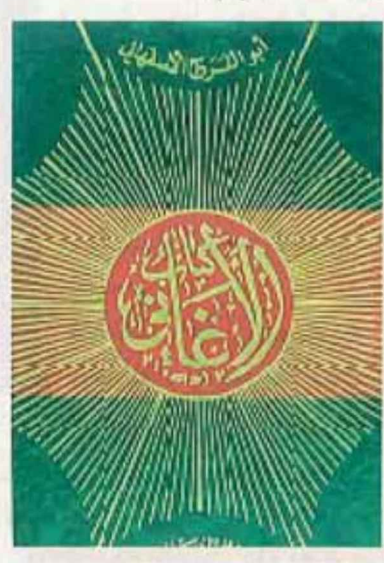
قال أبو حامد الأسفراييني (ت ٤٠٦هـ): «لو سافر رجل إلى الصين، حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا»، وقال

النووي (ت ٦٧٦هـ): «أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبري».

الأغاني

وصنَّف أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٦٢هـ) كتابه الأغاني في ٥٠ عاماً، وقد أجمعوا على أنه أهم كتاب في أخبار العرب وأشعارهم منذ أقدم العصور حتى القرن الثالث الهجري، وأنه لم يُعمل مثله في بابه.

نقل ياقوت (ت ٦٢٦هـ) عن أبي محمد المهلبي (ت ٣٥٢هـ) قوله: «سألت أبا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب؟ فقال في خمسين سنة.. قال: وإنه كتبه مرةً واحدة في عمره، وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة»(٢).





وذكر ياقوت أن الصاحب بن عبّاد (ت ٣٨٥هـ) استغنى بكتاب أبي الفرج عن ٦٢٠٠ مجلد مما في خزانة كتبه، فقال: ما منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه.. ولم يكن كتابُ الأغاني يفارق عضد الدولة (ت ٣٧٢هـ) في سفره ولا حضره.

قال ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في مقدمته: «وقد ألّف القاضي أبو الفرج الأصبهاني - وهو من هو - كتابه الأغاني، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء في مئة صوت اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه.. وهو لعمري ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال.. ولا يُعْدَل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها».

التمهيد

وكان أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر (ت٤٦٣هـ) قد ألف عدداً من الكتب حول موطأ الإمام مالك ومذهبه، أجلها «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» الذي رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، وذكر مروياته عن كل شيخ.

وقد استغرق ابن عبدالبر في تأليف التمهيد ٣٠ عاماً من حياته. وقد أنشد يصفه:

سَمِيرُ فُؤادي مُذْ ثلاثين حِجَّةً
وصَيْقَلُ ذِهني والمُفَرِّجُ عن هَمِّي
بَسَطْتُ لَكُم فيهِ كلامَ نَبِيِّكُم
بِمَا في مَعَانيهِ مِنَ الفِقْهِ والعِلْمِ
وفيهِ مِنَ الآدابِ ما يُهْتَدى بِهِ
إلى البِرِّ والتَّقوى ويَنْهَى عن الظُّلْمِ(٣)

قال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ): «التمهيد لصاحبنا أبي عمر بن عبدالبر، لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً، فكيف أحسن منه؟!».

ولابن عبدالبر غير هذا الكتاب كتب جليلة القدر منها: «الاستذكار»، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، و«جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله»، و«بهجة المَجالس وأنس المُجالس».. وغير ذلك مما يطول تعداده.

تاريخ دمشق

نقل ابن خلّكان (ت ٦٨١هـ) في وفياته: «قال لي شيخنا الحافظ العلامة زكي الدين أبو محمد

عبدالعظيم المنذري (ت ٦٥٦هـ) حافظ مصر أدام الله به النفع، وقد جرى ذكر هذا التاريخ، وأخرج لي منه مجلداً وطال الحديث في أمره واستعظامه: ما أظن هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه، وشرع في الجمع من ذلك الوقت؛ وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه.

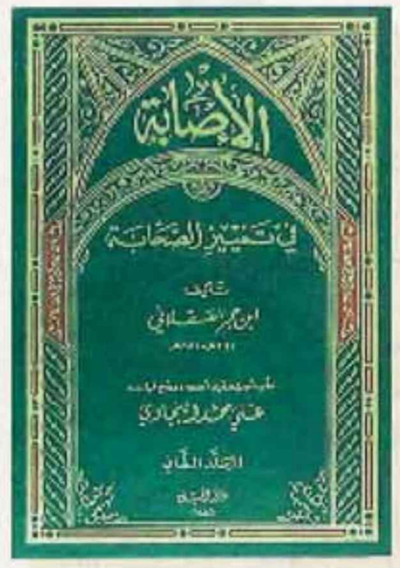
[قال ابن خلّكان]: ولقد قال الحق، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول، ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله؟ وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره، وما صح له هذا إلا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها»(٤).

ولقد صنَّف الحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تاريخ دمشق في ثمانين مجلدة، سلك فيه مسلك المحدِّثين إسناداً وضبطاً وتوثيقاً، على نسق تاريخ بغداد.. وهو تاريخ لمدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حلّها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها.

وقد ترجم فيه لعدد كبير من الأعلام من الساسة والعلماء محدِّثين وفقهاء وقضاة وأدباء وغيرهم، من العصر الجاهلي إلى عصره.. وقد تجاوز عدد المترجمين فيه ١٢٠٠٠ علم.

وقد أمضى ابن عساكر ٣٠ عاماً في تأليف تاريخ دمشق؛ إذ بدأه سنة ٥٢٩هـ واستمر بعمل متقطع في التأليف إلى أن نجز قرابة سنة ٥٦٠هـ.. ولابن عساكر أمالٍ كثيرة، وكتب ورسائل أغلبها في الحديث النبوي غير تاريخ دمشق؛ تجاوز عددها ٦٠ كتاباً.

تعدد مشارب المؤلف، وتأليفه في أكثر من فن، وأكثر من كتاب في وقت واحد، أو الانشغال بالوظائف الصارف عن التفرغ من أسباب طول الزمن الذي يستغرقه تأليف الكتب



فتح الباري، والإصابة

ذكر السخاوي (ت ٩٠٢هـ) في: «الجواهر والدرر» في تعداد تصانيف الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) أن منها ما كمل قبل الممات، ومنها ما بقي في المسوَّدات، ومنها ما شرع فيه، فكاد، ومنها ما شطر، ومنها ما صلَح أن يدخُل تحت الإعداد.

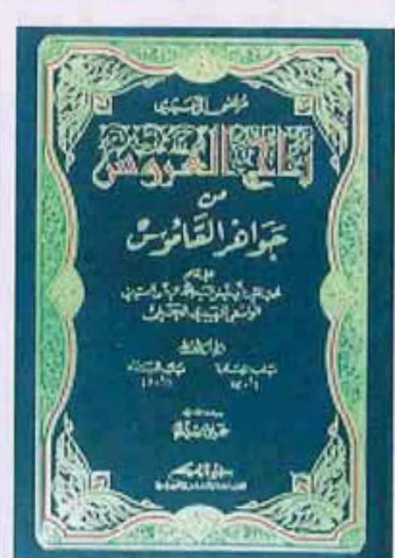
وأهم ما يُذكر من تآليف ابن حجر - التي تجاوزت ١٥٠ كتاباً - كتاباه «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» و«الإصابة في تمييز الصحابة».

استغرق تأليف «فتح الباري» من حياة مؤلفه ٢٥ عاماً وزيادة، ذكر السخاوي أنه: «كان الابتداء فيه في أوائل سنة سبع عشرة وثمانمئة على طريق الإملاء، ثم صار يُكتب من خطه مداولة بين الطلبة شيئاً فشيئاً، والاجتماع في يوم من الأسبوع للمقابلة والمباحثة، إلى أن انتهى في أول يوم من رجب سنة اثنتين وأربعين وثمانمئة، سوى ما ألحق فيه بعد ذلك، فلم ينته، إلا قُبيل وفاة المؤلف بيسير.. وجاء بخط مؤلفه في ثلاثة عشر سفراً، وبُيِّض في عشرة، وعشرين، وثلاثين، وأزيد وأقل»(٥).. وهو أهم الشروح على صحيح البخاري.

ويأتي كتاب «الإصابة» في طليعة كتب تراجم الصحابة رضوان الله عليهم، وهو أكثرها استيعاباً؛ ترجم فيه لأكثر من ١٢٢٩٧ صحابياً بما في ذلك المكرر.. فجمع فيه الكتب التي سبقته مثل «الاستيعاب» لابن عبدالبر، و«أسد الغابة» لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) وغيرهما وزاد عليها، وميّز كتابه بقسم جديد يذكر فيه من دخلت أسماؤهم

ضمن الصحابة غلطًا ووهمًا، وهو باب لم يُسبق إليه ابن حجر الذي أشاد بعمله في مقدمته بالقول: «لا أعلم من سبقني إليه، ولا من حام طائرُ فكره عليه؛ وهو الضالة المطلوبة في هذا الباب الزاهر...».

وقد استغرق هذا الكتاب في تأليفه نحو ٤٠ عامًا، قال ابن حجر بآخر تراجم المعروفين بأسمائهم من الصحابة: «انتهت كتابتي مع ما في الهوامش في ثالث ذي الحجة عام سبعة وأربعين، وكان الابتداء في جمعه في سنة تسع وثمانمئة فقارب الأربعين، لكن كانت الكتابة فيه بالتراخي، وكتبتُهُ في المسوَّدات ثلاث مرات؛ من أجل الترتيب الذي اخترعته، وهذه المرة الثالثة، وقد خرجت النسخة مسوَّدة أيضًا لكثرة الإلحاق، ولم يحصل اليأس من إلحاق أسماء أخرى والله المستعان»(٦).





الزِّركلي

تاج العروس

بدأ مرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ) في تأليف تاج العروس نحو سنة ١١٧٤هـ، وانتهى من تأليفه سنة ١١٨٨هـ؛ فيكون بذلك قد أنجز تأليف كتابه في ١٤ عامًا.

ونقل صديق حسن خان صاحب «أبجد العلوم» (ت ١٣٠٧هـ) إجازة للزَّبيدي منشورة في كتاب «النفس اليماني والروح الريحاني» جاء فيها: «ومما منَّ الله تعالى عليَّ أني كتبت على القاموس شرحًا غريبًا في عشر مجلدات كوامل، جُملتها خمسمئة كراس.. مكثت مشتغلاً به أربعة عشر عامًا وشهرين، واشتهر أمره جدًا...»(٧).

وللزَّبيدي قرابة مئة كتاب غير التاج، منها الرسائل والكتب الصغيرة والمطولات، مثل شرحه لإحياء علوم الدين المسمى «إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين» الذي استغرق إملاءُ أحد عشر عامًا.

الأعلام

قدَّم خير الدين الزِّركلي لكتابه الأعلام قائلاً: «يعوز الخزانة العربية كتاب يضم شتات ما فيها من كتب التراجم، مخطوطها ومطبوعها، قديمها وحديثها.. ويقتضي العصر الذي نعيش فيه أن يكون لنا كتب يجتزئ بها المعجل منّا عن مطولات السير وضخام أسفارها.

وقد حاولت بهذا الكتاب أن أملأ جانبًا صغيرًا من ذلك الفراغ، وأمضي بعض تلك الحاجة، وأقوم بشيء مما يقتضيه العصر، وعساي أن أُوفق».

وتعود بداية عمله في الكتاب الذي ضمنه تراجم مشاهير الرجال والنساء من العرب والمستعربين إلى عام ١٩١٢م (وبضع سنين قبلها في الإعداد)، ثم استمر في التأليف طوال ستين عامًا يصلحه ويضيف إليه ويطوره حتى استوى على حاله.. وقد أشرف الزِّركلي بنفسه على طبع كتابه ثلاثًا: الأولى عام ١٩٢٧م، والثانية عام ١٩٥٧م، والثالثة عام ١٩٦٩م.. وتوفي رحمه الله وهو يُعدّ لطبعه رابعة.

ويعلم الملمّ بحياة الزِّركلي أنه من رجالات السياسة والعمل الدبلوماسي بالإضافة إلى علمه وأدبه.. وقد كان الوقت الذي استغرقه تأليف

الأعـلام من حيـاة الزِّركلـي على حساب عطائه الشعري الذي ساهم في ثورة الشعب السوري في وجـه الانتداب الفرنسي.. يقول الزِّركلي عن إعـراضـه عن نـظم الشعـر: «هذا الإعراض ليس ابن السـاعة، ولكنه ذو عـمـر طويل، يكاد يمتـد خمسين سنة إلى الوراء، ولولاه ما خـــرجـت إلى الـناس بكتـــابـي «الأعلام»، ويخيّل إليّ أني خدمت به بلادي وأمتي بمثل مـا خدمتها بالشعر.

... إن العـمـل في «الأعـلام» يسـتـحـوذ عليّ ليلي ونـهـاري، ويغـرقنـي في بحـر من القــراءة والكتـابة والتـأليف، لا أجد بـعده سانحة أتفرغ فيها لعمل آخر.

.. إني عملت خـمسين سنة في كتاب «الأعلام» وقضيت معظمها في الوقت الذي أرحت نفسي فيـه من الشعـر.. حياتي كلهـا وهبتها لهـذا العـمل، وكم أمنّي النفس أن يمدّ الله في أجلي أيامًا أو شهورًا أو سنين كي أنجـــز هـذا العــــمـل، وأخرجه إلى الناس كاملاً..».

ونحـن في غنى عـن القـول: إن عـمل الزِّركـلي السيـاسي والدبلومـاسي، وكـثرة رحـلاته وعلاقـاته، إضـافـة إلى شـخـصـيتـه وصبـره على البـحث والتنقيب.. كل ذلك ساهم في خروج «الأعلام» بهذا الشكل المتـميـز الـذي خلّده بين الناس.. ومـن تلك المزايا التي أهلته للثناء عليه وإطرائه:

ـ الشمول في شخصيات مترجميه، وطول الفترة الزمنية التي يتناولها (وهي أربعة عشر قرنًا).

ـ طريقته المتفرّدة في ترتيب التراجم التي يعتمد فيها الاسمين الأولين من اسم المترجَم وتاريخ وفاته.

صنّف أبو الفـــرج الأصبهاني «الأغاني» في ٥٠ عـــامـاً، وأنفق ديورانت ٤٠ عـامـاً في تأليف «قصة الحضارة»، واستغرق ابن عبد البر ٣٠ عاماً في «التمهيد»، ومثله ابن عساكر في تأليف «تاريخ دمــشق»



إسماعيل بن علي الأكوع

ـ خطوط المترجَمين وصـورهم التي حفظ لنا الزِّركلي ما تيسر منها، فوصل عـددها ـ أو تجاوز ـ ١٦٠٠ نموذج مـا بين صـور شـخـصـيـة، وخطوط قديمة ومعاصرة (تواقيع وإجازات ومراسلات).

وعناية الزِّركلـي بالخطوط ليست لمجـرد البـحث عن تحف فنيــة أو أثرية، يقول الزِّركلي: «والخطوط ـ إلى جانب قيمتـهـا الأثرية ـ فلذٌ من أرواح أصحابها أبديّةُ الحياة، يكمن فيها من معاني النفوس، ما لا تعرب عنه صـور الأجسام».. وقـد لقي ـ رحمـه الله ـ معاناة عظيمـة في جمع تراجم مـعـاصـريه وصــورهم وخطوطهم؛ لما كـان يلاقيه من جفوة أقارب المترجَمين وتجاهلهم لرسائله واتصالاته.

هجَر العلم ومعاقله

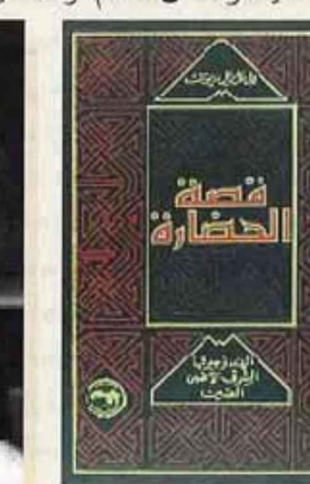
صنَّف العلامة القاضي إسماعيل بن علي الأكوع هـذا الكتاب «هجَرُ العلم ومعاقله في اليمن» الذي أكل من حياة مؤلفه ٢٠ عامًا مضت، في تراجم العلماء الذين وُلدوا أو تُوفُّوا أو درَّسوا في واحـدة من تلك الهجَـر (وهي قرى ـ عرفتهـا اليمن منذ أقدم العصور ـ يأوي إليـهـا العلمـاء والفضلاء وأهل الـصلاح والتـقوى، تحت حماية ورعاية أعيان القبيلة أو القبائل التي تقع القرية بين أظهرهم).

ومصادر الأكوع هي كتب تاريخ اليمن (المخطوط منهـا والمطبوع)، مشفوعـة بالزيارات والمشاهدات الحيـة المضنيـة لـتلك الهجَـر والمعـاقل عـلى مـدى عشرين عامًا.. وقد زوّد كتـابه بصور فوتوغرافية لما أمكنه مـن العلمـاء المعاصـرين، ولآثار بـعض تلك الهجَر العلمية.

من أسباب طول الزمن الذي ألفت فيه هذه الكتب

١ـ صعوبة الموضوع: ومثال ذلك «قصة الحضارة» التي أنفق مؤلفها ول ديورانت ٤٠ سنة في تأليفها قضاها في جهد متواصل ليُخْرِج للناس قصة الحضارة (تاريخ المدنية) في ٤٤ مجلداً، فحاول جاهداً أن يتتبع نشأة الحضارة، وأنواع ما عرفته المجتمعات من النظم الاقتصادية، وأشكال الحكم، والعقيدة، والفلسفة





ول ديورانت

والآداب والفنون.. يقول ديورانت في أثناء تقديم أول أجزاء مطولته «قصة الحضارة»: «.. ولن يسعدني شيء بمقدار ما يسعدني أن أنصرف بجهدي كله لهذا العمل فلا تشغلني شواغل أدبية أخرى، وسأمضي في العمل ما أسعفني الزمن وما عاونتني الظروف، راجياً أن يشيخ معي عدد لا بأس به من معاصريَّ في تحصيل العلم، وأن يكون في هذه الأجزاء بعض العون لأبنائنا على فهم الكنوز التي لا حدَّ لها مما يرثونه عن أسلافهم والاستمتاع بها».

٢ـ تأليف الكتاب في فترات متقطعة؛ لتعدد مشارب المؤلف وتأليفه في أكثر من فن وأكثر من كتاب في وقت واحد، أو الانشغال بالوظائف الصارف عن التفرغ.. ومثال ذلك «تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«وفيات الأعيان» لابن خلّكان الذي بدأه قبل سنة ٦٥٤هـ بسنوات ولم ينجزه إلا سنة ٦٧٢هـ؛ لانشغاله في العمل بالقضاء.. و«مأساة فاوست» مثال غربي ناصع على ذلك، إذ بدأ جيته في تأليفها عام ١٧٧٢م، ولم ينجزها إلا عام ١٨٣١م، فأمضى بذلك ٦٠ عاماً متقطعة في التأليف.

٣ـ العناية بالكتاب: تحريراً، ومقابلة: ومثال ذلك «فتح الباري» لابن حجر، فلم يكن يكمل منه سفر إلا وقد قُوبل وحرِّر.

٤ـ ضخامة هذه الكتب، وأنها في الغالب تصلح أن تكون كتباً في كتاب.. وقد نالت عناية مستمرة بعد صدورها؛ باختصارها والاستلال منها..

وخير الأمثلة على ذلك: كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني الذي اختُصر كثيراً، وأشهر مختصراته: مختار ابن منظور، وتجريد ابن واصل الحموي، ومهذب الخضري.. ولكتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر عدد من المختصرات من أشهرها: مختصر ابن منظور، وتهذيب عبدالقادر بدران، كما استُل منه عدد من التراجم المفردة لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، واستَل منه صلاح الدين المنجد ما يتعلق ببني أمية وسماه «معجم بني أمية في تاريخ مدينة دمشق» وأضاف إليه ما ليس منه، واستَلَّ حسام الدين فرفور مع جماعة من الأساتذة ما يتعلق بالشعراء وسماه «معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق» صدر منه الجزء الأول.. ومن الأمثلة «تفسير الطبري» الذي قال عنه أبو محمد الفرغاني: «... لو ادّعى عالم أن يُصنِّف منه عشرةَ كتب، كلُّ كتاب منها يحتوي على عِلْم مفْرَدٍ مستقصى لفعل».

المراجع

١ـ ساعة مع خير الدين الزِّركلي: د. بكري شيخ أمين.. المجلة العربية: ع٤، جمادى الأولى ـ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٧هـ، ص ٤٩ ـ ٥٢.
٢ـ معجم الأدباء ١٧٠٨/٤.
٣ـ التمهيد ٤٤٨/٢٤، وسير أعلام النبلاء ١٦٣/١٨ مع بعض الاختلاف.
٤ـ وفيات الأعيان ٣١٠/٣.
٥ـ الجواهر والدرر ٦٧٥/٢.
٦ـ الإصابة ٧٢٨/٦.
٧ـ أبجد العلوم ٢٠/٣.

تلوّث لحوم الحيوانات بالهرمونات

محيي الدين لبنية
المدينة المنورة - السعودية

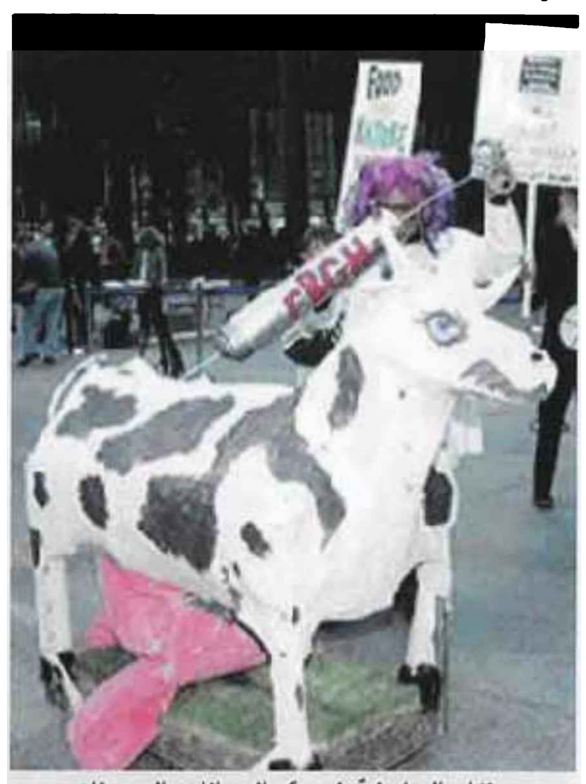
نشرت وسائل الإعلام المختلفة في العالم أخبار رفض دول الاتحاد الأوربي استيراد لحوم الأبقار في شكليها المبرد والمجمد من الولايات المتحدة، وكاد ذلك يسبب حدوث مشكلة تجارية بين أمريكا والدول الأوربية نتيجة استخدام الهرمونات في تسمين هذه الحيوانات، وقبل ذلك ظهرت في عام ١٩٩٨م مشكلة اقتصادية بين الولايات المتحدة وبعض دول أمريكا اللاتينية نتيجة امتناع الأخيرة عن استيراد لحوم الحيوانات منها للسبب نفسه، ولقد انتشر في بعض دول العالم إضافة الهرمونات إلى العلائق الغذائية للحيوانات الداجنة، أو حقنها في أجسامها للإسراع في نموها وزيادة أوزانها، أو لإنتاج الأبقار الحلوب كميات من الحليب.



وتقوم ما تسمى الغدد الصماء في جسم الإنسان بإفراز الهرمونات مباشرة في الدم، وهي تشمل بشكل رئيس الغدة الدرقية والمعثكلة (البنكرياس)، والغدة النخامية وغدة الكظر وغدة فوق الكلية، وقد ضم العلماء إليها حديثًا عضلة القلب بعد اكتشافهم إفرازه هرمونًا خاصًا يضاد إدرار البول Antidiuretic hormone. ولا يقتصر عمل القلب في الجسم على ضخ الدم إليه ثم سحبه من أنسجة الجسم، بل هو يفرز كميات صغيرة من الهرمونات في جسم الإنسان، لها تأثيرات حيوية مهمة في صحته.

تفاقم المشكلة

ازداد حديثًا اهتمام العلماء بموضوع تلوث لحوم الحيوانات بالهرمونات لاحتمال تفاعلاتها مع غيرها من المركبات في خلايا جسم الإنسان وإصابته ببعض الأمراض، خاصةً بعد اكتشافهم زيادة حالات قلة الخصوبة (العقم الجنسي) لدى الذكور نتيجة انخفاض عدد النطاف في سوائلهم المنوية عن حدودها الطبيعية، وزيادة معدل حدوث تشوهات في أجهزتهم التناسلية في شكل عدم نزول الخصيتين في كيس الصفن Cryptorchidism، أو حالة الإحليل التحتاني Hypospadias وغيرهما، وكذلك ارتفاع معدل حدوث سرطان الخصيتين في كثيرٍ من دول العالم، وعزا بعض العلماء ارتفاع معدل حدوث ذلك إلى زيادة كميات المركبات ذات النشاط الإستروجيني التي تدخل أجسامنا، ومصدرها الملوثات البيئية والأغذية المحتوية عليها، كما لوحظ انخفاض خصوبة الحيوانات البرية، وعزا بعض المتخصصين حدوثه إلى زيادة التلوث الكيماوي للبيئة التي تعيش فيها، كما تؤدي الإستروجينات الموجودة في



تزايد المعارضة ضد حقن الحيوانات بالهرمونات

بعض النباتات التي تقتاتها المواشي كالأبقار والأغنام دوراً في ارتفاع حدوث حالات العقم الجنسي فيها، فضلاً عن تأثيرات وجود الهرمونات في الأغذية في بعض الوظائف الحيوية للخلايا في جسم الإنسان، وإصابته ببعض الاضطرابات الصحية. واكتشف العلماء وجود الإستروجينات في لحوم الأبقار والعجول التي استخدمت في عمليات تسمينها، ولزيادة إفراز ضروع الحيوانات الحلوب منها، وكذلك في النسيج الدهني لأجسام المستهلكين للحومها.

ويلجأ بعض مربي الحيوانات، كالعجول والأغنام والدجاج، إلى استخدام هرمونات الإستروجين التي قد تضاف إلى علائقها الغذائية، أو تحقن بالعضل في أجسامها في أثناء تسمينها في المزارع، لسرعة زيادة أوزانها، وهي تشمل عدداً من المركبات منها ثنائي إيثايل ستيلبو سترول Diethylstilboestrol وهو أشدها تأثيراً، وهكسوسترول Hexoestrol، وتقوم الإستروجينات بتشجيع نمو الدجاج والأغنام والعجول والإسراع في زيادة وزنها عن طريق تجمع الدهون في أجسامها، كما تعمل الهرمونات الجنسية الستيرونيدية Steroid sex hormones كعوامل بنائية في أجسام حيوانات الماشية كالأبقار والأغنام. والإستروجين هو أحد الهرمونات الأنثوية التي تتكون في المبيضين في الإناث ويساعد على نمو أعضاء البلوغ وظهور الصفات الجنسية في أجسامهن مثل نعومة الشعر، ورقة الصوت وبروز النهدين، وتكوين حلمتي الثديين، وترسيب الدهون في الفخذين والردفين.

وتحظر القوانين الصحية في الكثير من دول العالم استخدام الهرمونات في تسمين العجول والأبقار، وفي عام ١٩٩٨م حدثت مشكلة اقتصادية بين الولايات المتحدة وبعض دول أمريكا اللاتينية التي تستورد منها لحوم العجول والأبقار لاعتراضها على استعمال المزارعين الأمريكيين الهرمونات في تسمينها، كما استعمل المركب سوماتوتروبين Somatototropin (B.S.T) في الولايات المتحدة لتحسين إنتاج الأبقار الحلوب من اللبن، ويعتقد بعضهم ضرره لصحة الإنسان، وعموماً يتفق رأي معظم سكان العالم على عدم قبول وجود الهرمونات في طعامهم، لذا يعارض الكثيرون

منهم في أوربا وغيرها استعمالها في عمليات تسمين الحيوانات وزيادة إفراز الحليب.

مصادرها

توجد الهرمونات في لحوم ذبائح الحيوانات نتيجة أحد الأسباب الآتية:

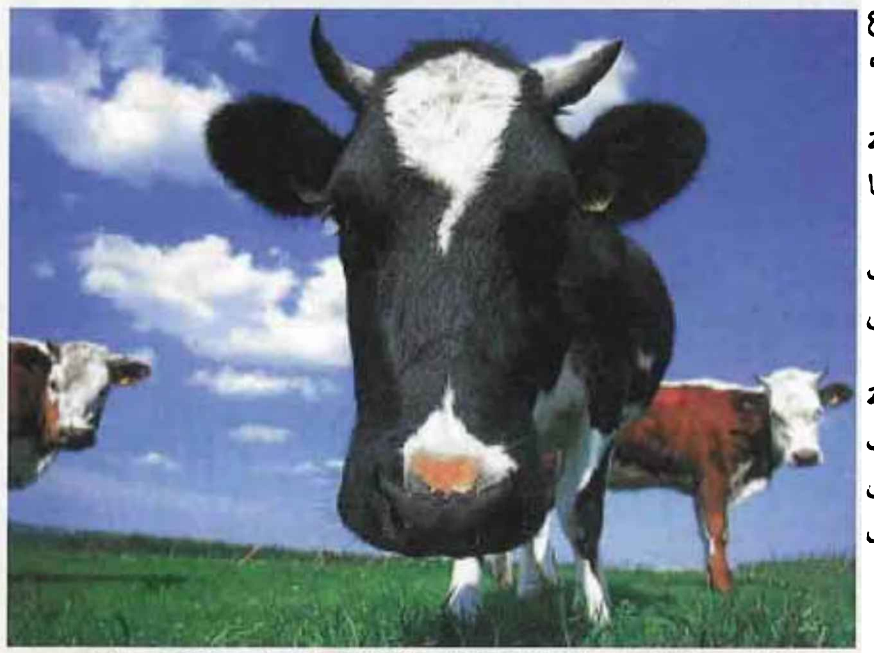
- توجد بشكل طبيعي في أعضاء الحيوانات كالخصيتين والبنكرياس.
- كمركّبات تُلوِّثُ لحوم الحيوانات، وهي تشمل:
- حقن بعض مستحضرات الهرمونات في أجسام حيوانات الماشية والدواجن للإسراع في عمليات تسمينها، وزيادة وزنها، أو لزيادة إفراز الحليب في الماشية.
- تناول الحيوانات أعلافًا غذائية تلوثت بفطريات تنتج مركبات لها تأثير إستروجيني في أجسامها.
- عند استخدام المستحضرات الدوائية الهرمونية في علاج بعض أمراض الحيوانات.
- نتيجة زيادة تلوث البيئة والمحاصيل الزراعية بمبيدات آفات زراعية ضد الحشرات مثل مركبات الـ (د. د. ت)، والحشائش الضارة لها تأثيرات إستروجينية.

وجودها في بعض أعضاء الحيوان

تقوم الخصيتان في ذكور الإنسان بإنتاج هرمون تستوستيرون Testoesterone الذي يساعد على ظهور علامات الرجولة فيهم، مثل نمو شعر الذقن، وخشونة الصوت، وكبر حجم الحنجرة، وزيادة عرض المنكبين، ونمو عضلات الجسم، ويؤدي نقصه إلى زيادة تخزين الدهون تحت الجلد، لذا يستبعد أكل الخصيتين من ذبائح الأغنام والعجول وغيرهما في طعام الإنسان في أمريكا وأوربا وسواهما خوفًا من تأثيراتها الصحية فيه، وهي تستعمل مع فضلات لحومها في تحضير أغذية للحيوانات كالقطط والكلاب وغيرهما.

تناول الحيوانات أعلافًا ملوثة بالفطريات

توجد أنواع كثيرة من المركبات الإستروجينية في الخلايا الحيوانية والنباتية والفطريات، كما يؤدي سوء تخزين حبوب المحاصيل ومكونات أعلاف الحيوانات في ظروف رطوبة وحرارة مرتفعتين إلى نمو الفطريات، ويقوم بعضها بإفراز مركبات كيماوية لها تأثير إستروجيني في أجسامها، فمثلاً أمكن فصل مركب زايرالينون Zearalenone من بذور الذرة التي أصيبت بالفطر Fusarium graminearum بسبب سوء تخزينها، وتتوافر أدلة علمية قليلة على وجود هذا النوع الأخير من الهرمونات الضارة بالصحة في بعض النباتات، فضلاً



الإستروجينات الموجودة في النباتات التي تقتاتها الحيوانات تسبب العقم لدى الذكور

عن التلوث المحتمل لبذور الحبوب المستعملة في أعلاف الحيوانات أو مياه شربها بمبيدات زراعية حشرية مثل د. د. ت أو مبيدات حشائش، فتتصف بعض المبيدات الحشرية ومبيدات الحشائش التي قد تلوث ثمار الفواكه والخضراوات وحبوب المحاصيل بأن لها تأثيرات إستروجينية في جسم الإنسان.

استعمالاتها في الطب البيطري

يستعمل الأطباء البيطريون أحيانًا في علاج بعض أمراض الحيوانات، كالأبقار والأغنام مركبات كورتيكوستيرويدية Corticosteroides، مثل الكورتيزون ومركباته، أو يضيفها بعض المشتغلين في تربية هذه

الحيوانات إلى علائقها الغذائية للإسراع في زيادة وزنها، فهي تسبب احتفاظ جسم الحيوان بالماء وزيادة وزنه فيحقق لهم أرباحاً مادية على حساب صحة الحيوان والإنسان.

امتصاص الهرمونات في الأمعاء

يخرج مع براز الأشخاص البالغين نحو ١ - ٢٪ من مركبات أيزوفلافنون ISOFLAVONS، الموجودة في بعض الأغذية، وهي ذات نشاط إستروجيني، وهذا يعني امتصاص كمية كبيرة منها داخل الأمعاء، وتتركب الهرمونات باختلاف أنواعها ومصادرها أساساً من بروتين؛ لذا تتأثر بالعصارة الهضمية في معدة الإنسان وتتحلل، فتفقد معظم تأثيرها الدوائي، لذا شاع إعطاء المستحضرات الهرمونية في علاج بعض الأمراض الناشئة عن نقصها في جسم الإنسان، عن طريق حقنها تحت الجلد كهرمون الأنسولين، أو بالعضل، أو على شكل رذاذ بالأنف مثل هرمون كالسيتنونين أو بالفم على شكل أقراص بعد تغطيتها بمركب يقاوم تأثير التحلل بالحامض المعدني في المعدة كالأحماض الدهنية التي نمتص في الأمعاء دون أن نفقد تأثيراتها الحيوية في الجسم - كما هو شائع في أقراص منع الحمل للنساء - وبلا شك قد يهرب جزء من هذه الهرمونات الموجودة في لحوم الحيوانات وبعض النباتات ومستحضراتها دون أن تتحلل في المعدة إلى الأمعاء، وتظهر تأثيراتها في جسم الإنسان، وتختلف شدة حدوث ذلك حسب الكمية الممتصة منها في الأمعاء عن طريق الدم.

ويربط بعض العلماء وجود الإستروجينات النباتية في العلائق الغذائية المحتوية على بذور فول الصويا وغيره لحيوانات التجارب، مع حدوث حالة عدم الخصوبة (العقم الجنسي في الذكور منها)، وحدوث إصابة مرضية بالكبد في بعض أنواعها، وقد يكون لها تأثيرات في تركيز بعض الهرمونات في أجسام الإناث قبل سن البلوغ كهرمون ملوتن luteinising Hormone والهرمون المنبه للجريب Follicle Stimulating Hormone وفي الدورة الشهرية للمرأة.

فعاليتها المسرطنة

أدى اكتشاف احتمال التأثيرات المسرطنة لحقن هرمون إستروجيني يسمى ثنائي إيثايل ستلبسترول D.E.S في الديوك الصغيرة Cockerels لزيادة وزنها وتسمينها إلى حظر جمهورية جنوب إفريقية استخدامه عام ١٩٥٤م في تربية الحيوانات بالمزارع، كما وافقت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية عام ١٩٥٨م على حظر استخدام هذا المركب في عمليات تسمين الحيوانات، ولاحظ العلماء أن حقن كميات كبيرة من الاستروجين في أجسام حيوانات التجارب يؤدي إلى حدوث تضخم نسيجي Hyperplasia ثم يتكون ورم خبيث في الغدد اللبنية والرحم والأنسجة الأخرى التي تنظمها الهرمونات، ويرتبط حدوث هذه التأثيرات الهرمونية بعوامل وراثية وأشياء أخرى، مثل وجود الفيروسات التي قد تشارك في تكوين الورم، ويمكن للهرمونات كالإستروجينات أن تؤدي دوراً يسمح أكثر من تشجيع عملية التسرطن في خلايا جسم الإنسان.

ويؤدي حقن كميات كبيرة من الإستروجين في أجسام حيوانات التجارب إلى حدوث تضخم نسيجي Hyperplasia، ثم ورم خبيث في أنسجتها المختلف، مثل الغدد اللبنية والرحم والأنسجة الأخرى التي تنظمها

دعوة ساخرة إلى استخدام لحوم الدجاج بدلاً من الأبقار، ولكن لا فرق!

الهرمونات، ويرتبط حدوث هذه التأثيرات بعوامل وراثية، وبعوامل أخرى، مثل وجود الفيروسات التي قد تشارك في حدوث الورم، ويمكن للهرمونات، مثل الإستروجينات أن تؤدي دوراً مجيزاً أكثر من مشجع لعملية التسرطن في الخلايا.

حظر استخدامها

تحظر القوانين الصحية في الكثير من دول العالم ومنها المملكة العربية السعودية، استيراد لحوم الحيوانات كالأغنام والعجول التي استخدمت الهرمونات في تسمينها، ويتفق رأي معظم الناس على عدم قبول وجود مثل هذه الهرمونات في طعامهم، لذا يعارض، الكثير من الدول الأوربية وغيرها استعمال الهرمونات في تسمين الحيوانات ووجودها في اللحوم التي تستهلك فيها، وكذلك استخدامها لزيادة إفراز اللبن من ضروع الأبقار الحلوب.



التأثيرات المسرطنة للهرمونات أدت إلى حظر استخدامها في كثير من الدول

رأي مؤيد لاستخدام الهرمونات!

يعتقد المدافعون عن استخدام الهرمونات في تربية الماشية أن حظر استخدام الإستروجينات في تسمين الأبقار غير منطقي في حقيقته، لوجود هذه المركبات بشكل طبيعي بنسب متباينة في بذور فول الصويا، وبعض النباتات الأخرى، كما تفرز هذه الهرمونات طبيعياً في جسم المرأة، كما تكون الجرعات المستعملة منها في حبوب منع الحمل المحتوية على هرمون بروجيستيرون وحده أو مع الإستروجين أكبر بكثير من المأخوذ في الطعام، وظهرت تحديات ضد الحظر المفروض على استعمال الهرمونات كمواد مضافة إلى الأغذية، وهي ممنوع استخدامها قانوناً في الكثير من دول العالم، وتحتوي بعض النباتات، مثل بذور فول الصويا على مركبات الإستروجينات بكميات صغيرة جداً لا تسبب حدوث تفاعلات سيئة جانبية في جسم الإنسان عند استهلاكه الأغذية المحضَّرة منها، وقد توجد كميات أكبر من هذه المركبات في لحوم الحيوانات التي أعطيت جرعات كبيرة منها لتشجيع نموها أو في علاجها، ويسمح القليل من دول العالم باستخدام الهرمونات في تسمين الحيوانات، وهناك ضرورة فحص السلطات الصحية في الموانئ البحرية والمطارات لحوم الحيوانات المستوردة، كالأبقار والأغنام لرفض المحتوية منها على الهرمونات المستخدمة في عمليات تسمينها لتجنب أضرارها على صحة مستهلكيها.

المراجع

1-Adlercreutz, H ,et al (1995).
Lignan and Isoflavonoid conjugates in human urine. J. Steroid Biochem., 52:,97
2- Anon (1995).
Male reproductive health and environmental oestrogen. Editorial.
The Lancet, 345:, April, 15,933.
3- Anon (1973)
Toxicants Occurring Naturally in Foods. National Academy of Sciences, P. Washington, D.C., U.S.A
4- Bourne, G.H. (1973)
World Review Of Nutrition and Dietetics. Vol.16.
Food, Nutrition and Health. S.Karger, London, England.
5- Henderson, B.B., et al. (1976).
Urogenital tract abnormalities in sons of women treated with diethylstilbestrol. paediatrics. 58:, 505.
6- Murkies, A.L. and Wilcox, G. (1999)
Ageneral Practitioner guide to phytoestrogen. Modern Medicine, S.A ed., 16, (2), 40

- مصادر الصور: الإنترنت.

قصة علم الكون بين عصور زاهية وقرون مضنية وحاضر حائر



يوسف بن عبدالرحمن الذكير
الرياض - السعودية

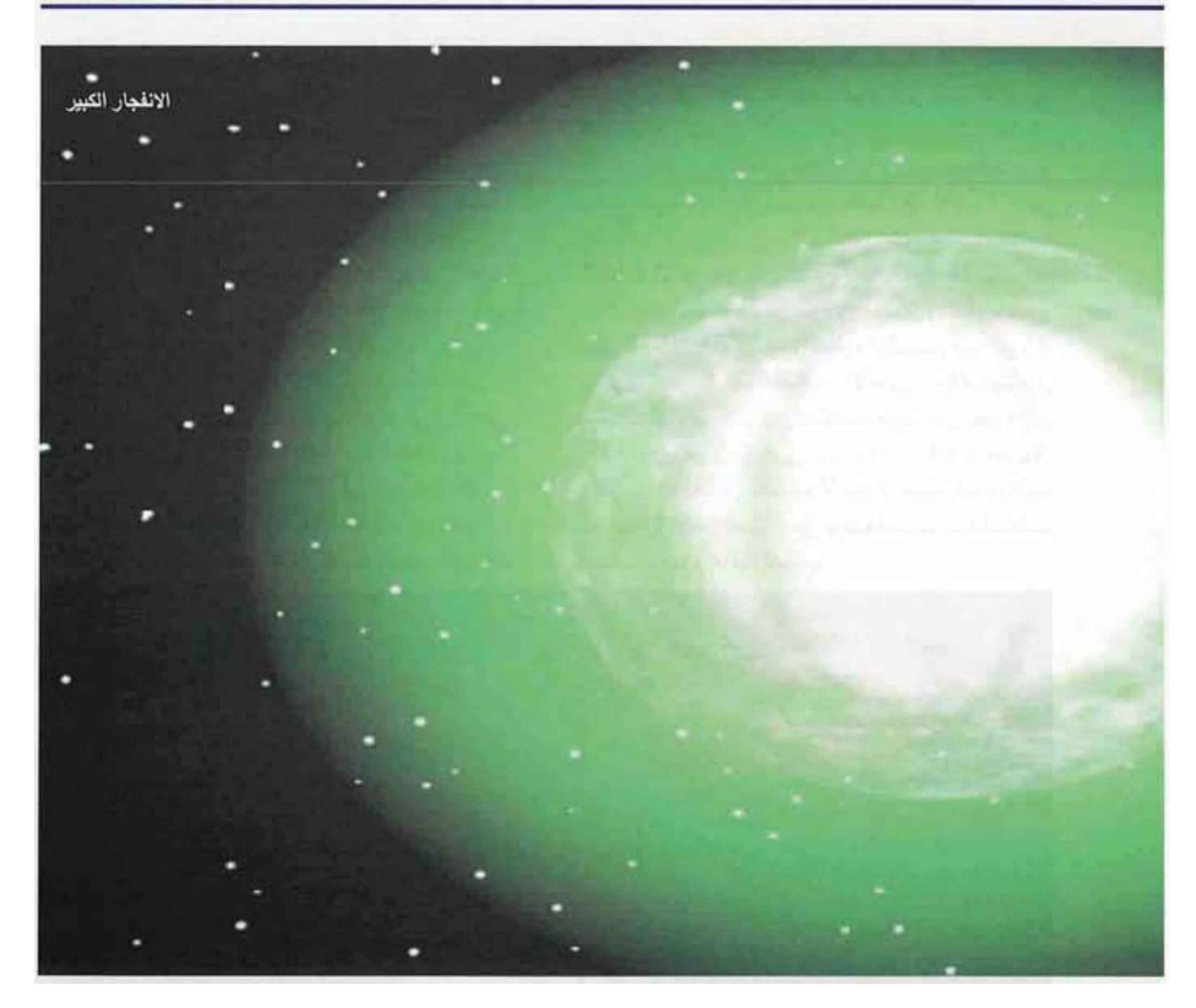
ما برح الكون وأسراره تأسر جنان الإنسان، مُذ سطر تاريخه في غابر الأزمان .. أقمار ونجوم وكواكب سلبت لبه.. وخواسف وكواسف حيَّرت عقله.. وشهب ونيازك شغلت فكره.. استلاب ألباب، بلغ من الإعجاب، أن تغنى الإنسان بها شعراً وفناً، فلا يكاد يخلو موروث أمة ما من تشبيه لحبيب كالشمس ضياءً، والقمر نوراً.. أو مُسمى لنجل، بسهيل وثريا، وبدور وشهاب.. ولا يكاد ينجو تراث شعب من تقديس لأجرام ونجم..

عشتار بابل للقمر رمزاً.. وآتون الفرعون إخناتون للشمس رباً.. بينما حبس الإغريق والرومان آلهتهم في أفلاك.. فالزهرة فينوس ربة الجمال، والمريخ مارس إله الحرب، والمشتري جيوبتر كبير الأرباب.. وهلمّ جراً!..

لكن الدور الأبقى والأهم كان ولا يزال، استفراد تلك الأجرام، المطلق والتام، بتنظيم الأيام وتقسيمها، وتحقيب الأعوام وتأريخها.. أيام، وبروج، وأعوام، ما كان لتحديدها أن يتم، لولا حركة النجوم والأجرام ومواقعها.

اليوم زمن طوله ثابت بثبات فترة اكتمال دورة الأرض حولها نفسها، والفصول، بروجٌ ثوابت، لظهور نجوم وأفول أخرى في مواقيتها.. الشهر هلال ومنازل، والتاريخ أرقام لأعوام، ما هي سوى فترات متكررة لدورة كاملة للأرض حول الشمس.. فضلاً ونعمة من الخالق سبحانه لتعلم مواقيت الأهلة، وعدد السنين والحساب.

العرب لم يشذوا عن بقية أمم الأرض، انبهاراً بأجرام الكون، وتوقاً إلى تعلم أسراره. انبهار وإعجاب ماثلا الأمم الأخرى، حين تقاسمت قبائل



العرب الكواكب والنجوم، فيما بينها، آلهة وأرباب .. كنانة وعاد عبدا القمر.. والشمس آلهة حمير، و«المشتري» كان لجذام ولخم، و«الشعرى» لقيس، و«الدبران» لميسم.. و«سهيل» لطيء، و«عطارد» لأسد.. حتى قريش قاسمت غطفان في تعظيمها للزهرة.. كان ذلك في زمانهم الغابر، أما في عصرهم الزاهر، فكان لهم شأن آخر.

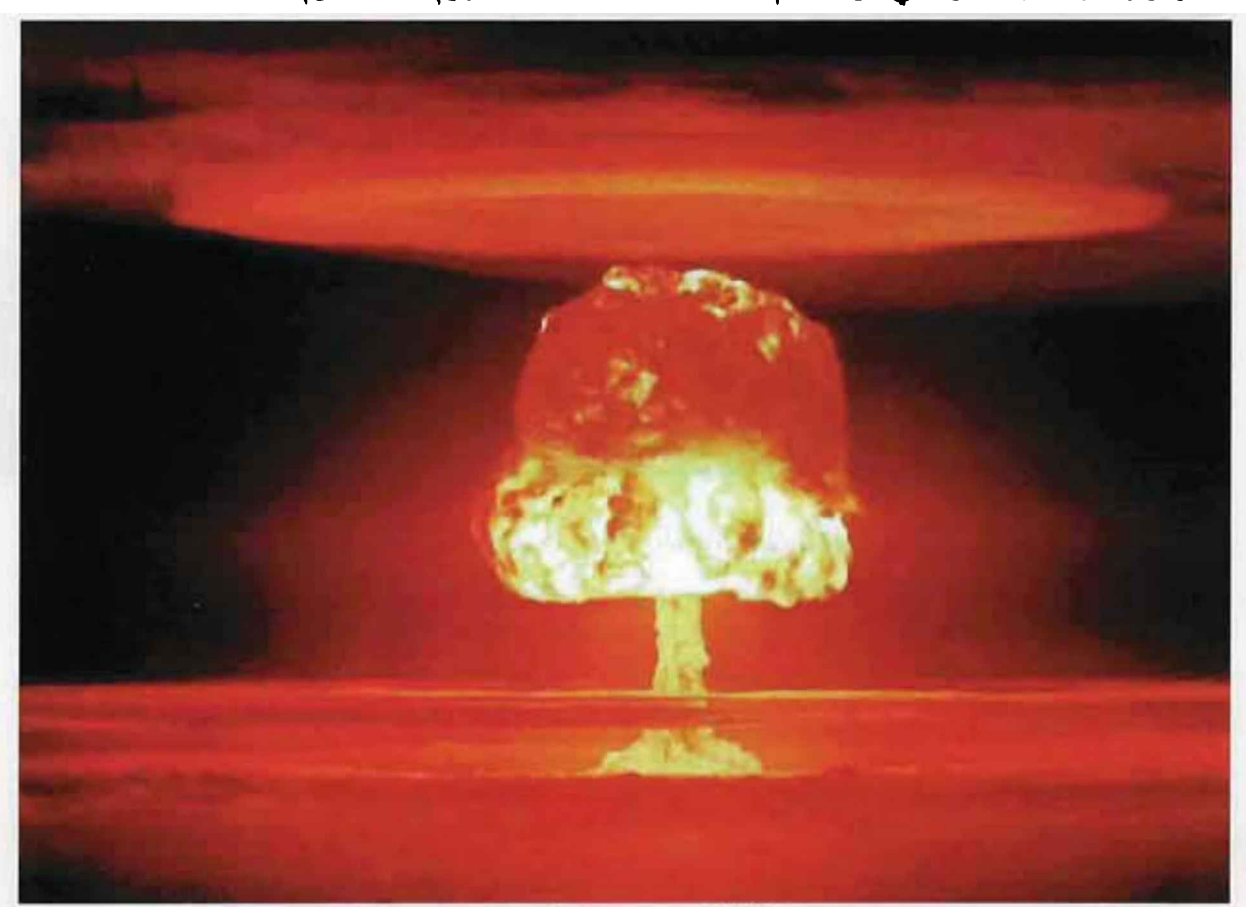
إن كان اهتمام العرب في قديم زمانهم لم يقتصر على تعظيم الأجرام، بل طال علم المواقع والأفلاك، كما ذكر البيروني في مؤلفه «الآثار الباقية على القرون الخالية» حينما كتب أن بني مارية بن كلب، وبني مرة بن همام بن شيبان كانوا أعلم العرب بتحركات النجوم. فإن زاهر عصورهم شهد لهم شأواً وعلو كعب، مازال الغرب، يذكره لهم ويعترف لهم بفضلهم.

فما إن حطم الإسلام عبادة الأصنام، وتقديس الأجرام، وكذّب التنجيم، حتى انحصر اهتمام العرب بالكون، أو كاد، على دراسة الأفلاك ومواقع النجوم، كعلم، قلّ أن شابَهُ السحر والتنجيم والخزعبلات.

رسوخ الإيمان في نفوس المسلمين برسالة الإسلام، لا يفصح عنه مدى تجذره وصلابته أمام كل ما هب على البشرية من أفكار وأيديولوجيات طوال ما يزيد على أربعة عشر قرناً أو حقيقة أنه أكثر الأديان انتشاراً واعتناقاً حتى اليوم.. بل كان بادياً جلياً منذ قرنه الأول.

لم يخش العرب مقولات غزو فكري، ولا هابوا أصوات اجتياح ثقافي تدعو إلى غلق الأبواب، فقد أدرك أوائل المسلمين العرب أن الإسلام نور يمقت الظلام، فالعلم مطلب المسلم، والحكمة ضالة المؤمن.. فتحوا النوافذ، وشرعوا الأبواب، فلم تمض برهة من عمر الزمان، إلا وحضارة الإسلام دوحة غناء، ارتوت فأينعت علوماً وعلماء، ما شذ عن فروعها علم الفلك.. تفرّد آخر، امتازت به الحضارة الإسلامية دون غيرها، ألا وهو ريادتها غير المسبوقة في عولمة العلم.. فسماحة

الأخرى، على عكس ما فعلته أديان أخرى، مثلما يشهد التاريخ، في مجازر القدس الصليبية، ومحاكم التفتيش الكاثوليكية الرهيبة في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا.. أو إبادة شعوب على بكرة أبيها، مثلما فعل الغزو الأوربي بقبائل الأمريكيتين باسم الدين. بل بلغت سماحة الإسلام ذراها حين لم تكتف بالحماية، وإنما أتاحت لهم ما أتاحت للمسلمين من فرص التفوق والتألق، فبرز منهم الشاعر والأديب، والعالم والطبيب. كما أنها لم تمنع أو تحرّم كتب الثقافات الأخرى ومؤلفاتها، بل سمحت لها، فترجمتها واستفادت منها، دون جنوح إلى ثقافة دون أخرى. لا فرق بين ثقافة شرقية أو غربية، فالكل سواء تعايش ثقافات، لا صدام حضارات، فكانت الحضارة الإسلامية بحق بوتقة، صهرت، فسكبت فسبكت مفهوم عالمية العلوم.



القنبلة الذرية من نتائج التطور في علم الفيزياء

عالمية علوم، كان لعلم الفلك منها نصيب وافر، وبروز زاه، وعطاء زاخر، مازال الغرب يعترف لهم به، حتى عصرنا الحاضر!.. كان بدءاً لانصهار، حينما أمر الحجاج بن يوسف الثقفي، في القرن الأول بترجمة كتاب «الأصول» لإقليدس، تبعه ترجمة مؤلف «بطليموس» الشهير، في علم الفلك.

ولم ينتصف القرن الثاني، حتى أمر المنصور الخليفة العباسي بترجمة «السدهانات». أو «مقالات الأفلاك»، التي عرفها العرب باسم «السند هند»، والتي كانت أكبر موسوعة هندية آنذاك، في الفلك والحساب والتنجيم، مؤسسين بذلك ما أسماه المسلمون بعد ذلك علم الهيئة «الفلك» الذي تفرع منه علم الأزياج «سير الكواكب» والتقاويم، مؤذناً ببزوغ عصور زاهية، أثمرت بذور كل ما شهد علم «الكون» في العالم من تقدم، حتى عصرنا الحاضر.

لعل من ألمع علوم الهيئة «الفلك» الإسلامية، وساماً، هما الشيخ الرئيس «ابن سينا»، الذي ألّف تسعة عشر كتاباً ورسالة في علم النجوم، وأبو الريحان البيروني الذي قال عنه المستشرق الألماني إدوارد ساخاو: إنه أعظم عقلية عرفتها العصور الوسطى(٣). فقد بلغت مؤلفاته، مئة وعشرين، لعل أهمها في علم الفلك، مؤلفه الجامع «القانون المسعودي». فلاعجب، إن احتُفل بالذكرى الألفية لمولده عام (١٩٧٣م)، بقرار من منظمة اليونسكو.

سكب السبائك الإسلامية في علم الفلك، ما اقتصر على المؤلفات النظرية، بل وانحسر فغمر العلوم التطبيقية. الأسطرلاب ودوره في الملاحة، والمراصد التي كان من أشهرها «مرصد مراغة» في شمال غرب إيران.. صومعة فلكية أنجبت علماء أفذاذاً، كان لهم الفضل الأكبر، لا على علم الفلك فحسب بل على انطلاقة الشرارة الأولى للعلم الغربي الحديث بمجمله!.. **فمما لا يختلف عليه جل علماء الغرب، أن العلم الحديث في أوربا، انطلاقته كانت نظرية «نيقولا كوبرنيكوس»** في علم الفلك.. نظرية قلبت مفاهيم الكون رأساً على عقب، حين ألغت نظرية «بطليموس» بمركزية الأرض، ونصت على أن الشمس لا تدور **حول الأرض، بل العكس، الشمس هي المركز،**



بطليموس

والأرض هي مجرد كوكب، ضمن عدة كواكب، تدور حول الشمس، وأن الليل والنهار سببهما دوران الأرض حول نفسها، لا دوران الشمس حول الأرض.. زلزال هز، فهدّ معتقدات راسخة، فلا عجب إن كفرتها عقول متحجرة من رجال الكنائس، بل رفضتها حتى العقول النيرة في أوربا. ولكن ذلك الزلزال، ما كان ليحدث لولا تموجات وارتجاجات مصدرها العلماء المسلمون، بل كان مركزه «مرصد مراغة» بالذات.

مؤسس المرصد ورائده، الفلكي المسلم نصر الدين الطوسي، كان أول من شكك، في صحة نظرية «بطليموس»، باعتراف أعرق الجامعات الأوربية (٤). بل إن أقرانه وتلاميذه من أمثال «الأزدي»، و«الشيرازي» توصلوا إلى ابتكار أول نظام فلكي غير **بطلمي في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين. أما** أهمهم جميعاً والذي كان بمنزلة، صلة الوصل بين «مرصد مراغة» ونظرية «كوبرنيكوس»، فكان تلميذه النابغة ابن الشاطر، في القرن الرابع عشر، الذي أسهب في فضله وأطنب، المؤرخ العلمي توبي هاف في كتابه عن بزوغ العلم الحديث (٥).

إن كان في ذلك نبذة من ماضي الحضارة الإسلامية المخفي، ودورها المؤسس في بعث العلم الحديث، بصفة عامة، في الغرب، فإن ذلك الدور كان قاعدة الأساس، لانطلاقة علوم الفلك والفضاء، واستكشاف أجرام في الكون المرئي ومجراته، وما يجري من تضارب آراء، واحتدام جدال مستعر في وقتنا الحاضر، عن الكون اللامرئي..ولكن قبل أن ينمو ويزدهر، كان له مخاض أليم عسر..

قرونه المضنية

لم يكن الخروج من كهوف التفكير في ثبات الأرض ودوران الشمس، وانحصار العلم على طبيعة كواكبها ومدارها، إلى مروج الكون الشاسع، بالأمر اليسير. فقد تردد كوبرينكوس، طوال ست وثلاثين سنة، منذ أن اقتنع في عام ١٥٠٧م أن بطليموس كان على خطأ، حتى نشر كتابه المتضمن نظريته «دوران الكرات السماوية» عام (١٥٤٣م)، الذي لم يأذن بنشره إلا وهو على فراش الموت في ذلك العام!.. لم يكن مخطئاً في تردده، على الرغم من صواب نظريته، فما إن نشر، حتى أكفره بابا الفاتيكان، ولاحقت محاكم التفتيش مؤيديه، وصادرت وأحرقت كتبه!. بل عارضه، من يُعدُّ حتى الآن، الأب الشرعي، لحركة العلم الحديث، الفيلسوف الإنجليزي الشهير فرانسيس بيكون، وجاراه في ذلك الفلكي الدانماركي الأشهر آنذاك تيخو براهة! وكانت من أقوى حجج معارضيه، أن: الجسم الساقط من نقطة مرتفعة، يجب أن يقع على نقطة غرب نقطة انطلاقه العمودية، إن كانت الأرض فعلاً تدور؟!.. حجة ما كان بالإمكان دحضها ضمن إمكانات ذلك الزمان، فكادت نظريته تغرق في بحر النسيان.. لولا اثنان، تأخر قدومهما إلى حين..

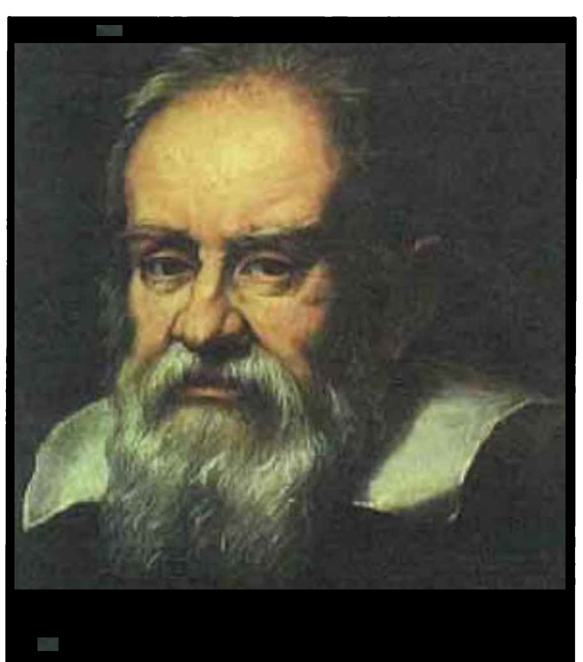
مضى ما يقرب من قرن من الزمان، قبل أن تصحو تلك النظرية من رقادها على يد اثنين، هما الألماني يوهانس كبلر، والإيطالي جاليلي جاليليو، كلاهما نال ما نال، من التعسف والامتهان! كبلر، الذي هو الآخر، نهل من ينابيع علوم الفلك الإسلامية، حسبما ذكر أحد أبرز العلماء المعاصرين، ومستشار وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا»، في كتابه الذائع الصيت «الكون» (٦). فقد سُجنت والدته، وعذبت وهي في الرابعة والسبعين من عمرها، بعدما نشر كبلر كتابيه «تناغم العالم» و«الفلك الجديد»، المتضمن قوانينه الشهيرة الثلاثة عن مدارات الكواكب حول الشمس، فاتخذ الأول منها حجة على هرطقة والدته وكفرها (٧).

أما جاليليو، أول من اخترع وصنع المقراب «التلسكوب» عام ١٦١٠م، فقد آمن بنظرية «كوبرنيكوس»، بعدما رأى بأم عينه أقمار المشتري تدور حوله، فثبت له وجود أجرام لا تدور حول الأرض، فمع صداقته الشخصية للبابا، وعطفه عليه، إلا أنها لم تحل دون محاكمته أمام محاكم التفتيش الكاثوليكية، وانتزاع قرار علني منه بأن الأرض ثابتة لا تدور، والتي قيل: إنه خرج من المحكمة وهو يتمتم «ولكنها تدور!..» فحكم عليه بالإقامة الجبرية، ومنع من الاتصال بالناس، وصودرت مؤلفاته (... إلا أن ذلك الحكم يُعدُّ رحيماً، إذا ما وزن بما لقيه أحد أشهر ضحايا علم الكون جوردانو برونو الذي حكمت عليه محاكم التفتيش بالحرق حياً لمجرد جهره بأن في الكون نجوماً أخرى، كالشمس، تدور حولها كواكب، فأحرق علناً أمام الناس في إحدى قرى إيطاليا عام ١٦٠٠م، حيث ينتصب له اليوم نصب بالحجم الطبيعي في ذات

قاس هابل المسافات السحيقة للمجرات القصوى

الميدان الذي أحرق فيه.. فهل من إثبات أوضح من ذلك، في أن الأرض تدور؟!.

إزاء تلك الأحداث، لا تملك عين محايدة تستعرض التاريخ، سوى النظر بإكبار نحو عقيدة الإسلام السمحة، موازنة ببقية الأديان، فشتان ما بين ترعرع العلم في عصر المسلمين الزاهي، وما شهدته أوربا من مخاض له، عنيف دام!.. إلا أن، ما خفف بعض آلام ذلك المخاض القاسي، الذي امتد زهاء القرنين، هو ولادة أحد أبرز العقول البشرية، وأعمقها أثرًا في فهم علوم الكون وتفسيرها. ذلك هو العالم الإنجليزي الفذ إسحاق نيوتن. فهو لم يستنبط قوانين «التفاضل والتكامل» في الرياضيات، ويكشف عن أطياف الضوء السبعة وحسب، بل يعدّ بلا منازع واضع أسس الفيزياء العلمية الحديثة، من خلال مؤلفه العظيم «الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية»، الذي ضمّنه قوانين الحركة الشهيرة.. قوانين كان من أهمها وأشدها تأثيرًا في تطور علوم الأجرام، والفضاء والكون، هو قانون الجاذبية.. فقد فسر ذلك القانون حركة الكواكب الدائرية حول النجوم. فحركتها الدائرية في مدارات ثابتة، ما هي إلا بتأثير قوة خفية، تزداد شدة كلما قربت المسافات ما بين الأجرام، وكبرت كتلها، وتقل حده كلما ابتعدت تلك الأجرام بعضها عن بعض، وقلت كميات كتلها. عمق تأثير تلك النظرية في علم الفلك، يتضح مداه، في أنها شكلت نقلة نوعية من دراسة الأجرام السماوية، إلى دراسة قوى الكون الخفية، ومكوناته غير المرئية، فيما عرف فيما بعد بعلم الفيزياء الفلكية Astrophysics، بل غير علم الفلك من مسماه القديم أسترولوجيا Astrology، التي يميل معناها إلى التنجيم، إلى علم الكون (كوزمولوجيا) Cosmology الشامل لكل ما في الكون من مليارات المجرات وما تحتويه من بلايين النجوم والكواكب والأقمار، وما بينها من سديم وغبار.. إلا أن ذلك الكون كان من الاتساع، أشبه ما يكون بمتاهة عملاقة مكتظة بدهاليز من الألغاز.. كلما مضى العلماء في دهليز منه، أمضى بهم إلى دهاليز!..

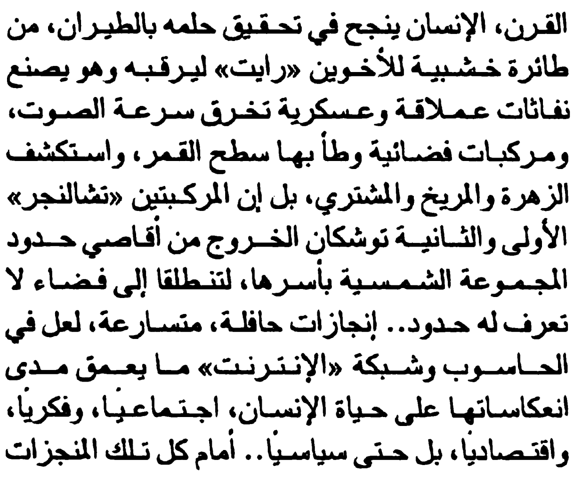


جاليليو أول من صنع المقراب (التليسكوب)

الحاضر الحائر

إن كان القرن المنصرم هو الأكثر في تاريخ البشرية إخصابًا للعلوم وإنجابًا للتقنية، فإنه قد خلف بعد رحيله، فيما يخص علم الكون، أسئلة محيرة، أكثر مما أجاب.

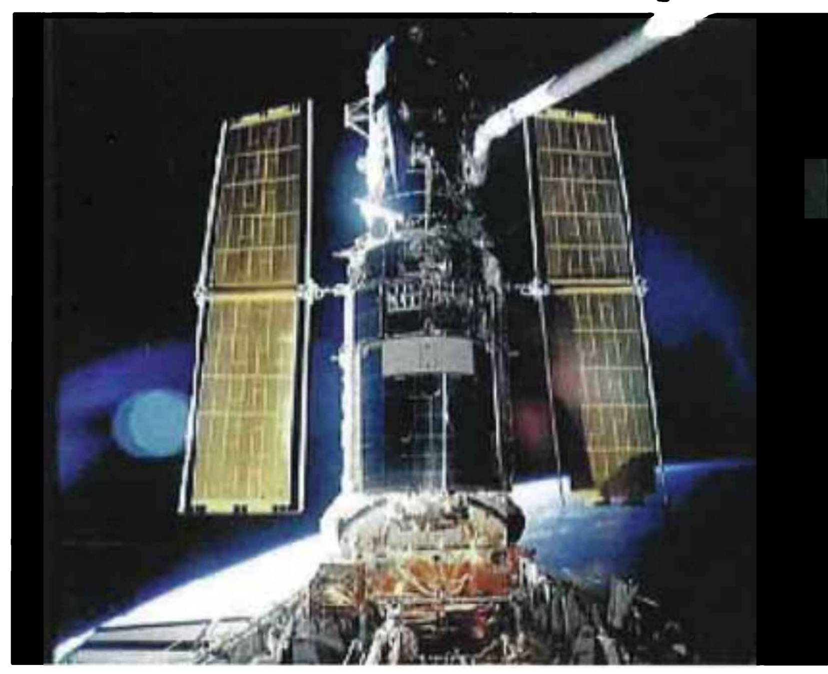
فإن كان يحق لبعض القرون تقلد اسم خاص بها، فإن القرن العشرين يستحق دون أدنى شك، أو برهة من تردد، لقب «قرن الفيزياء». فقد شهد إنجازات مذهلة لا تخطر ببال، أو حتى بخيال من عاش قرن سبقه.. قفزات عملاقة في طريق الاتصالات، من نقرات التلغراف في بدايته، ليسمع بالصوت ويرى بالصورة الملونة أحداثًا تدور في أقصى الأرض من أدناها.. ورأى ذلك القرن، الإنسان ينجح في تحقيق حلمه بالطيران، من طائرة خشبية للأخوين «رايت» ليرقبه وهو يصنع نفاثات عملاقة وعسكرية تخرق سرعة الصوت، ومركبات فضائية وطأ بها سطح القمر، واستكشف الزهرة والمريخ والمشتري، بل إن المركبتين «تشالنجر» الأولى والثانية توشكان الخروج من أقاصي حدود المجموعة الشمسية بأسرها، لتنطلقا إلى فضاء لا تعرف له حدود.. إنجازات حافلة، متسارعة، لعل في الحاسوب وشبكة «الإنترنت» ما يعمق مدى انعكاساتها على حياة الإنسان، اجتماعيًا، وفكريًا، واقتصاديًا، بل حتى سياسيًا.. أمام كل تلك المنجزات



المذهلة، التي ما هي سوى نتاج لعلم «الفيزياء»، قد يصعب على المرء تصور عجز ذلك العلم عن استيعاب أسرار الكون وفهمها.. ولكن الحقيقة الجليلة، بل المعبرة عن مدى ضآلة الإنسان، على الرغم من انبهاره بمنجزاته، تدل أن علمه، بل حتى إدراكه وفهمه، تقف عاجزة، متحيرة، أمام عظمة الكون وأسراره.. برهان ذلك وقرينته، استعراض موجز، لما شهدته علوم فيزياء الكون، منذ بداية القرن، حتى نهايته.

شهدت بداية القرن نظريتين عدّتا بمنزلة انقلاب تام على قوانين «نيوتن»، التي هيمنت على علم الفيزياء منذ أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر.. أولاهما نظرية الكمومية (الكم) لماكس بلانك المتعلقة بالفيزياء الذرية وجسيمات الذرة. والثانية النظرية النسبية (بشقيها الخاص، والعام)، لمن عدّه المهتمون بالعلم في نهاية القرن، رجل القرن بلا منازع. ذلك هو العبقري الفذ ألبرت أينشتاين الذي عدت نظريته هي الأهم، لكون الحديث يدور حول أثر الفيزياء في علوم الكون وفك شفراته.

قلبت تلك النظرية قوانين نيوتن رأساً على عقب، فقد نصت على أن الأجسام تنكمش كلما ازدادت سرعتها بينما كتلتها (وليس وزنها المرتبط بجاذبية الأرض، إن قيس عليها)، تتضاعف بازدياد سرعتها حتى تصل إلى السرعة القصوى، وهي سرعة الضوء (التي لا يمكن تخطيها)؛ لأنها حينذاك تنكمش حجماً إلى الصفر، بينما تزداد كتلتها إلى أن تصبح لا نهائية.. تلك القوانين ضئيلة الوضوح في حالة أجسام كبيرة تسير بسرعة بطيئة نسبياً، حتى إن صاروخاً بطول مئة متر ينطلق بسرعة (٤٠) ألف كم/ساعة، لا ينكمش طوله سوى بمقدار ١٪ من المليمتر (٨)، لكن تلك القوانين واضحة التأثير في الجسيمات الدقيقة، فقد ثبتت صحتها حين، استطاع معهد التكنولوجيا في كاليفورنيا عام ١٩٥٢م تسريع إلكترون وصل به إلى سرعة، لا تقل عن سرعة الضوء إلا بعُشر ميل في الثانية فقط، فزادت كتلة الإلكترون نحو (٩٠٠) ضعفاً (٩).. ثالث القوانين يبدو وكأنه يناقض الثابت الوحيد الذي بنيت عليه النظرية النسبية ذاتها.. فمن المعروف أن السرعة النسبية للأجسام، تطرح حين يسيران في اتجاه واحد، وتجمع حين يسيران في اتجاهين متعاكسين، ولعل أقرب مثال، هو تفاوت شدة الصدمة بين سيارتين تسيران في اتجاه واحد، وقوتها في حالة اصطدامهما وجهاً لوجه. فإذا ما فرض أن جسمين يسيران باتجاهين متعاكسين سرعة كل منهما ثلاثة



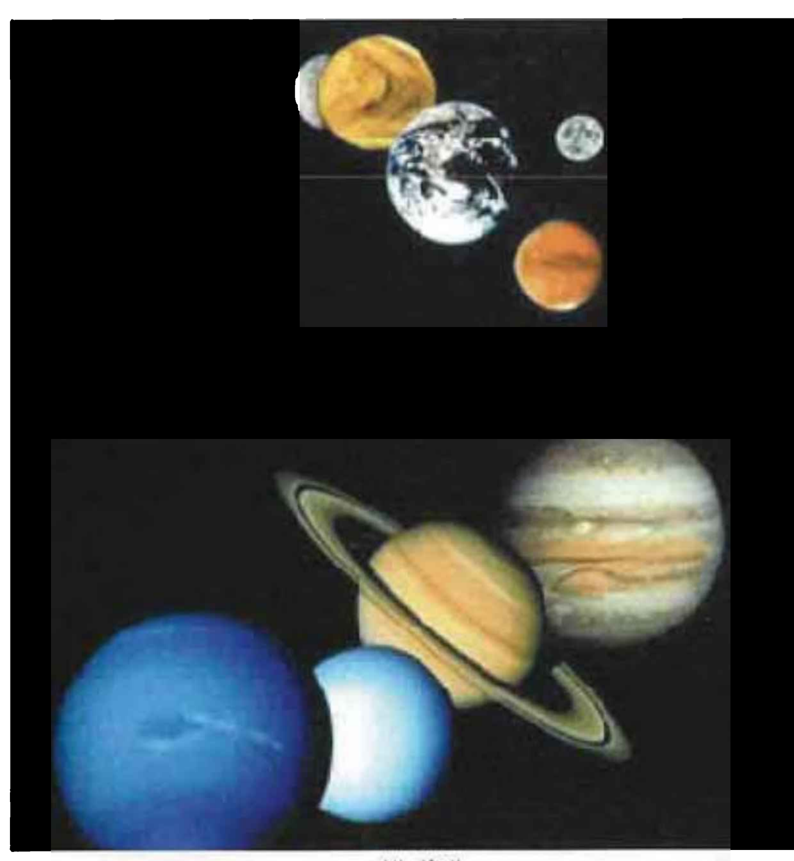
التليسكوب هالي

أرباع سرعة الضوء، فإن سرعتهما النسبية بعضهما لبعض ستكون مجموع السرعتين، وهو مرة ونصف سرعة الضوء!.. وهو ما يتناقض حتمياً مع الفرضية الأساسية، بأن سرعة الضوء مستحيل تخطيها.

ما قلب قوانين نيوتن، كان قانون النسبية الرابع الذي أوجد العلاقة بين الطاقة والكتلة بأن الأولى (الطاقة) تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء، بينما كانت قوانين نيوتن تنص على أن الطاقة والكتلة منفصلتان وكلتاهما، لا تفنى ولا تستحدث، وإنما

تتغيران من حال إلى حال! ذلك القانون الذي نص على أن طاقة هائلة تتولد من كتلة صغيرة (فالطاقة الناجمة تساوي حاصل ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء البالغة ٣٠٠ ألف كم/ الثانية) أساس اختراع القنابل الذرية الهائلة التدمير، ومحطات الطاقة والغواصات الذرية.

أما القانون الأخير، فهو الخاص بالبعد الرابع، بعد أن كانت كل القياسات متعلقة بأبعاد المكان من طول وارتفاع وعرض، فأتى أينشتاين ليضيف الزمن!.. فالزمن أيضاً يتأثر بالسرعة، فهو يتباطأ كلما زادت سرعة الجسم، وقد ثبت صحة هذا الفرض، حين تباطأت ساعة في منتهى الدقة على متن طائرة فائقة السرعة عن مثيلتها على الأرض (١٠)، ولكن الأرض ذاتها ليست ثابتة، بل هي منطلقة في مدارها حول الشمس، بكل ما عليها من حجر وبشر، بسرعة (٣٠) كم في الثانية، أو ما يعادل (١٠٨٠٠٠) كم في الساعة، دون أن نشعر بحركتها، لثبات سرعتها، تماماً مثلما لا يشعر راكب الطائرة بحركتها، وهي تحلق بسرعتها الفائقة! لذا فإن كل القياسات نسبية، وليست مطلقة.. لكن كل تلك العبقرية والشهرة، لم تحل دون ارتكابه هفوة كبرى.. فمع أن نظريته النسبية العامة، تنبأت بأن الكون ليس ساكناً، بل هو في حالة توسع، إلا أن طبيعته البشرية المماثلة لكل البشر، في تمسكهم بما شبوا واعتادوه ثوابت متوارثة، حتى إن فنّدتها حقائق مستجدة، كانت هي الغالبة، حين رفض تصديق ما تقول نظريته، فأضاف ثابتاً من عنده لمعادلاته، كي تستقيم مع معتقداته السائدة آنذاك بين العامة والعلماء، على حد سواء، بأن الكون ثابت لا يتغير، فكانت تلك كبوته العظمى، كما اعترف لاحقاً بنفسه حينما أثبت عالم فلكي شاب أن الكون في توسع مستمر.



النظام الشمسي

كان ذلك الشاب هو إدوين هابل الذي أطلق اسمه على أول مسبار (تليسكوب) أرسل إلى الفضاء الخارجي في مدار حول الأرض قبل بضع سنوات. شاب أمريكي، اجتماعي، محب للحياة، عاشق للحفلات، يتكلم بلكنة إنجليزية التقطها من خلال دراسته في جامعة أوكسفورد الإنجليزية الشهيرة. ولكن الأقدار ساقته ليعمل في مرصد «ماونت ويلسون» على قمة جبل ويلسون المطل على سماء «لوس أنجلوس» الصافية آنذاك.. كان ذلك المرصد أكبر مرصد في العالم في حينه، فما كان بالإمكان نقل عدساته ومعداته الميكانيكية، إلا مفككة على ظهور البغال. فمن خلال العدسات الضخمة لذلك المرصد المتطور، عمل «هابل» على قياس المسافات السحيقة للمجرات القصوى (باستخدام تقنية انزياح الطيف الأحمر للضوء).

ولكنه لاحظ لدهشته بعد قياسات متكررة للمجرات

ذاتها، أنها تبتعد بمرور الوقت، بل كلما بعدت مسافات المجرات، كانت سرعة ابتعادها أكثر عن تلك الأقرب إلى الأرض.. فأعلن عام ١٩٢٩م، ببرهان لا يقبل الجدل أو الطعن أن الكون ليس ثابتًا، وإنما في توسع دائم.. ولكن ذلك الإثبات، قاد إلى لغز آخر.. فإن كان الكون في توسع، فلابد أنه كان في الماضي أصغر مما هو عليه الآن، وصولاً إلى زمن لم يكن فيه الكون، بكل ما يحويه من مجرات وسديم، سوى نقطة واحدة!. ذلك ما قاد إلى نظرية الانفجار الكبير Big Bang، نظرية هلل لها العلماء والإعلام وكبّر! ولكن إلى حين.. فبعدما احتسب الزمن، منذ ذلك الانفجار حتى وقتنا


كوكب فينوس

الحاضر، كان ما بين (١٢ - ١٥) بليون سنة، اكتشفت مجرات ونجوم عملاقة يزيد عمرها على ذلك التاريخ.. فكيف يكون الوليد أكبر سنًا من والدته؟.. ومازال ذلك الدهليز يقود إلى دهاليز يجوبها علماء الفضاء والفيزياء، دون التوصل إلى جواب حاسم.. ولكن ذلك لم يكن سوى لغز آخر، لا أخير، فقد تبعته ألغاز أخرى.

ما كادت عشر سنوات تمر، حتى برز لغز جديد.. ففي عام ١٩٣٩م، كشف عالم الفيزياء روبرت أوبنهايمر بأن النجوم (الشموس)، التي تزيد كتلتها على ضعف كتلة شمسنا، ما إن تستنفد وقودها النووي، الذي كان بما يبثه من طاقة، هو المقاوم لجاذبية كتلتها الضخمة، حتى تنهار، تحت شدة تلك الجاذبية الذاتية، إلى حد الانحساف لحجم بالغ الصغر، ذي كثافة هائلة.. شيء من الخيال قد يقرب ما ينجم عن تلك الجاذبية من صورة قد تفوق حتى الخيال.. فإن أمكن تصور عاصمة، كالرياض، أو صنعاء، أو حتى القاهرة بملايينها العشرة تنسحق حجمًا إلى ما لايزيد على رأس دبوس.. بل الكرة الأرضية بكل ما عليها تنكمش، فتنضغط إلى ما لايزيد على حجم علبة ثقاب، فقد أوشك الخيال أن يصل إلى ما هو مقصود! فما يصل وزنه إلى مليار طن من ذلك النجم المنسحق، لن يزيد قطره على جزء من الترليون من المليمتر (١١).. كثافة رهيبة ينجم عنها جاذبية هائلة، لا يستطيع الفكاك منها، حتى الضوء.. فلا عجب إن أطلق عليها مسمى «الثقوب السوداء» Black Holes.

ولكن ذلك الاكتشاف تزامن مع قيام الحرب العالمية الثانية، فاستُدعي الفيزيائي أوبنهايمر لينضم إلى فريق تجارب صنع القنبلة الذرية، فلم يجذب انتباه العلماء، حتى الستينيات، حين أطلق على تلك الظاهرة المحيرة، عالم الفيزياء الأمريكي جون ويلر عام ١٩٦٧م، ذلك المسمى الجذاب، لا لمخيلة الصحافة والعامة، بل حتى لأبحاث العلماء. ولكن تلك الأبحاث زادت الطين بلة، إذ هي لم تعصف بثوابت، ما دام عدّ تخطيها من المستحيل، بل فتحت الأبواب لمزيد من الألغاز! «ستيفن هوكنج»، يعدّه الكثيرون إسطورة العصر.. إذ لم تكتب له الحياة، بعدما أصيب، وهو شاب بمرض شللي عضال، لا علاج له، أو شفاء منه، توقع له الأطباء ألا يعيش أكثر من بضع سنوات، فمد الله له في عمره بعد ذلك لما يقرب من أربعين عامًا، إلى الآن.. تزوج خلالها مرتين، وأنجب طفلين، ولله في

خلقه شؤون.. وقد عوضه الله سبحانه وتعالى عن عاهته بنبوغ فذ لم يتربع معه على كرسي إسحاق نيوتن في الرياضيات، أو يؤلف كتاباً عن الكون (١٢)، حطم أرقام المبيعات، فدخل سجل (جينيس) للأرقام القياسية، بعد ما فاقت مبيعاته حول العالم عشرة ملايين نسخة، مازال مطلوباً.. بل لكونه حتى اليوم يعدّ من أكثر العلماء عبقرية في علوم الفضاء والفيزياء الفلكية.

ذلك العالم الفذ انكب على تلك الظاهرة المحيرة، ليخرج بعد دراسة استغرقت بضع سنوات (من عام ١٩٧٠ ـ حتى ١٩٧٤م)، بنتيجة أدهشته، وأثارت ضجة ما بعدها ضجة، حين رفضها معظم زملائه العلماء، ليعودوا بعدها مقرين بصحة نتائجه، معترفين بخطئهم.

كانت النتيجة التي توصل إليها هي أن «الثقوب السوداء» ليست تامة السواد، فهي تنفث سيلاً من الإشعاعات والجسيمات من قطبيها.. ولكن كيف يتسنى لها الإفلات من تلك الجاذبية، إن كان الضوء بسرعته التي لا يمكن تخطيها لا يتمكن من الإفلات؟ فكان جوابه، كما سطره في كتابه اللاحق «الثقوب السوداء والأكوان الوليدة»، أن تلك الإشعاعات والجسيمات تكون سرعتها أسرع من الضوء (١٣).. فكان ذلك السبب الأساسي في رفض العلماء الآخرين، لكونه ينسف ما جاء في النظرية النسبية المبنية على استحالة تخطي سرعة الضوء، والتي تعدّ قاعدة الانطلاق لمعظم ما بُني عليها من نظريات في فيزياء الفضاء.

أما حين سئل عن مصير المادة التي يلتهمها ذلك الثقب الأسود الجبار، والمتزايدة على مر الزمان، فقد أجاب في مقابلة أجرتها معه محطة البي بي سي، في برنامج علمي في عام ١٩٩٢م، بقوله بكل صراحة وحيرة وإقرار: «لا أحد يدري»، وكأن تلك الحيرة لا تكفي، فقد اكتشف العلماء أن كل ما في الكون من مجرات وسديم وأجرام، بكل ما تحتويه من مواد وكتل بلايين النجوم والكواكب والأقمار، لا تكفي جاذبيتها، لما عليه الكون من استقرار.. بل إن مجموع كتلها لا يشكل سوى ما بين (١ ـ ١٠) بالمئة من الكتل المطلوبة علمياً وحسابياً، فافترضوا وجود مادة مظلمة، لا مرئية، تشكل ما بين (٩٠ ـ ٩٩) بالمئة من مكونات الكون.. أما خواصها وكنهها، فلا تزال لغزاً يحير القوم!..

بل إن القرن المنصرم أبى أن يودع علماء البشر، دون لغز يقصم الظهر! فقد اكتشف العلماء مؤخراً أن الكون لا يتوسع فحسب، بل إن توسعه يتسارع مما يتطلب قوة طاقة جبارة، وهو ليس ما يتناقض مع كل ما سبق عن أصل الفضاء وتناقص قوة انفجاره الأولى، بل يطرح لغزاً عن مصدر تلك القوة الجبارة.. مازالت الأجوبة حائرة متضاربة، ففي عدد من مجلة علمية أمريكية مرموقة (١٤)، نُشرت ٣ مقالات، لكبار العلماء، كل منها يختلف مع الآخر في التفسير!.. حيرة ما بعدها حيرة، أمام ألغاز لا يعلم سرّها سوى خالقها، فسبحان من صوّر ودبّر وقدّر!!..

المراجع

١. «الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام»: د. ميخائيل مسعود. ص١١١، الفصل الرابع.

٢. «الآثار الباقية على القرون الخالية»: لأبي الريحان البيروني، ص٣٤١.

٣. «فلسفة العلم في القرن العشرين: تأليف د. يمنى طريف الخولي، ص٥٠.

٤. «العالم الإسلامي ـ تاريخ كيمبريدج الموضح» ـ الصادر عن جامعة كيمبريدج البريطانية ج٢/ص ٢٢٨ ـ الفصل السابع (ISLAMIC WORLD - CAMBRIDGEI LLustrated History) Page (228) - Chapter(7) - Part (2).

٥. «بزوغ بواكير العلم الحديث» ـ تأليف: توبي. إي. هاف، ص٢٣٧، (The Rise Of Early Modern Science Page 237. By T.E.Huff).

٦. «الكون»: تأليف كارل ساجان، ص٤١، الفصل الثالث Casmos - Page (41) - Chapter III. By: Carl Sagan

٧. المرجع السابق ص٥٤.

٨. «فلسفة العلم في القرن العشرين»، تأليف د. يمنى طريف الخولي، ص٢٠١.

٩. «الكون الأحدب: قصة النظرية النسبية» تأليف د. عبدالحميد بدر، ص١١٩.

١٠. «الكون» تأليف: كارل ساجان، ص١٦٩، Cosmos by: Carl Sagan.

١١. «الثقوب السوداء والأكوان الوليدة: تأليف ستيفن هوكنغ، ص٩٤ Stephen Haw King

١٢. كتاب «تاريخ موجز الزمان» .Stephen H.

١٣. الكتاب المشار إليه في الحاشية (١١)، ص٧٣.

١٤. مجلة Pages (27 - 47) of Scientific American Jan - 2001 (Issue)

ـ مصادر الصور: الإنترنت ومجلة «الفيصل».

كاميلو خوسيه ثيلا

إنه لا شيء ذلك الكاتب الذي يعتقد أنه مركز العالم

حوار: ماريا ـ ليز جازارين جيتار
ترجمة: حسين عيد
الجيزة ـ مصر

ولد كاميلو خوسيه ثيلا ترلوك عام ١٩١٦م، في إيريا فلابيا بمقاطعة لاكورونيا في إقليم جاليثيا في إسبانيا. كان أبوه جاليثياً، وأمه إنجليزية ذات جد إيطالي. وهو يقول عن ذلك: «ولدت في حدود ثقافة معينة، وإحدى قدميّ في ثقافة أخرى. ليس هناك فرد جاليثي، صيني، صربي، أو حتى بالمصادفة بجزء إنجليزي مثلي، إلا ويجب أن يتعايش مع ذلك». درس ثيلا القانون، والطب، والفلسفة، كما عمل، من بين أعمال أخرى، صحفيًا وممثلاً.

هو أحد أكثر أساتذة النثر المعاصرين شهرة، مع أنه معروف قليلاً في الولايات المتحدة الأمريكية.

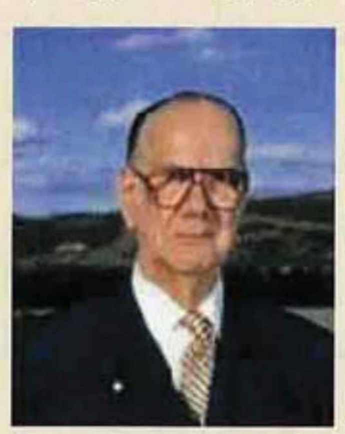
استلم من ملك السويد كارل جوستاف ميدالية نوبل الذهبية عام ١٩٨٩م، كأعلى تقدير لإنجازه الأدبي.

قال عنه نوط إهنلند، في خطاب تقديمه في أثناء الاحتفال العالمي: «لقد منح ثيلا حياة جديدة للغة، كما فعل قليل من أفراد تلك الأزمنة، فانضم إلى أساتذة اللغة الإسبانية مثل: سرفانتس، وجونجورا، وأوفيدو، وفال انكلان، وجارسيا لوركا». كما أعلن ثيلا في خطاب قبوله: «سأخبركم تمامًا بما نويت أن أقول، دون أن أترك أقلّ فرصة للإلهام والارتجال، تينكما الحماقتين اللتين استخفّ بهما». ثم قرأ خطابًا من اثنتي عشرة صفحة، قال فيه: إن أوفيدو، وسرفانتس، وباروخا، وفال إنكلان يستحقون أيضًا جائزة نوبل. وشدّد على أنه كان من المهم أن تتخذ الحكومة إجراءً لحماية اللغة القطالونية من التأثيرات الأجنبية، تمامًا كما فعلت فرنسا مع اللغة الفرنسية.

سُمّي ثيلا «أبا المبالغة في التشاؤم والعنف» وهو

اللقب الذي رفضه رفضاً قاطعاً، معبراً عن ذلك بكلماته: «تعدّ المبالغة في التشاؤم والعنف قديمة قدم الأدب». وجد جذوره في التراث الإسباني وحسّه بالواقعية في تذكّر رواية أوفيدو للبيكاريسك (التي تصوّر حياة المشردين)، أو في رسوم جويا، وهو مشهور بوصفه فرداً بعدم توافقه، لأنه يحبّ أن يصدم البشر وأن يسليهم، وذلك على الرغم من أنه يصرّ على أنه لا يجب أن يتشوّش بشخصياته.

كانت روايته الأولى «عائلة باسكوال دوارتي» (١٩٤٦م)، التي جرى فيها إعادة إحياء رواية ما بعد الحرب الإسبانية. هذا العمل المتفرّد هو الأكثر قراءة بشكل واسع الانتشار في الرواية الإسبانية بعد رواية «دون كيخوته» لسرفانتس، مع أن كل الناشرين الذين رأوه حين كان شاباً، حاولوا أن يثنوه عن الكتابة. ومع رواية «خلية النحل» (١٩٥١م)، واجه بجسارة رقابة عصر فرانكو، باستخدام ما يقرب من ثلاثمئة شخصية ظهرت في الرواية، ووصفت الحياة الكئيبة لسكان مدريد خلال سنوات ما بعد الحرب.

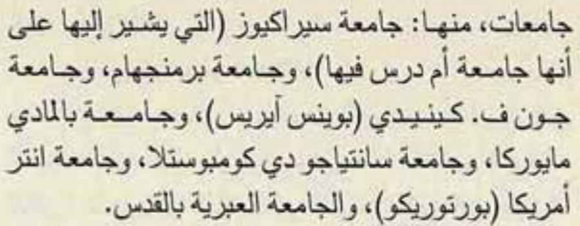

كاميلو خوسيه ثيلا

وقد أنشأ ثيلا مجلة «بابلز دوصن آرمادانز»، وأدارها من عام ١٩٥٦م إلى عام ١٩٧٩م، حتى أصبحت واحدة من أهم المتنفسات خلال سنوات القمع. وفي عام ١٩٥٧م انتخب عضواً في الأكاديمية الملكية الإسبانية. كما عيّنه الملك خوان كارلوس، بعد موت فرانكو، كي يكون سيناتوراً في البرلمان خلال عامي ١٩٧٧، و١٩٧٨م، وقد أدّى دوراً مهماً في تخطيط الدستور الإسباني.

وكما تتماثل حروف ك.خ.ث تماماً مع اسمه، يوجد هناك توازن تام في عمله، بعد أن مارس كل الأنواع الأدبية: من شعر بدأ به، إلى مقالات، وأدب رحلات، وذكريات، ومسرحيات، وقصص قصيرة، وروايات. هو مؤلف أكثر من مئة كتاب، منها روايات «عنبر الراحة» (١٩٤٤م)، و«السحب التي تمرّ بالقرب» (١٩٤٥م)، و«رحلة إلى القرية» (١٩٤٨م)، و«السيدة كالدويل تحدث ابنها» (١٩٥٣م)، و«سان كاميلو» (١٩٣٦م)، و«حكايات عزوبية بدون حب» (١٩٦٢م) برسوم مصوّرة لبيكاسو، و«ماريا سابينا» (١٩٦٩م)، وهي مسرحية أعدت موسيقياً بواسطة ليوناردو بالادا، وقُدّم حفلها الأول في قاعة كارنيجي في ١٧ أبريل/نيسان عام ١٩٧٠م، و«قاموس كلمات ممنوعة» (١٩٦٨م)، و«طقوس الظلام رقم ٥» (١٩٧١م)، و«القاموس السري وسجل الديوثات» (١٩٧٣م)، و«لحن ماثوركا على ميتين» (١٩٧٦م)، وتسلم الجائزة القومية للأدب في عام ١٩٨٤م، و«حمار بوردان» (١٩٨٦م)، و«رحلة جديدة إلى القرية» (١٩٨٦م)، و«المسيح ضد أريزونا» (١٩٨٨م).

يمتلك ثيلا قدرة خرافية على العمل، فهو يقرأ ويكتب عشر ساعات يومياً، ومازال يجد وقتاً يلقي فيه محاضرات حيّة بتصويره اللفظي الحصيف.

تمّ تكريمه في الداخل والخارج، وللمثال في عام ١٩٨١م خلال رحلة للولايات المتحدة، حين جعلوه مواطناً شرفياً لكل من تكساس وتوسان بأريزونا. كما يحمل اسمه عدد من الشوارع والميادين. كما أن لديه قائمة مثيرة للإعجاب بدرجات شرفية من عدة جامعات، منها: جامعة سيراكيوز (التي يشير إليها على أنها جامعة أم درس فيها)، وجامعة برمنجهام، وجامعة جون ف. كينيدي (بوينس آيريس)، وجامعة بالمادي مايوركا، وجامعة سانتياجو دي كومبوستلا، وجامعة انتر أمريكا (بورتوريكو)، والجامعة العبرية بالقدس.



قابلت ثيلا أول مرّة في بورتوريكو. بعد ذلك قابلته ثانية في نيويورك، ومدريد، ومايوركا. أخذني إلى بيتيه، اللذين يطلّان على البحر. كانت الحيطان مغطاة بمدى واسع من لوحات من زايالتا إلى ميرو.

في المنزل، المجاور للباب، والذي أثثه لمكتبته الخاصة الكبيرة جداً، رأيت صورة شخصية له رسمها جون آلبريشت، الفنان الأمريكي الذي يعيش في مايوركا.

كانت الحيطان، حول الفناء، مغطاة بإشارات على الشوارع المسماة باسمه. وعلى حائط مستقل رسم بيكاسو لوحة جدارية ضخمة له بشكل خاص. ثم عرض ثيلا كلابه أمامي (أحدها سلوقي فارسي من كلاب الصيد، وثلاثة آخرين من كلاب الأرديل الصغيرة النشيطة). كما تعيش طيور ببغاء شبه حرّة في خلفية الحديقة. رحبّ بي ثيلا بحرارة، وكان عائداً من موعد تجربة تفصيل بزة (بروفة) مع الخياط (الترزي)، ومع أنه عقّب بأنه فقد من وزنه ستين رطلاً، إلاّ أنه مازال يتمتع بالشكل المهيب نفسه. كما عنون لي خطاباً مختوماً بخاتم «بريد جوي» ذي الميزة الخاصة التي تخوّله ألاّ يضع طوابع على بريده الشخصي. ثم حكى لي حكاية بلهجة مرحة، وكان يقاطع حكيه بضحكة في نهاية كل عدة جمل.

- أعتقد أن التهاني الآن في وقتها المناسب. كيف يكون شعورك بأن تكون فائزاً بجائزة نوبل؟

* إنه شعور بالدهشة والبهجة. لقد رشحت عدّة سنوات، لذلك كنت أتوقعها، ولم أكن أتوقعها في الوقت ذاته. وقلت في نفسي إذا حصلت عليها، فقد حصلت عليها، وإذا لم أحصل عليها، فماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك.

- هل غيرت الجائزة حياتك؟

* من المهم جداً ألاّ تغير الجائزة أسلوبك في الحياة؛ لأن الإنسان يجب أن يظلّ ثابتاً وألا يفقد القدرة على رؤية الأشياء وفقاً لعلاقاتها الصحيحة. ولا تنسى أن لديّ جزءاً إنجليزياً فيه ذلك التمرّس الإنجليزي على ضبط النفس وعدم إظهار العواطف. وحتى الآن، مازلت مغموراً بمكالمات هاتفية، وبرقيات، ورسائل، وما شابه ذلك. لكني أعتقد أن هذا سوف ينقضي، وسأكون قادراً على العمل بالأسلوب الذي اعتدته. بطبيعة الحال أنا سعيد جداً بأن أفوز بجائزة نوبل.

- هل تعدّه انتصاراً شخصياً؟

* كان يمكن لأي فرد أن يفوز. وأنا أقبلها بالنيابة عن كل الكتّاب المتحدثين بالإسبانية. كنت أتمنى فقط لو كان موجوداً هنا بعض أصدقائي، مثل بيكاسو، وبيو باروخا، كي يتمتعا معي بهذه اللحظة.

- ماذا تخطط للمستقبل؟

* سأستمر في الكتابة، وهذه هي الحقيقة المهمة بالنسبة إليّ. كان الفوز بالجائزة خطوة مهمة، لكنها ليست نهاية في نفسها، فالنهاية الوحيدة هي الموت.

- لقد عدّوك غير متوافق، تلميذاً مزعجاً للأدب الإسباني في القرن العشرين، ومع ذلك فأنت ملتحم بالتراث. هل يمكن أن يوجد فرد ما غير متوافق، ويكون ملتحماً بالتراث في الوقت ذاته؟

* نعم، طبعاً؛ لأن جزءاً من حقيقة كونه غير متوافق يرجع أيضاً إلى التراث. وفي إسبانيا كان أفضل المفكرين دائماً غير متوافقين، يمكن لخط مستقيم أن يقتفي أثرهم، يبدأ من كبار الكهنة لـ «هيتا» و «تالافرا»، نزولاً حتى أزماننا. من بين كل كتاب هذا الخط، يعدّ أوفيدو هو القائد الذي رفع العلم عالياً من أجل عدم التوافق.

لم أكن أريد أن أكبر. كنت راضياً جداً أن أكون مجرّد ولد صغير. وكان يمكن أن أكون سعيداً بأن أبقى في عمر خمس سنوات أو ست إلى الأبد في جاليثيا الجميلة، ذلك اللحن الرعوي الريفي

- جد أبيك الكبير الأميّ، كان يدعى كاميلو برتوريني. اسم أبيك هو كاميلو، واسم أمك كاميلا، وأنت كاميلو خوسيه، وكذلك ابنك، والآن حفيدتك أيضاً تدعى كاميلا. هكذا نرى أن تراث كاميلو وكاميلا مازال مستمراً بجلاء!

* إن حفيدتي، وهي طفلة قويّة عفيّة، تمثّل الأفضل لما يمكن أن يريده أي فرد. إنها من برج الثور، مثل جدتها ومثلي. لقد وُلدت في ٨ مايو، وأنا وُلدت في ١١مايو، وجدتها شارو في ١٣مايو.

- ماذا يمثل اسم كاميلو في أسرتك؟

* إنه يعني الكثير، مع أن الأمر حدث بالمصادفة. كانت أمي إنجليزية، ومع أن اسم كاميلا يمكن أن يكتب

أو ينطق بالإنجليزية، إلاّ أنه جاء من الجانب الإيطالي من أسرتها. جد أبي الكبير، كان اسمه كاميلو، وهو إيطالي جاء إلى إسبانيا. وقد حدث فقط أن أبي وأمي كان اسماهما كاميلو وكاميلا. وكان الابن الأكبر دائمًا في أسرة أبي يسمّى كاميلو. أعتقد أن ذلك ليس تراثًا، بل عادة.

- لماذا يعدّ مهمًا جدًا لك أن تلعب بأسماء شخصياتك وأن تعطيهم أسماء مستعارة؟ إنك تلعب حتى باسمك نفسه حين تضيف ديفيد أو ليفي إلى قائمة أسمائك الطويلة جدًا الخاصة بالمعمودية؟

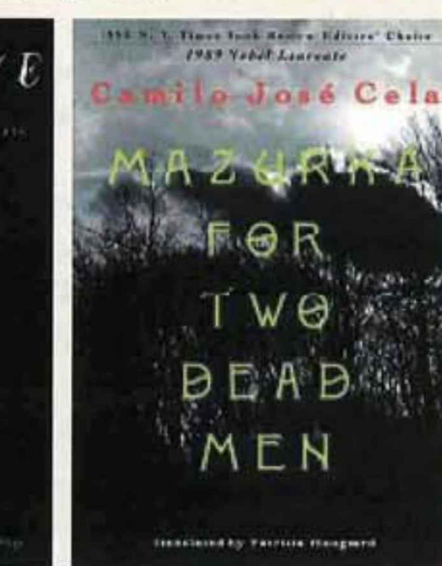
• أنا لا ألعب بالأسماء، لكنني أستخدم أسماءً مستعارة بكثرة؛ لأنه في إسبانيا يوجد لكل فرد على الأقل اسم واحد مستعار. وأنا آخذ معظم هذه الأسماء من كتب مثل «حياة القديسين»، و«سجل الشهداء الروماني» حيث تكون الأسماء غبية بشكل مطلق. أمّا حقيقة الأمر في إسبانيا فهي أكثر من ذلك؛ لأن أسماء الإسبان فعلاً اسماء درامية مخصصة للعذراء المقدسة، مثل: دولوريس، وأنجستياس، وكونسولاسيون، وفيزتاسيون، وهناك أيضًا سيركينسيزيون، الذي هو أسوأ.

- لماذا تعده أمرًا جوهريًا، أن تكتب مقدمات جديدة للطبعات المتعددة لكل كتاب من كتبك؟

• لأن انطباعاتي تتغير بمرور الوقت، فما أفكر فيه اليوم ليس بالضرورة هو ما سأفكر فيه غدًا. لكنني مؤخرًا، لم أعد أكتب كثيرًا، كما كنت أفعل من قبل. لقد استخدمت تلك المقدمات كي أتحدث فيها عن علم الجمال. وبالمناسبة، فإن الناشرين يصرّون على أن أكتب مقدمة، وفي نهاية الأمر أخضع لطلباتهم.

- قلت «يعدّ الأدب أنبوبة اختبار يتناولها كيماوي جاهل يخلط منتجات في درجات حرارة مختلفة، ولا يعرف أحد هل سيكون المنتج النهائي مرهمًا عديم اللون يشفي من حكّ الجلد، أو أخضر برتقاليًا، أو أسود اللون متفجرًا لدرجة أنه قد يقتل أتباعه». هل تعد مجلدي «القاموس السري وسجل الديوثات» من النوع المتفجر؟

• لا، أعتقد أن كتبي بنّاءة جدًا؛ لأن جزأي المجلدين من «القاموس السري» مستخرجان من اللغة اللاتينية الكلاسيكية، مثل مشتل كرنب Col Colius التي تستخدم في اللغة اللاتينية العامية فتصبح Colio Col-ionis، ومن تسمية الأشياء الرومانية، مثل جمع P هو Pis، التي تفيد في تعليم الناس كيف يتحدثون الإسبانية.





غلافا كتابين من مؤلفات ثيلا

كما أن سجل الديّوثات يمكن أن يكون مفيدًا فعلاً في تصنيف العالم من حولنا؛ لأنه توجد أنواع عدة من الديوثات، تبعًا لكلمات تشارلس فورييز، عالم الاجتماع الفرنسي، الذي صنّفهم أيضًا في زمنه، وإلى من خصصت لهم هذا الكتاب، وقد وجدت أكثر من ذلك. لكن هناك نوع واحد فقدته، وهو الديّوث الفوضوي، بطبيعة الحال ليس هذا مبدأ مقبولاً، أن تكون ديوثًا فيسمح لك ذلك بالبقاء.

- كم عدد الانفجارات التي دبّرتها، وكم عدد تلك التي فجّرتها؟

• لا شيء، لأنني لم أشد أبدًا أفخاخًا بلهاء. أحيانًا، قد يثير الناس فضائح حول كتاب أو صفحة من كتاب لي،

وقد يحدث ذلك أيضاً مع أعمال مؤلفين آخرين. ونحن لا نعرف هل كان هناك عدد كبير من مثيري الفضائح أو الفضائحيين في إسبانيا؟ غالباً يصدم الناس ببساطة لمجرد أن شخصاً ما قال في الطريق «أهلاً»، وهو ما لا يجب أن نلتفت إليه. وبالمقابل، فأن تصدم فإن هذا شيء جديد في الأدب الإسباني. فهناك اثنان من كبار الكهنة وأوفيدو في قصائده الهجائية، يقولون أشياء تجعل وجوه الناس تحمرّ خجلاً، ألم يكن ذلك من أجل جمال اللغة ونبلها؟!

ـ هل شفيت أي فرد من حك الجلد بالمرهم العديم اللون، الذي ذكرته سابقاً؟

• أعتقد ذلك. وعلى أي حال، لقد كتبت عملاً مكثفاً بما فيه الكفاية؛ كي يشفى على الأقل بعض الشرور، إن لم يكن كلها.

ـ سبق أن عملت مخبراً صحفياً، شاعراً، مصارع ثيران، ممثلاً سينمائياً، رساماً، ومتشرداً، تلك كانت الكلمات التي وصفتك في قاموس «من يكون هو في الأدب الإسباني». لماذا أصبحت كاتباً؟

• ليس صحيحاً أنني كنت كل تلك الأشياء، مع أنني جرّبت حظي فيها جميعاً. لم أكن أريد أبداً أن أكون مصارع ثيران أو لاعب كرة. لقد استمتعت بمشاهدة مصارعة الثيران ومباريات الكرة، تماماً مثلما مثّلت في بعض أفلام متواضعة. لكن أن نصل إلى نتيجة مضمونها أنني كنت مصارع ثيران، أو لاعب كرة، أو ممثلاً، فهذه نتيجة غير دقيقة بشكل كبير. وأن تقول إنني كنت صحفياً، فهذه قصة مختلفة، لأنني فعلاً كتبت فيها. لقد راجعت قصصاً قصيرة ومقالات لجرائد ومجلات، وبهذا الحسّ، كنت صحفياً، ولم أكن مخبراً صحفياً.

ـ هل لاتزال تكتب مقالات؟

• نعم، وأنا أكتب مقالات طويلة في «الأندبندانت»، التي تستغرقني ثلاثة أيام أسبوعياً. ولا يكون لدي وقت لذلك، إذا ذهبت في رحلة طويلة أو كان لدي بعض حالات تشريعية أخرى تشغلني تماماً. أسمّي عمودي الذي أكتبه «من بيت الحمام في هيتا» وهو مأخوذ من اسم المدينة التي عاش فيها الشاعر القروسطي العظيم، كبير الكهنة خوان رويز. إنه عنوان عام، لكن ما أكتبه أسفله يناسبه. تعدّ تلك المقالات قطعاً أدبية أكثر منها مقالات نقدية، لذلك يوجد فيها كثير من السرد، كما أنها بطبيعة الحال مطعمة أيضاً ببعض الأفكار، وأحاول أن أعبّر عن وجهات نظري في بعض قضايا أو أقوم بتغطية بعض مطبوعات.

ـ لقد قلت: «إن الكاتب هو الإنسان الذي تحتاج روحه إلى كل أنواع التغذية».

هل وجدت أفكار كتبك من تجربتك الخاصة، أو من العالم الذي يحيط بك؟

أعتقد أن تقنية كتاب تشبه سقالات مستخدمة في بناء كاتدرائية، تكون أحياناً ضرورية ثم تختفي لاحقاً. حين يكتمل بناء الكاتدرائية يحين وقت إزالة السقالات

• إنني آخذ مادتي من كل مكان. فأنا ألاحظ بعض مظاهر الواقع، التي تنتقل عبر ذهني، دافعة إيّاي إلى أن أحرّك القلم عن الورق، الذي بدوره ينتج الظاهرة التي نسميها أدباً. بطبيعة الحال لا أظن أن الواقع الأوّلي يمكن التعرّف إليه في كتبي، وذلك لعدة أسباب. أولاً، كل شيء سيكون ظلماً مجرداً أن أقلّد ما يمرّ بي، ثانياً، يمكن أن يكون ذلك خطيراً من الناحية الفنية، وأخيراً، لأن الواقع أصبح نائياً، بعد أن أفرغ في قالب روائي عبر الخيال. لقد أجرى شخص ما جرداً للشخصيات الحقيقية والشخصيات الروائية في رواية «خلية النحل» ورجحت الشخصيات الحقيقية الشخصيات الروائية بهامش ثلاثة في المئة.

ـ ما الواقعية بالنسبة إليك؟

• الواقعية هي كل ما يمكن أن يُدرك بالمشاعر أو بالحدس. ويمكن أن أفترض أنها تشمل السيريالية والواقعية البديلة. كما أنها ليست فقط ما يهتم به الإنسان، لكن أيضاً ما يأتي قبل هذا الاهتمام وما يأتي بعده. على أية حال، قد نكون قادرين على أن نعكس ذلك بشكل آخر، وهو أن (اللاوعي) يعدّ نوعاً من الواقعية، حتى لو لم نكن قادرين على أن نوضحه أو نفسّره.

ـ كيف يمكنك إذن أن تعرّف العوالم، التي يحتوي عليها كتاب؟

• أعتقد أنها تعكس مظاهر خاصة من الواقع من طرف أحد ألوان طيف إلى الطرف الآخر. هذه الانعكاسات هي ما تصنع الروايات، التي غالبًا ما يكون لديها قليل من حكايات تعمل كأوعية توصّل الأحداث، مع أن هذا ليس ضروريًا؛ فقد كتبت بعض روايات دون حبكات مثل رواية «طقوس الظلام رقم ٥»، فقد أغلقت على نفسي في غرفة مظلمة؛ كي أستنبط المشاعر الضرورية للقلق.

ـ لقد وازنت الأدب بسفينة، حين قلت: «إنه سفينة قرصان، دون علَمْ ودون قوارب إنقاذ.. إنه سفينة تبحر؛ لأن الله يرغب في ذلك». لكنك كتبت أيضًا «أنه قارب دون غاية، حيث يجدّف كل فرد على قدر ميله»

هل أنت متدين؟ هل ترى الأدب إلهامًا مقدسًا أو حرفة لا يرتاح الفرد فيها أبدًا؟

• لا هذا ولاذاك؛ بل أعتقد أن هناك قليلاً جدًا من البشر، ربما لا أحد، هم من يكتبون تحت إلهام مقدس. كي يكتب الفرد، لابد أن يعمل بجدية، وأن يكون صبورًا، متمتعًا بالإصرار. لكن لا يجب أن نعدّ لكتابة حرفة على نحو صارم؛ لأن الكاتب قد يتحول عندئذ إلى كاريكاتير لنفسه، إذا قرّر ألا يفعل شيئًا أكثر من أن يسوّد يوميًا عددًا من الصفحات. إن ذلك يكون من سوء الحظ، خاصة إذا قاده ذلك إلى حتفه. لقد وُجد كتّاب كثيرون عبر تاريخ الأدب، كتبوا نقوشًا على أضرحتهم الخاصة؛ لأنهم لم يفعلوا شيئًا، بل انتحلوا كلمات مؤلفين آخرين لأنفسهم بسبب من ذلك، حين أكتب أحاول أن أستخدم تقنيات فنية مختلفة في كل رواية؛ حتى لا أقع في نمط منتظم متكرر قد يصبح عقيمًا. لكن، عودة إلى سؤالك، فإن المهنة الوحيدة التي أريدها بصفتي فردًا، هي أن أكون إنسانًا على وجه اليقين، مخلوقًا بشريًا. كل شيء آخر يأتي تاليًا.

ـ تعدّ كتبك مختلفة كلية بالنسبة إلى شروط تقنياتها؟

• أعتقد أن تقنية كتاب تشبه سقّالات مستخدمة في بناء كاتدرائية، تكون أحيانًا ضرورية ثم تختفي لاحقًا. حين يكتمل بناء الكاتدرائية يحين وقت إزالة السقالات. في الكتاب، يتم تشرّب التقنية الفنية وإلاّ سيظل الأمر مجرد تجربة.

ـ وهكذا، فإن التقنية موجودة هناك، لكنها لا يمكن أن ترى..

• أو أنها لا يجب أن تُرى. أو على الأقل ليس كثيرًا، لكنها بطبيعة الحال موجودة.

ـ أنت شاعر غنائي، وهزلي ساخر، حتى لتبدو مرتبكًا تقريبًا، حين تعبّر عن مشاعرك الرقيقة. لماذا تغلّف مشاعرك بالتهكم والرسم الكاريكاتوري؟

• لا أعرف. ربما كانت هي آلية دفاعية، تمنعني من الكشف عن نفسي، لكنني لست متأكدًا. يجب أن أدرس نفسي موضوعيًا. على أية حال، يبدو أن هناك ثباتًا في عملي، حتى إن عددًا من النقاد قد أشاروا إليه. لكن، لا أظن أنني يجب أن أصلح ذلك. وقد حدث معي شيء مشابه لما حدث لسرفانتس مع رواية «دون كيخوته»، ففي كل مرة استخدمت فيها صفة رائعة كنت أتبعها بمرادف محكي، مفكرًا أن ذلك ربما يساعد القارئ على أن يفهم بشكل أفضل.


سرفانتس

ـ قال بيكاسو ذات مرة «حين يكون الفرد شابًا حقيقيًا، سيظل شابًا طوال حياته كلها».

• لقد قال لي بيكاسو ذلك، حين كان يحتفل بعيد ميلاده التسعين. كنت قد قلت له: «أراك شابًا جدًا، يا بابلو» فأجاب: «أنت مخطئ يا كاميلو خوسيه، حين يكون الإنسان شابًا بقلبه، سيظلّ شابًا طوال حياته كلها». وكان ذلك جميلاً، لأنه مات في سن عجوز جدًا، ومازال شابًا بالقلب.

ـ كيف عالجت استعادة عذوبة سنوات طفولتك في كتاب «الوردة»، حيث عرضت من جديد أحداث السنوات الست الأولى من حياتك بحساسية ورضا؟

• إنها سيرة ذاتية لسنوات طفولتي المبكرة وأسرتي

العجيبة الحمقاء. لقد أمسكت بتلك الذاكرة بإعزاز؛ لأنني كنت طفلاً صغيراً سعيداً جداً، عاش طفولة ذهبية. أتذكر تلك السنوات بغرام وحنين. اعتادت عماتي أن يسألنني: «ماذا ترغب أن تكون حين تكبر؟» وكنت أبكي، لأنني لم أكن أريد شيئاً ـ لم أكن أريد أن أكبر. كنت راضياً جدا أن أكون مجرّد ولد صغير. وكان يمكن أن أكون سعيداً بأن أبقى في عمر خمس سنوات أو ست إلى الأبد في جاليثيا الجميلة، ذلك اللحن الرعوي الريفي.

ـ ماذا تعني جاليثيا لك؟

* كثيراً، طبعاً؛ لأن الشخص لا يولد أبداً في فراغ. لا يكون الفرد جاليثياً، يونانياً، أو صينياً بحكم المولد فقط، لكننا نحمل ذلك الميراث معنا خلال حياتنا كلها، سواء للأفضل أو للأسوأ. وفي حالتي، أثق أنه كان كله للأفضل طبعاً.

وما دمنا أننا جميعاً نتاج الأسرة التي ولدنا فيها، ولكون أمي إنجليزية، وأبي جاليثياً، وجدتي من ناحية الأم إيطالية، فإن كلّ العناصر قد أثرت في تطوّري.

ـ بماذا تشعر لكونك خليطاً من تلك العناصر؟

* براحة شديدة، براحة شديدة.

ـ هل تشعر بأنك جاليثي أم إسباني أكثر؟

* بكليهما؛ لأنهما دائرتان مختلفتان. ومع أن الفرد يظلّ هو الفرد نفسه، إلاّ أن قطر الدائرة يتزايد من إيريا فلافيا إلى بادرون، وجليثيا، ومملكة إسبانيا، وأوربا، وأخيراً العالم.

ـ صُمّمت سكك حديد غرب جليثيا بواسطة جدك الأكبر (لأبيك) كاميلو برتوريني، وجدك لأبيك جون ترلوك كان مديرها. وبما أن القطار قد أدى هذا الدور الحيوي في أسرتك، فهل فكرت أبداً في أن تكتب: قصة، أو رواية، أو قصيدة، قد يكون القطار فيها هو الشخصية الرئيسة؟

* أنا لا أعرف هل كنت قد استخدمته فعلاً في مكان أم لا. كان القطار ملكية جدّي الأكبر. كان الخط الحديدي قد امتد من بونتفدرا إلى سانتياجو، مسافة ثمانين كيلو متراً. آزرت السكك الحديدية الأسرة. وأخيراً، جُلب مهندس شاب من إنجلترا، كان اسمه جون ترلوك الذي سيصبح جدي، وتزوّج ابنة المالك، وهو شيء طبيعي، معقول أن يفعله؛ لأن كل شيء بذلك الأسلوب سيظل داخل الأسرة. هذه فكرة عظيمة؛ لذا أظنّ أن على أولئك المهندسين الشباب أن يتزوجوا دائماً بنات الملاّك.

ـ قلت سابقاً: إنك تعلمت كيف تكتب، حين كنت تراجع فعلاً نظم الآخرين. إذا كان الشعر هو حبك الأول، فلِمَ هجرته، حتى ولو لم يكن بشكل كلي، كي تكتب نثراً؟

* إنها مسألة مبدأ؛ فالفرد لا يخلص أبداً لحبّه الأول. وغالباً ما نبدأ، نحن كتّاب النثر، بكتابة الشعر، مع أن هناك كتّاباً كثيرين لم يكتبوا سطراً واحداً منظوماً في حياتهم. لقد انطلقت من النظم مستمتعاً به، حتى إن بعض أصدقائي الذين يديرون قسماً أدبياً لمجلة في مدريد سمعوني أحكي بعض نوادر في مقهى، فسألوني «لماذا لا تكتب بعض القصص؟». كان ذلك في نهاية الحرب الأهلية الإسبانية، فأجبت «لا أعرف»، ثم استطردت «أظنني شاعراً أفضل». عندئذ قالوا: «إننا نلحّ عليك، أن تكتب على الأقل قصة واحدة»، بعدها كتبت «دون أنسلمو».. فأحبوها وطلبوا المزيد. هذا يبيّن كيف بدأت كتابة تلك القصص التي كانت سابقة لرواية «عائلة باسكوال دوارتي» في تنمية حب النثر. وقد جُمعت تلك القصص في كتاب بعنوان «تلك السحب التي تمرّ بالقرب»، ثم تضمنتهم أعمالي الكاملة. علماً بأنني لم ألغ أبداً أي صفحة سبق أن كتبتها؛ لأنني لا أحب مزاج الكتاب، الذين لديهم أعمال كاملة لكنها فعلياً ليست كاملة.

> إذا لم يوجد أبداً سرفانتس ودانتي، وشكسبير، فلن تكون تلك نهاية العالم، لكنهم وجدوا، وأنا مقدّر لذلك

ـ أنت ترى النثر والنظم فرعين لشجرة واحدة. هل تحدثنا عن العلاقة بينهما؟

* الرواية تتضمن الشعر، وبطريقة ما، فإن الشعر يتضمن الرواية أيضاً. وللمثال فإن «ملحمة السيد» تعدّ قصيدة طويلة جداً، لكنها أيضاً تاريخ، أو رواية، لأنها تعطى سرداً لعدّة أحداث. كما يصدق الشيء نفسه على جورج مانريك في «إيلوجي عند موت أبيه». كان شعراء

القرون الوسطى شعراء غير عاديين. لقد أثروا فيّ بشدة وفي الآخرين. دعنا لا ننسى ذلك، وعلى العكس ما يدّعي مؤرخو الأدب، فإن «ديكاميرون» بوكاشيو لم تكن أول رواية منشورة، بل كانت «دون جوان مانويل». أنا لم أؤمن يومًا بمسألة الأجناس الأدبية، وقد فعلت حتى الآن القليل بينما الوقت ينقضي. تلك الأجناس الأدبية مرضية جدًا للأساتذة والنقاد؛ لأنها نوع من الدراسة لأصل كلمات أدبية، أسلوب لتثبيت اقتباس صغير مع اسم لاتيني عليه، إذا كان ذلك ممكنًا على الإجمال، لكن ذلك كله كذب.

ـ هل ذلك هو السبب في أن الإيقاع يعدّ مهمًا في رواياتك؟

• بطبيعة الحال، كما يجب أن يكون في أي عمل. لقد قلت دائمًا: إنه لكي يكون الفرد كاتب نثر فإن عليه أن يكون لديه أذن أفضل كثيرًا من شاعر أو موسيقي؛ لأن إيقاع النثر محلّ اعتبار أكثر غموضًا منه في الموسيقى، التي تتبع عادة نمطًا منتظمًا.

ـ هل تقرأ ما تكتبه بصوت عال؟

• أكتب بيدي، وعادة أقرأ نصّي بصوت عال حين أجمعه معًا، لأنني بذلك الأسلوب أستطيع أن أمسك عدّة أخطاء أسلوبية، تكرارات، وأصواتًا متعارضة. تكون تلك الأشياء محسوسة أكثر بالتقابل عبر الأذن، عنها عبر العين.

ـ كيف تفسّر صلات النسب بين عملك ورواية البيكاريسك؟

• أظنّ أنها كانت فرجينيا وولف، التي قالت: إن كل الروايات الأخيرة مستمدة من رواية البيكاريسك الإسبانية. وأعتقد أن الأدب ثقافة، ليست فقط ناتج تولّد تلقائي لجيل؛ لأن كل جيل يحمل المشعل بقدر ما يستطيع، ثم يناوله الجيل الثاني. وإذا تحدثنا فنيًا، فإن كتّاب الحاضر يعرفون أكثر كثيرًا من مؤلفي القرون: السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، وسواء أكانوا جيدين الآن كما كان السابقون أم لا، فإن الأمر يتوقف على مواهب كل كاتب بشكل خاص. وكما أن أي طالب مدرسة عليا الآن يعرف نظام الدورة الدموية، التي كان أبقراط ومدرسته العظيمة من الأطباء في اليونان غير مدركين لها، فإن الثقافة تعدّ انتقالاً، ورواية البيكاريسك تمتلك مكانًا لمختلف الحالات والأسباب؛ لأنها تثير الدهشة منذ «لازاريو دي تورمس» (مع أن البعض يحاج أنها ليست رواية البيكاريسك)، حتى العمل الأكثر اتساعًا في المعرفة، مثل «الباسكون» لأوفيدو. ومع ذلك، فأنا لا أثق كثيرًا بتلك الألقاب.

ـ هل تعتقد أن سرفانتس سلمك مشعلاً؟

• نعم، لكن كل الكتاب الذين كانوا بيننا حملوه أيضًا. وبطبيعة الحال، كان المشعل موجودًا هناك حتى قبل سرفانتس. ثم انتقل من جيل إلى آخر، وقد أسلّمه أيضًا إلى شخص ما، مهما كان. إنه مثل سباق تتابع.


بابلو نيرودا

ـ هل تتوحّد بأي شكل مع سرفانتس؟

• تعدّ رواية «دون كيخوته» عملاً كاملاً، عجبًا حقيقيًا. وأنا لا أتعب أبدًا من الإعجاب بها. لذا نعم، إنني أتوحّد مع مؤلفها. وإذا استطعت أن أتحدث إليه، كنت هنأته وأخبرته عن حسدي الصحي؛ لإنتاجه ذلك الأثر الفني البليغ.

ـ إذا أمكنك أن تتحدث مع كاتب عظيم آخر من الماضي. فمن كنت تختار؟

• أوفيدو؛ لأنني أعتقد أنه الكاتب الأكثر إثارة للدهشة على الإطلاق في اللغة الإسبانية. وكنت من دون شك سألته كيف كان قادرًا على هذا الإنجاز وتعظيم كل الأعمال التي عرضها.

ـ هل لديك أتباع؟

• لا أعرف. حين يسألني بعضهم السؤال العكسي، حول من أثّروا فيّ، أجيب دائمًا بأنهم كل الكتّاب الذين كتبوا قبلي. ليس فقط باللغة الإسبانية، ولكن حتى بلغات لا أعرفها. كل الكتّاب أثّروا فيّ من دون شك، ومن المحتمل أننا سنؤثر فيمن سيأتي بعدنا.

ـ من هم أولئك الذين ساعدوك في بداياتك، حين انطلقت كاتبًا؟

• الثلاثة الذين ساعدوني أكثرهم: بابلو نيرودا، ماريا زمبرانو، وبدرو ساليناس. لفتت ماريا زمبرانو الانتباه إليّ، وشجعتني على أن أستمر في الكتابة. إنها ما تزال حية، وإن الآخرين ماتا.

ـ لقد نُشرت أعمالك الأولى في الأرجنتين لأسباب سياسية. هل تعتقد أنه قد يكون للرقابة أحيانًا تأثير إيجابي في تطوير الخيال؛ لأنها تسبب تمارين ذهنية تعادل المشي في الهواء على حبل رفيع؟

• نشرت أشعاري الأولى في الأرجنتين بمصادفة كاملة. كان ذلك قبل الحرب الأهلية الإسبانية. كانت قصائد كتبتها حين كنت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة في عام (١٩٣٥م). وقد نُشرت أولاً في صحيفة «أرجنتينو» بإقليم «ريو دي بلاتا»، ثم في مجلة أدبية اسمها «فابولا»، وذلك بعد أن تم إرسالها إلى لويس إنريك ديلانو، مدير هاتين المطبوعتين. لكن رواية «عائلة باسكوال دوارتي» نشرت في بيونس آيرس عام ١٩٤٤م لأسباب سياسية؛ لأن طبعتها الأولى في إسبانيا عام ١٩٤٣م لم تكن متاحة للتداول.

بعد ذلك نشرت رواية «خلية النحل» هناك أيضًا، حين مُنعت رقابيًا في إسبانيا. كنت أعدّ كل مرّة أخسر فيها قتالاً مع الرقابة، إخفاقًا شخصيًا؛ لأنني كلّما تجاوزت الكلمات والجمل مخططاتي، كنت أشعر أنني مضطهد. ولا أستطيع أن أنسى أن رئيس الرقابة في إسبانيا، قال، وهو يتبجح خلال الفترة التي كان يشغل فيها منصبه: «لن ينشر السيد ثيلا كتابًا واحدًا».

ـ ألم يكن لويس أنريك ديلانو صديقًا لجابرييل ميسترال؟

• كان سكرتيرًا للقنصلية التشيلية، أولاً تحت رئاسة جابرييل ميسترال، ثم بعدها تحت رئاسة بابلو نيرودا. كان طالبًا منتسبًا بالجامعة المركزية بمدريد. آخر مرّة شاهدته فيها، كان يعيش في المنفى في المكسيك؛ لأنه كان السفير التشيلي لدى السويد خلال فترة حكم الليندي. وبطبيعة الحال، حين سقط حكم الليندي لم يستطع العودة إلى شيلي.

ـ قلت: إن لدى الكاتب قاعدتين: أن يكتب، وأن ينتظر، وإن أفضل شريك هو الوقت. عند نشر رواية «عائلة باسكوال دوارتي» في عام ١٩٤٢م، هل اعتقدت أنها يمكن أن تعيد إحياء الرواية الإسبانية، وأنك قد تصبح أعظم كتاب النثر تصويرًا؟

• لا، على الإطلاق. إنني لم أكتب هذه الرواية بنية نشرها. حقيقة الأمر، أنني كنت أكتب فصلاً كل يوم؛ لأن أختًا لزوجتي ـ التي كانت صديقتي حينذاك ـ كانت مريضة، واعتدت أن أقرأ عليها فصول الرواية. لكنها في كل مرة كانت تمضي للأسوأ يا للشيء المؤسف. لم تكن الرواية بلسمًا مهدئًا، بل على العكس تمامًا. ولم أعتقد قطّ، أنها يمكن أن تُطبع في البداية؛ لأنها ـ في البداية ـ رفضت من كل الناشرين.

الكاتب هو الإنسان الذي تحتاج روحه إلى كل أنواع التغذية، والروائي الحقيقي هو القادر على أن يظهر نفسه بطرائق لا يستطيعها المؤرخ

النشر هي المهنة، التي تنتج أفرادًا هم الأكثر غباءً في كل أنحاء العالم. أستطيع الآن أن أقول بفخر: إن رواية «عائلة باسكوال دوارتي» هي العمل الأكثر ترجمة بعد رواية «دون كيخوته»، حتى إنها تُرجمت إلى اللغة اللاتينية. لقد حملت مخطوطتها تحت ذراعي مدة عامين، أخبرني خلالهما الناشرون بالهراء الفارغ نفسه، الذي كانوا يقولونه للكتاب الشبان: «ما زلت شابًا، ويمكنك أن تغيّر مهنتك. نشكرك كثيرًا. يجب أن تفهم أن هذا مشروع استثماري، وأن كتابك قد يباع منه بصعوبة عشر نسخ أو اثنتا عشرة نسخة. نحن آسفون». هكذا استمر الوضع مدة سنتين، حتى نشرت أخيرًا، شكرًا لرافائيل الديكوا، الذي كان ابنا للجنرال إيبانزا الديكوا، المالك لدار نشر محافظة ومتمسكة بالعرف جدًا. عاش رافائيل في مدريد. وفي ذلك الشهر لم يرسل له والده أي نقود لأنهما تشاجرا، فقال لي: «لقد أصبح أبي غير

مـهتم بما ينشر في المؤسسـة منذ فترة، دعنا ندفع إليـه بهذه الرواية كـي تعلّمه». تلك هي حكاية كـيف نشرت الرواية بواسطة الديكوا. ثم جاء نجاحها متأخراً، وكنت أول من سُرّ به، بطبيعة الحال.

ـ أنت لا تحبّ لقب «أبو المبـالغـة في التـشـاؤم والعنف»، الذي ارتبط بك. هل يمكن أن تكون ضد أن تدعى مؤرخًا لزمنك ولشعبك؟

• لا، هذا هو مـا أتعشم أن أكون. أما المبـالغـة في التشاؤم والعنف، فـهو مـصطلح كنسي، اختـرع كي يسـتـخـدم ضـدي بواسطة واحـد ممن يدعـون نـقـاداً مميزين جداً في بلدي؛ وذلك بغـرض جرّي إلى شجار. مؤخراً جداً، استـخـدم الناس في البلدان الأجنبية ذلك المصطلح بمحبة حين كانوا يتـحـدثون عنـي. هكذا تحـول المصطلح الآن ضده كـمنّة مني. لكني لا أظن أن هذا المصطلح يعني أي شيء. هذا الطبع منسـوب إلى شيء ثابت في كل الأدب الإسباني، منذ زمن بـعيد إلى الوراء، في القرنين السادس عشر والسـابع عشـر. هناك مـثل هذا الشيء كـأمـر تاريخي، يجب أن يُحترم.

ـ ما رأيك في النقاد؟

• كمـا كل شيء في مملكة الله الواسـعة، يوجد نقاد أذكـيـاء وآخـرون يودون فـقط أن يبدوا جـيـدين، وهم مـشوّشـون جداً. بالمناسبة، قـرأت مراجـعة لواحـد من كـتـبي، تكلم فـيـهـا الناقـد مـعليًا من شـأنـي، ومكوّمًا بإسـراف أوصـافًا على عـملي. وفي النهـاية، يجب أن أقول: إنني شديد الامـتنان. لكن كم كـان يمكن أن يزيد امتناني فيما لو كـان الناقد قد قرأ الكتاب فـعلاً! إن هذا خطيـر جـداً. ومـا بين فـتـرة وأخـرى، يكتب أسـاتذة الجـامـعـة ودارسـو الدكـتـوراه أطروحـاتهم عن عـملي بشكل هو أكـــثـــر تماسكًا من أولـئك الـذين يذيّلون مـراجـعـات الصـحـف. كـمـا يمكن أن يكـون العكس صـحـيحًـا؛ لذا لا أعـتـقـد أنه يمكن التـوصل إلى نتـائج عامة.

ـ هل تعتقد أن الكتّاب يكتبون عادة تراجم ذاتية في أعمالهم؟

• نعم، بطريـقـة مـا يفـعلـون ذلك عـادة، دون شك. يكتب الكاتب العمل نفسـه، مع بعض اختلافات وعلى درجـات من النضج. ومـع أنه قـد لا يتـوحّـد تمامًا مع شـخـصـيـاته، إلا أنه يظلّ هـناك شيء مـشـتـرك، والروائي الحقيقي، هو الذي يكون قادراً على أن يظهر نفسه للعيان بطرائـق لا يستطيعها المؤرخ؛ لأن المؤرخ يحـدّد نفسـه حين يعكس مـا يراه بين لحظة وأخـرى، بينما يبتكر الروائي شـخصياته حسب الحاجـة، مانحًا إياها حرية أن تتـحرك. وبهذه المواصفـات، قد يمكنني أن أقـول: إن مـؤلف عـمل يكون هو نفسه دائمًا.



ثيلا بريشة فنان

ـ هل تخيلت أعمالك أبدًا هندسيًا؟

• افـتـرض أنهـا يمـكن أن تكون مجسّمًا متعدد الأسطح بإحداثيات مـتـضـاعـفـة. وأعـتـقـد أنك يجب أن تعمل بـاجـتـهـاد؛ حتى تجـد التـمـثيل الهندسي المـضـبـوط لكل واحـد من كـتـبي. لطالما آمنت بالبعـد الهندسي لـكل شـيء، ليس فـــقـط فـي علم الأحـيــاء، حـيث نرى بـوضـوح جـزئـيـات أي جـسـم وهي تتـخـذ أشكالاً هندسـيـة متـميـزة (رقائق الجليد، للمثال، ودعينا لا نتـحدث عن غـرائب الأزهـار والحشرات)، حـتى ليبـدو أمرًا غيبيًا.

مـا يحـدث هو أننا مـا زلنـا بعـيـدين عن اكـتـشـاف المعـادلة. لكن لمجرد أننا لـم نتوصل إليـهـا، فإن ذلك لا يعني أنهـا لا توجـد ـ لـقد كـانت الأرض كـروية لزمن طويل قبل أن يدرك الإنسان ذلك.

ـ بوصفك مؤلفًا، أين تضع نفسك بين أعمالك؟

• من المحتمل أن أكـون في كل مكان، أو لا أكون.. من المحتمل، ضع خطًا تحت كل كلمة

ـ إذن، أنت في داخل الكتاب؟

• أفترض، أفترض ذلك.

- ليس خارجه؟

• ليس خارجه، بل في الداخل. أعتقد أن هذا يحدث بكل إخلاص للمؤلفين الأصلاء.

- بصفتك أبًا جيدًا لرواياتك.. هل لديك طفل مفضّل؟

• أتمنى أن أجيبك بكل الصدق، لكني لا أعرف. إنه تمامًا كسؤال أب أو أم لعدة أطفال: من هو طفلهما المفضل. لن يكونا قادرين على الإجابة. بل أكثر من ذلك، قد لا يكون غريبًا لأب أو أم لعدّة أطفال، أن يفضّلا من أطفالهما ليس الأحسن، ولا الألمع، ولا الأقوى، أو الأكثر وسامة، لكن بدلاً من ذلك قد يفضلان الأضعف، الطفل الذي يحتاج إلى رعاية أكثر. ما أستطيع أن أقوله، إنني لا أعتذر عن أي من الصفحات التي نشرتها. لدي غرام برواية «عائلة باسكوال دوارتي»؛ لأنه الكتاب الذي كسر الجليد بالنسبة إليّ. وأظن أن رواية «خلية النحل» هي الأفضل بناءً، ورواية «سان كاميلو» هي الأفضل كتابة، وربما تكون «طقوس سريّة» هي التي تحقق فيها مستوى من الإنجاز لم أحققه من قبل.

هذا تتابع منطقي، لأنه بمرور الوقت، يكتسب الكاتب حكمة مما يفقده من بكارة. لكن يجب ألاّ أشكو؛ فهذا قانون الحياة. يجب أن يعرف الإنسان كيف يستفيد من أي موقف ومن أي لحظة. ولديّ إعجاب أيضًا بكتاب «رحلة إلى القرية»؛ لأنها كانت أول رحلة طويلة في إسبانيا على الأقدام.

- لقد كتبت أكثر من مئة كتاب. هل لديك شخصية أثيرة؟

• يمكن أن أكرر هنا، أن ذلك تمامًا مثل سؤال أب أو أم لعدة أطفال أيهم يحبانه أكثر. وأنا لديّ شخصيات كثيرة أثيرة؛ لسبب أو لآخر. أنا ممتن جدًا لباسكوال دوارتي، كما سبق أن قلت، وأيضًا لمارتين ماركو، الشخصية الأساسية في رواية «خلية النحل». لكن يجب ألاّ أنسى ذكر السيدة كالدويل، كاتيرا، أو أي من الشخصيات المركبة في رواية «سان كاميلو» عام ١٩٣٦م. لا، لا يمكن أن أحدّد شخصية مفضلة.

- أنت تتحدث عنها كما لو كانت شخصيات حقيقية!

• نعم، بطبيعة الحال، كما لو كانت شخصيات حيّة؛ لأنني أجعلها محسوسة. يبدأ الكتاب حقيقة في الظهور أمامي، حين أنهي آخر فقرة فيه، ويطبع الكتاب. عندئذ تكون شخصياتي قد أصبحت موضوعية، وأعدها أصدقاء لي، مع أني قد أراها أيضًا كأعداء لي (وهو ما لا أفعل). على أي حال، لقد انفصلت عن شخصيتي، وهو ما أعتقد أنه شيء صحي.

- هل حدث مرة أن ظللت تتخاطب مع شخصياتك، حتى بعد أن طُبع الكتاب؟

• بطبيعة الحال، وضعت كتابًا بعنوان «الأصدقاء القدامى»، الذي جعلت فيه حياة شخصيات وأحداثها من روايات سابقة تستمر؛ حتى يمكنني أن أحدثها إلى الأبد.

لا ينبغي أن تغير الجائزة أسلوب حياة الكاتب، إذ عليه أن يكون قادرًا على رؤية الأشياء وفقًا لعلاقاتها الصحيحة

- هل تحدثت تلك الشخصيات معك؟

• ربما، إن هذا يتوقف على أيّها. أنا لست في أحذيتهم. أنا لا أعرف، لكني أفترض أنها قد تفعل.

- أنت تتحدث عن الإرادة الحرَة لشخصياتك، وتعاملها كما لو كانوا أصدقاء قدامى. ومع ذلك، فأنت أحيانًا تشير إليها كما لو كانت دمى متحركة. أيها صارت مستقلة عنك، بعد أن ثارت وفازت بحريتها؟

• كلها. كان باسكوال دوارتي هو أول من أدركت أنه فعل ذلك. كنت قد كتبت مخططًا لكل تطوّر، فصلاً بعد فصل، لرواية «أسرة باسكوال دوارتي» موضحًا ماذا يجب أن يحدث في كل فصل من الحكاية؟ وحتى في بعض المواقف. أستطيع أن أؤكد لك أنني قبل أن أنهي الفصل الأول، ثار باسكوال دوارتي ومضى في طريقه الخاص. نتيجة لذلك، رميت بعناية بملاحظاتي إلى سلة المهملات؛ لأنني أدركت أنها عديمة الجدوى. أنا أؤمن أن الشخصية إذا ابتكرت جيدًا، يكون على الروائي أن يتبعها، وأن يسجل ما تفعله على أنه تاريخ، وأن يفتح لها الباب، ويطلق سراحها. هذا هو أفضل أسلوب لكتابة رواية. وتبقى هناك إمكانية التحكم بالشخصيات في

فروع أجناس أدبية معينة. كرواية المغامرات، وقصص المخبرين السريين، وروايات عاطفية، وقصص رعاة البقر، والقصص العلمية.

- لماذا باسكوال دوارتي شخصية عنيفة؟

• لقد جعله العالم مجنونا. كان هناك عدد من شباب مثله في نهاية الحرب الأهلية الإسبانية.

- ما رأيك في كل العنف السائد في عالم اليوم؟

• إنه نتيجة الحياة في المدن الكبيرة. وأنا الآن أؤيد نظرية تدور حول أن المدن الكبيرة تعدّ مسؤولة عن انهيار الإنسانية؛ لأن الناس لا يعرف بعضهم بعضاً في المدن الكبيرة، وهذا ما يولد ميولاً تكون أكثر عنفاً.

- أتذكر أنك في عام ١٩٨١م، ذهبت إلى أريزونا، هل كان ذهابك أساساً بسبب روايتك «المسيح ضد أريزونا»؟

• نعم، كنت مأخوذاً بتلك الولاية؛ لأنها كانت دائماً - واستمرت كذلك، الولاية ذات الأمريكيين الأكثر أهلية.

هناك احتياطات عدة يمكن رؤيتها في شوارع توسان. ولا تدعينا ننسى أن رئيس جماعة شيريكا هوا الآباشية «كوشيس» قد حجز رجال سلاح الفرسان السابع (الذين لم يكونوا رهباناً متصدقين) في خليج مدة خمس سنوات في أريزونا.

- هل تكتب رواية الآن؟

• أن أتحدث عن عمل في طور النمو، خطير جداً. لست متشائماً، لكن هناك بعض كتاب لديهم خوف تجاه هذه الأشياء. في عام ١٩١٦م، عام مولدي، ذكر أورتيجا إي جاسيت قليلاً حول عمله التالي في مذكرة في أحد مجلدات «المتنبئ»، ولم ير ذلك الكتاب النور قط. مثل ذلك الحديث، يمكن أن يكون حلياً متدلية، أو غروراً كي أمارس لعبة الناشرين، حتى أعدّ خطاباً للصحافة حول الكتب كي تكسب عدة بيزيتات أكثر. أنا أقول دائماً: إن الروايات لا توجد فعلاً، حتى يتم نشرها ووضعها بين أيدي القراء. وحتى يحدث ذلك، فإن أي قطعة من الكتابة ليست إلاّ مشروعاً لا طائل من ورائه.

- لكنك تحدثت عن كتابك الرابع «ماديرا دي بوخ»

• بالطريقة نفسها، فإن روايتي «ماثوركا على ميتين» كانت مأواي إلى جاليثيا، أرضي المحاطة بالأرض، «ماديرا دي بوخ» ستكون مداخلتي إلى جاليثيا على سطح البحر. لكن يجب ألاّ نتحدث عن العمل حتى ينتهي؛ لأننا لا نعرف كيف سيتبلور. هناك حكاية حول اثنين من البشر ينتظران على باب كنيسة حتى يشاهدا تجلياً خاصاً، وقد تساءلا حول أي شبح ديني سيظهر أولاً. وكما يقول المثل الإسباني القديم «إذا ظهر بلحية فهو سانت أنطوان، وإذا لم يظهر فإنه حمْل طاهر». يصدق الأمر نفسه على كتاباتي. إذا لم أنه كتابة كتاب، فليس لذلك الكتاب وجود. وذلك مع أنني أعمل باجتهاد وأكتب كثيراً، لكنك تظلّ محكوماً دائماً بأن يُترك شيء ما وراءك.

> الواقعية هي كل ما يمكن إدراكه بالمشاعر أو بالحدس، وأيا كان الجنس الأدبي الذي يكتب به الكاتب، فهو ابن اللحظة

- صدرت طبعة رواية « خلية النحل» برسوم لورتروجوني في عيد ميلادك. هل تحب ذلك؟

• إنه شيء جميل جداً. تُطبع الكتب بعناية فائقة، في أيامنا الحالية. كان لورتر وجوني فناناً ممتازاً، شديد الارتباط بعملي. لقد رسم عدداً من كتبي. كنا قد أصبحنا أصدقاء بعد فترة قصيرة من نهاية الحرب الأهلية، لكن يصعب التواصل معه؛ لأنه أصم أبكم. لقد تعلّم أن يتكلم، لكنه يطرح صيحة حارة جداً، تجعل من الصعب قليلاً أن يفهم.

- لقد أنهى ابنك كتاباً عنك؟

• إنه أستاذ وعميد قسم الفلسفة في جامعة بالمادي مايوركا. وهو كاتب مقال أكثر منه روائياً. عنوان كتابه «ثيلا أبي»، وأحبّه كثيراً. لقد كتبه من الذاكرة، وإن رجع إليّ في مناسبات معينة؛ كي يستوضح مني بعض الأشياء.

- كيف تتوصل إلى عناوين كتبك؟

• إنها تأتيني جميعاً فجأة، وعادة قبل أن أكتب الكتاب أبدأ بعنوان الكتاب ثم أتقدم. إذا لم يكن لدي فعلاً عنوان، فسيكون من الصعب أن أكتب كتاباً، مع أنه ليس مستحيلاً. أحياناً أعدّل عنواني الابتدائي ككتاب لم يفض.

ـ لماذا سميت روايتك الأولى «عائلة باسكوال دوارتي» بينما في الحقيقة هناك فقط مظهر أسرة؟

• ارتكبت هناك خطأ؛ لأنني توصلت إلى العنوان قبل أن أبدأ كتابة الرواية، ولم أجرؤ على تغييره.

كان المفروض أن أسميها «باسكوال دوارتي» أو «باسكوال دوارتي وأسرته».

ـ حين يقتل باسكوال دوارتي أمه، لا نشعر بأي تعاطف، لكننا نتحرك حين يموت كلبه. كيف نفسّر هذا؟

• لأن الكلب كان ضحية بريئة، بينما كانت الأم مكروهة. وبما أنني جزء من الأنجلوساكسون، فإنني أشعر بشفقة أكثر نحو الكلاب عن الجنس البشري!!

ـ أعدَت عن رواياتك: «باسكوال دوارتي» و«خلية نحل»، و«رحلة إلى القرية» أفلام سينمائية..

• لقد أعدّوا إنتاجاً تلفازيًا جيداً جداً عن جزء من «رحلة إلى القرية». ويعدّون الآن «من المينو إلى البيداسوا» على الرغم من أنني يجب أن أراه أولاً. إنه محاضرة مصوّرة عن رحلة.

ـ ما رد فعلك حول رؤية أعمالك على الشاشة؟

• إنها لغة أخرى، بطبيعة الحال؛ لأن لغة الأفلام تختلف تماماً عن لغة الأدب. أنا سعيد بهذا الإعداد ما دام أنه لايخون عملي، ولم أخَن. أنا سعيد جداً بالفلم الذي صنع عن رواية «خلية النحل».

أعتقد أنه فلم عظيم. وأقول هذا بكل أمانة؛ لأنني لم أعمل على ذلك الإعداد. أعطيتهم حقوق الكتاب، وهم أعدّوه من البداية حتى النهاية.

ـ أنهيت مؤخراً مسلسلاً تلفازيًا حول رواية «دون كيخوته»..

• إنه إعداد محترم جداً لنص سرفانتس، الذي قسمته أجزاء، يتكون كل جزء منها من عدّة فصول.

يتكون الجزآن الأول والثاني من ثمانية فصول، ويحدث كل منها خلال ساعة، لذلك فهناك متأخرات عمل كثيرة، يجب التعامل معها. وقد استبعدت القصص الكثيرة التي تقتحم السرد؛ لأنني فكرت أنها ستجعل الإعداد طويلاً جداً، وتبعد المشاهدين عن الحبكة الرئيسة؛ لذلك حاولت أن ارتبط بالأحداث التي كان دون كيخوته وسانشو بانزا قد تورّطا فيها مباشرة. ولدي آمال كبيرة في المسلسل.

ـ هل أعددت لغة سرفانتس؟

• لقد حاولت أن أحترمها بقدر الإمكان. وبطبيعة الحال، لم يكن ممكنًا تقديم النص بمواصفات القرن العشرين العامية، لأن ذلك سيكون زائفًا، لكنني لم أتمكن أيضًا من أن أترك استخدامات سرفانتس القديمة؛ لأن المشاهدين لن يفهموها. أتمنى أن أكون قد حققت توازنًا معقولاً، لكنني سأعوّل على ما يقرّره المشاهدون.

ـ كيف ترى رد فعل سرفانتس حول فعل إعداد رائعته الفريدة للتلفاز؟

• من الصعب أن تتصور كيف يفكر رجل مات في بداية القرن السابع عشر حول اختراع ابتكر بعد أكثر من ثلاثمئة سنة تقريبًا من موته. وإن كان يمكن الظن أنه يمكن أن يكون مسروراً به.

أومن أن الشخصية إذا ابتكرت جيدًا، يكون على الروائي أن يتبعها، وأن يسجل ما تفعله كتاريخ

ـ خلال افتتاح «ماريا سابينا» في قاعة كارنيجي، ماذا كان رد فعلك حول سماع نصك وقد أعدّ موسيقيًا؟

• لقد استمتعت به كثيراً جدًا جدًا. كان نجاحًا كبيراً في قاعة كارنيجي، كما أقيمت هناك حفلتان أخريان في مدريد. حدث في الأولى نقر مروع بالأقدام، أقدام السيدات بشكل خاص. نقرن بأقدامهن بشدة. وقد سجّلت ذلك على شريط. لعنني السامعون، لكنهم فعلوا ذلك باحترام شديد، مستخدمين الشكل الأدبي لـ (لك) بالإسبانية طبعًا، لأنه عادة حين يلعن الناس، يستخدمون ضمير أنت المفرد. وكانت تجربة سيريالية. في اليوم التالي، جاء أولئك الذين أرادوا فعلاً أن يشاهدوا الحفل. كان النجاح هائلاً، وقد استمتعت كثيراً بمراقبة هذا العدد الكبير من أعضاء الفرقة الموسيقية، الذين كان يقودهم ليوناردو بالادا، الذي كان موزعًا موسيقيًا عظيمًا.

ـ لقد كتبت: شعراً، وقصصاً قصيرة، وروايات، وأحاديث طويلة حول رحلات، وذكريات، ومسرحيات. في أي من تلك الأجناس الأدبية شعرت بسهولة أكثر؟

• أيًا كان نوع الجنس الأدبي الذي يحدث أن أكتب به، فهو ابن اللحظة. وربما أجد سهولة أكثر في سرد قصة.

لكنني كتبت أيضاً مقالات حين أردت أن أقول شيئاً. مع المقالات، هناك حاجة إلى التيبس الفكري، الذي ليس ضرورياً مع أعمال السرد التام، الذي يمكنك أن تفعل فيه أي شيء من خلال شخصياتك، إذا تركتك تفعل.

ـ حين تجلس لتكتب، هل تعرف أنك ستكتب قصة قصيرة أو رواية؟

• أعرف بشكل كبير أو صغير، أنه لن يكون مقال، حين أحسّ هناك شيئاً صلباً في الطريق. وللمثال بدأت أكتب بحسّ جمالي عال ما ظننت أنه يمكن أن يكون رواية، ثم أدركت أنني ليس لدي مادة كافية لها. ما لا يستطيع الفرد أن يفعله في موقف كهذا هو أن يضخّم القصة؛ لأنه لا يمكنك أن تضع جسم فيل في شكل عصفور كناري؛ وإلاّ سيتداعى كل شيء. لذا يجب أن يكون لدى الكاتب شجاعة كافية؛ كي يواجه الحقائق.

ـ ماذا تعني الكتابة بالنسبة إليك؟

• الكتابة بالنسبة إليّ عمل شاق. لدي التزام أن أحقق أفضل عمل أستطيعه. ألا تظنين ذلك؟ سأقول لك شيئاً واحداً: كتاب لي، قد يكون جيداً أو سيئاً، لكنه جيّد بقدر ما صنعته؛ لأنني استخدمت فيه حواسي الخمس. وإذا لم يخرج بشكل أفضل، فقد يرجع ذلك إلى نقص الموهبة. وهذا سيئ جداً؛ لأنني أكتب جيداً بقدر ما أستطيع. الكتابة هي الكتابة، لغة. وكي تكون قادراً على أن تكتب، فكل ما تحتاج إليه أن يكون لديك شيء تقوله. كل ما أعرفه هو أن الكتابة ضرورية بشكل مطلق بالنسبة إليّ. لا أستطيع أن أنخدع بأن أفعل شيئاً آخر بحياتي. ربما كان يمكن أن أكون مجرماً عظيماً أو عادياً. لست متأكداً أيهما! أكتب لأنني استمتع بذلك، وليس لديّ أي قصد بأن تغيّر كتابتي العالم.

ـ تعدّ الكلمة المطبوعة مهمة جداً، بشكل واضح، بالنسبة إليك؟

• نعم، هذا كله هو الأدب. الكلمات هي المواد الخام للأدب. إنها فقط التي تميّز الإنسان من مملكة الحيوان. في اليوم الأول الذي نطق فيه إنسان كلمة دلالة على شيء ما، أخذت الإنسانية خطوة إلى الأمام، أكثر عظمة من اكتشاف أمريكا أو الهبوط على القمر.

ـ يقول بعض الكتّاب: إنهم يرتدون أقنعة. هل تفعل ذلك؟

• لا أعرف، ولا أعتقد أنه شيء جيد، فأنا أضع قيمة كبيرة على الأصالة والإخلاص والتعبير الصادق للحقيقة التي نحملها بداخلنا. ولست واثقاً تماماً من أن ارتداء الأقنعة شيء حسن؛ لأن الكتّاب يخاطرون أن يصبحوا أشخاصاً كاريكاتورية من أنفسهم إذا فعلوا. ويمكن أن تكون هذه نتيجة غير سارة، وليس فقط عند ذكر المصير الأكثر سوءاً بارتداء قناع الموت.

الفرد لا يخلص أبداً لحبه الأول، لذا لا غرابة أن أتحول من كتابة الشعر إلى النثر

ـ هل هناك وقت خاص من اليوم تحبّ أن تكتب فيه؟

• إنني عادة أكتب طوال فترة الصباح، أنام فترة القيلولة، ثم استمر في الكتابة أكثر قليلاً؛ فأنا أكتب بانتظام.

ـ بماذا تشعر حين تكتب رواية؟

• أشعر بارتياح عظيم حين أكتبها، وبشعور عظيم من السلام حين أنهيها. وفي هذا العمر، فإن الشيء الوحيد الذي اهتم به في الأدب، هو عملية الابتكار ذاتها. لا يعنيني الناتج النهائي. إذا صدرت طبعة جيدة لواحد من كتبي، أسعد جداً. إذا أحبها النقاد، أكون ممتناً لهم. وإذا بيعت جيداً، فكلما بيعت أكثر كان ذلك أفضل؛ لأن هذا ما أعيش من أجله. لكنني لا أخذ هذه العوامل في الحسبان عندما أكتب. إن التأثير المجرّد للكتابة هو ما يريحني أكثر في هذه اللحظة من حياتي.

ـ متى تعرف أن الكتاب انتهى؟

• في لحظة معينة أتوقف فقط عن الكتابة؛ وإلا سأقضي حياتي كلها مغيّراً فصلات، وأصبح عصبياً.

وقد حدث هذا، إلى حد ما، لخوان رامون خيمنيز، الذي كان ينشر قصيدة يعدّها جديدة كلّما غيّر فيها فصلة. أما أنا فبمجرد أن ينشر واحد من أعمالي مرّة، لا أغير فيه إطلاقًا. حتى إنني لا أصحح بروفات كتبي، سكرتيرتي تفعل ذلك.

ـ ما رأيك في المؤلفين الذين لا يستخدمون فترات توقف؟

• لقد كتبت بعض كتب دون فترات توقف، لم يكن فيها خطأ ما؛ لأن القارئ يضع فترات التوقف بنفسه. مع ذلك، إذا كنت ستضع فترات توقف، فيجب أن تضعها في المكان الصحيح. وهذا للتنبيه.

ـ هل تفكر في القارئ حين تكتب؟

• لا، لسوء الحظ، فقد وُجد عدة آلاف من القراء ـ مؤخرًا ـ يفكرون بالأسلوب الذي أعمل به، وهم متشوقون بانتظار كتابي الجديد. لكنني لا أفكر أبدًا فيهم. قد يعدّ ذلك خطأً، وإذا لم يكن فلنتجاوزه.

ـ هل تتوقع أن يؤدي قراؤك دورًا نشيطًا؟

• على الإطلاق. في هذه الأيام، تتطلب الروايات جهدًا في الجزء الخاص بالقارئ، بينما في القرن التاسع عشر كان كل شيء معدًا للهضم.

ـ قلت «أي شيء ليس تواضعًا، أو هو تواضع مصطنع، يعدّ غير ضروري في أمتعة الكاتب». هل لديك قواعد أخرى تحب أن تشارك شباب الكتّاب فيها؟

• يجب أن يكتب الفرد بتواضع مطلق، ودون الاعتقاد بأنه سيبعث ثورة في عالم الأدب؛ لأن الكاتب الذي يعتقد أنه مركز العالم هو لا شيء وغبي ميؤوس منه. يؤمن بعض الكتّاب بذلك؛ لأن لهم رواية نشرت في برشلونة مع بعض النجاح التجاري، وأنهم أصبحوا عباقرة. إنهم مجرد شباب لا جدوى منهم، يصطادون في مياه مملوءة بالطين، ولن يذهبوا أبعد من ذلك. يجب وضع هذه الحقيقة في الحسبان: إذا لم يوجد أبدًا سرفانتس ودانتي، وشكسبير، فلن تكون تلك نهاية العالم، لكنهم وجدوا، وأنا مقدّر لذلك.

ـ هل ترى أن هناك بعض تشابه بين أعمالك وأعمال كتاب أمريكا اللاتينية؟

• تعدّ اللغة أداة مشتركة بيننا، وليس ذلك مصادفة. أعتقد أنه كان هناك دائمًا رواية عظيمة في أمريكا الإسبانية. تعد أعمال رومولو جاليجوس، وريكاردو جيرالدز، وبنيتو لينش، وميجل آنجل استورياس أكثر أهمية من هؤلاء الكتاب المعاصرين. لقد وُجد دائمًا هناك مؤلفون عظماء في أمريكا اللاتينية.

ـ ما رأيك في الاحتفالات القادمة في الذكرى المئوية للملكية؟

• إنه موضوع حسّاس، في أفضل الأحوال، أنا لا أعرف هل سينظر بشكل إيجابي إلى تلك الاحتفالات.

أعتقد إن أسبانيا يجب أن تتقدم بحذر، دون تبنّي أسلوب أبوي، ودون تذكر للإمبريالية.. إنه مزاج لسوء الحظ، فإن المفكرين هجروا هذا المجال، فسقط بين أيدي السياسيين.

ـ هل تحدثنا عن دورك في إعداد دستور إسبانيا الجديد ودورك عندما كنت سيناتورًا؟

• نحن نعمل جميعًا بنجاح، كثر أو قل، في إعداد الدستور. بصفتي سيناتورًا مستقلاً معينًا بواسطة الملك خوان كارلوس، لست عضوًا في أي جماعة سياسية، وإنما أنتمي إلى جماعة أقلية تسمّى «كتلة مستقلة». وهناك ثلاثة عشر عضوًا منا، عُيّن كل واحد منا بواسطة الملك. وكي أعطيك فكرة عن هذا التأثير، عُيّن أيضًا خوستينو دي آزكارات كي يرأس الأقلية، مع أنه كان وزيرًا جمهوريًا وعاش في المنفى، في فنزويلا خلال كل عصر فرانكو. في اللجنة الدستورية، وُفق على كل اقتراحاتي، لكن حين وصلت إلى جلسات الربط، كوّن الاشتراكيون والمركزيون إجماعًا، لذلك خسرت بطبيعة الحال، ومنذ ذلك الوقت أقف وحيدًا. حقيقة الأمر، أنني لم أخسر كل ما عرضت؛ لأن ما أردته هو أن يؤخذ بوجهة نظري في المحاضر الرسمية للجلسات. وكل شيء قلته موجود هناك عدا شيء واحد رجوني أن أستبعده، وهو ما لن أكرّره هنا، وإلاّ فلن ينشر كتابك. لقد شعرت أن من واجبي أن أكون في مدريد في ذلك الوقت؛

كي أؤدي الواجبات التي عينني الملك من أجل تنفيذها.

- لقد قلت «أنا درست في مدريد وسالامانكا. درست الطب ولم يحدث شيء. درست الفلسفة ولم يحدث شيء. درست القانون ولم يحدث شيء. إنه أمر غريب، فليس لدي شهادة جامعية في أي شيء، لكن لدي عدة شهادات دكتوراه». ما هو رد فعلك تجاه درجات الشرف الكثيرة التي حصلت عليها من أوربا وأمريكا؟

* كان رد فعلي على أول دكتوراه فخرية هو الدهشة والامتنان. كانت من جامعة سيراكيوز، جامعتي الأم بأمريكا الشمالية، وقد استلمت عدة درجات فخرية منذ ذلك الحين حتى الآن. وكلّما حصلت على واحدة أخرى، بدت أمرًا طبيعيًا أكثر. إنه الشيء نفسه مع الشوارع التي سُميت باسمي، وحين مرت أربعة أشهر أو خمسة دون أن يطلق اسمي على شارع جديد تشريفًا لي، اعتقدت أن الأمر يسوء. لقد اعتدت هذا، كما اعتدت أي شيء آخر. ولكن بطبيعة الحال، يجب أن تعدّ ذلك أمرًا عرضيًا، وألاّ تدعه يسكن رأسك؛ لأنك إذا اعتقدت أنك مهم لأن لديك دكتوراه أو سبع دكتوراه، فلست أكثر من غبي ومغرور؛ لأن الإنسان هو نفسه تمامًا، بعد حصوله على التشريفات، كما كان قبل ذلك، أو هذا ما يجب أن يكون.

- لاحظت أن منزلك مملوء بالتذكارات ومحاط باللوحات. هل ترسم؟

* اعتدت ذلك، وأود أن أرسم مرة أخرى، ولكن ليس لديّ وقت. أحبّ الفن التشكيلي، ولكني مغرم أكثر بالرسامين الإسبان، مثل: بيكاسو، وميرو، وسولانا، وزولوجا، وتابيس، وزابالتا، الذين تزيّن أعمالهم المكان من حولك.

- البورتريه الشخصي، الذي رسمه لك جون ألبريشت، يعدّ خارقا بشكل خاص..

* إنه فنان من أمريكا الشمالية، يعيش في جزيرة مايوركا

- هل تعد الحياة في قُطْر مهمة جدًا بالنسبة إليك؟

* لا تنسي أنني وُلدت في جاليثيا، لذلك ربّما أكون مغرمًا بالطبيعة والأماكن الواسعة، والبحر، والجبال، فكل الطبيعة تعد مهمة.

- سمعت بعض الطيور في خلفية المكان..

* لدي قفص واحد كبير جدًا بعيدًا هناك في الخلفية، حيث احتفظ بطيور الببغاء والقُمْرية، وهي تعيش معًا في حرية كالأقارب. إنها تتكاثر في الأسر، لذلك لن يكون الأمر بهذا السوء. لديّ أيضًا كلاب صيد سلوقية فارسية وكلاب أرديل صغيرة نشيطة. إنها في منزل بالباب التالي، وقد اشتريته؛ لأنني أحتاج إلى أكثر من غرفة لكتبي. لقد بنينا هذا المنزل بأنفسنا.

- لقد كتبت بعض تأملات فلسفية علام يعنيه البيت بالنسبة إليك؟

* وُلد البيت من حب الإنسان للأرض، بحوائط تخدم كمأوى - وتمنحه حس البناء والنظام. لكن هذا النظام يجب أن يكتسب، أحيانًا يكون على حساب الصحة والرعاية العقلية. إذا لم يتمرس الإنسان بالتحكم في الذات، سيكون صعبًا جدًا تصوّر أنه يمتلك أي شيء.

- لابد أنه قد أجرى معك أكثر من ألف حوار، وأعتقد أن كل حوار يبدو بالجمال نفسه بالنسبة إليك.

* لقد قلت دائمًا: إن نجاح الحوار يعتمد على المحاور، وليس المتحاور معه. إذا كان المحاور يسأل أسئلة ذكية، فإنها تستخرج أجوبة ذكية. وبطبيعة الحال، هناك بعض المؤلفين ليسوا مغرمين بالحديث، مثل أزورين أو جيراردو دييجو. ولكنني لست واحدًا منهم. وآمل أن يستمر حوارنا الطويل سنوات عدة قادمة.

الهوامش

* هذا الحوار من كتاب «حوارات مع كتاب إسبان»، ماريا - ليز جازارين جيتار، الصادر عن Dedke'y Archive Press بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩١م.
* من الأعمال التي ترجمت لكاميلو خوسيه ثيلا إلى اللغة العربية:
- رواية «طرق ضالة: خلية النحل» ترجمة د. سليمان العطار، دار سعاد الصباح، القاهرة ١٩٩٢م.
- كتاب «رحلة إلى القرية»، ترجمة د. محمد أبو العطا، دار سعاد الصباح، القاهرة ١٩٩٣م.
- رواية «لحن ماثوركا على ميتين»، ترجمة علي أشقر، دار المدى، دمشق ١٩٩٩م.
- رواية «عائلة باسكوال دوارتي»، ترجمة رفعت عطفة، دار المدى، دمشق ٢٠٠٠م.
- الصور: أرشيف «الفيصل».

الخيمة

عبدالله بن صالح الوشمي
القصيم - السعودية

رائحةُ الرحيلِ والقهوةِ والضيوفْ.
في خاطري تطوفْ.
وشعلةُ الحروفْ.
تنثر في دمائي النارَ وفي عيوني القطوفْ!
والليل والشعر، على بساطي الملفوفْ،
تكاد أن تبوح بالألوفْ!
ذاكرتي أكبرُ من ذاكرة الحروفْ.
أخطُ في الرمل: أنا رسالتي...
وخلفي الجموعُ والحتوفْ!
هذا أنا الخيمةُ - يا سائلتي -
خارجةٌ من فشلِ القصورِ والكهوفْ!
أحملُ ألفَ ليلةٍ...
والشعرَ والأشواقَ والدفوفْ.

ooo

أنا هنا قبلَ مجيء النفطِ في بلادنا
وقبل أنْ يحترقَ الإنسانْ!
أنا التي أحملُ في ذاكرتي
عروبةَ البيدِ إذا آلمها الزمانْ.
أنا العصافيرُ التي تحنُ فوق الزهر والأغصانْ.
تحنُ للأوطانْ.

ooo

كنتُ هنا أمتدُ فوق رملِهِ الذهبْ.
وألمحُ البدرَ على فراشهِ
والنجمَ كالهدبْ.
في هذه البيدِ التي...
تعزفُ في ربوعها الجنُ وحولَ نارها يجتمعُ العربْ
مازال صوتُ شاعري يملأ هذي البيدَ بالعجبْ.

ooo

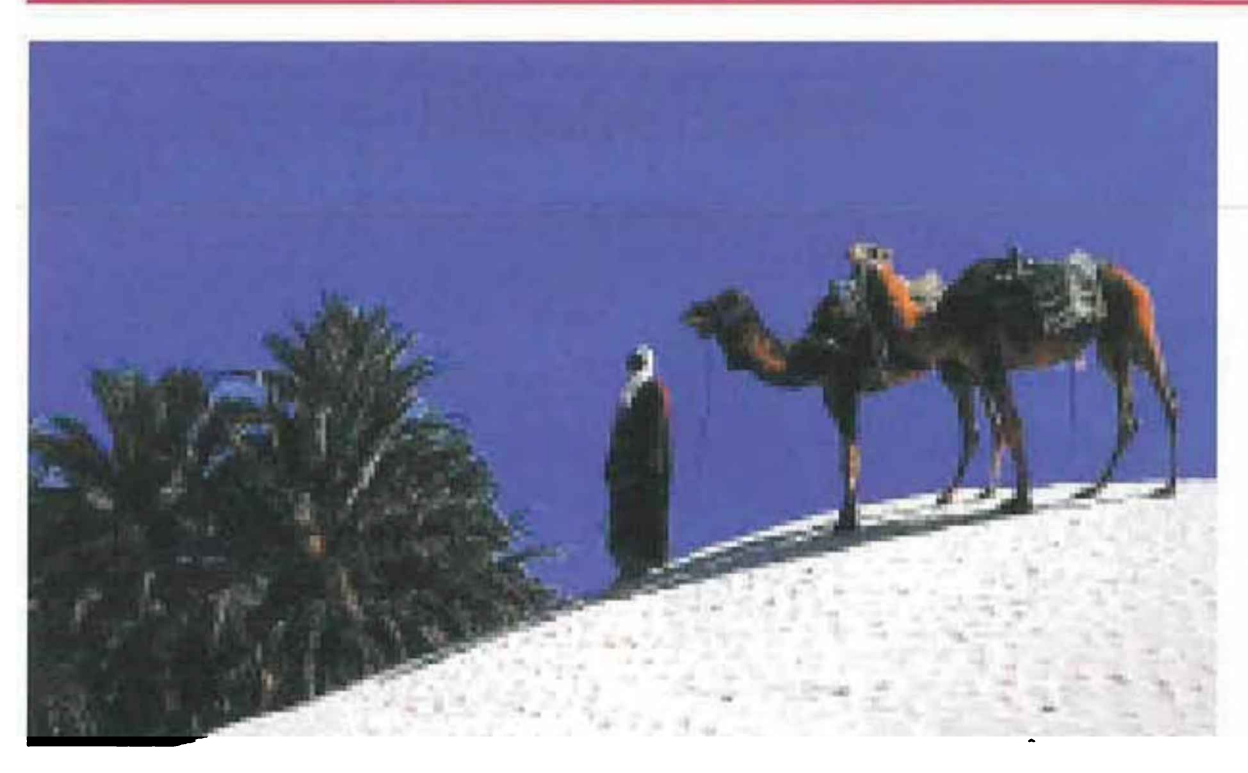
من زجلِ الجنّ، ومن عواءِ الذئب، من تمتمةِ الرقاةْ!
من التباشير التي ينثُرها الفجرُ على مضاربِ البدو،
ومن أدعيةِ الصلاةْ!
أخرجُ من رائحةِ العرفج، والشيح، ومن حداءِ
الركب، والرعاةْ؛
أخرجُ للحياةْ.

ooo

يخرجُ فارسي والليلُ مغمضُ العيونْ.
يخرجُ في الفجر إلى حرابِهِ.
حيثُ الوحوشُ والجيوشُ والحصونْ.
يكونُ أو يكونْ!
(الله ما أعذب أن يكون!)

ooo

وفي المساءِ يرجعونَ...
يرجعونْ.
لصدريَ الحنونْ.



يعودُ نحو حائطي الرعاةُ والقطعانْ.
تعودُ ميسونُ إلى خبائها
وترفض الشفوفَ والغلمانْ.
ذوتْ على جفونها الشطآنْ.
وأزهرت سنبلةُ الأوطانْ.
يعودُ فارسي العبسيّ كي يطلبَ في عيونيَ الأمانْ
والشعرَ والحنانْ!

ooo

أنا هنا سيدةُ الصحراءْ!
النوقُ والشعرُ وهذا الماءْ!
جميعُها... جميعُها:
تخرجُ من عباءتي السوداءْ.
ووحدةُ الليلُ ينام فوق دفتري..
عاشقةٌ وعاشقٌ ولهانْ!
والنارُ!
مازال رمادُ النار في اتقاده..
يضيئهُ الليلُ وفي هجودهِ
أمنحُه الأمانْ.

ooo

لوني أنا! لوني: هو السوادْ.
كالليل، لوني دائمًا، هو السوادْ.
والآن لوني أسودٌ:
كي أبدأ الحدادْ!!

ooo

لا تهجروني دائمًا
فإنني..
أخافُ أن يذوبَ هذا الملحُ، أو تشتعلَ النيرانْ.
أخافُ من خاتمة المنبتِّ لا أرضَ ولا حصانْ.
أخاف من جائحةِ الزمانْ.
إذا الحبيبات قُتلْنَ ها هنا.
فإنني..
أخاف من قيسٍ إذا يعود للأوطانْ!

أنشودة الوقت

صالح الحميدان
الرياض - السعودية

سـهـوبٌ غـرابُ البين فـيـهـا يَنوسُ
لـهُ كُلَّ يـوم في مَـداها طَقْــوسُ
وعَـيْنٌ بـهـا الودادُ يرنو ضـغـيـنةٌ
إذا حــركت طرفــا تداعت رؤوسُ
وصارت عيون السرب في الأرض أرنبا
تروّعـهـا الأشـبـاح سـحـرًا يجـوس
تعــيش إذا عـــاشت يلزّ نزيزها
ذباب الظلالات العَـمُـوسُ النّهُـوسُ
ويَنسل في الأحـلام سـلاً مُـسـاورًا
يَقيءُ ظلامًا فيه تشقى الشموس
وذلك طبعٌ في الغـراب صَـفـارَةٌ
أشـدُّ سُـعــارًا إذْ تئنُّ الرمــوس
فكُنْ أنتَ مـا عَـيناك تقـفـو ضَـبَـابَةً
ولو غَلَّ في مسعاك ضَبعٌ خَنوسٌ
ودَعْ عنك قلبًا لا يُرامي شـجـونه
بسـوقٍ قـديم مـا رأته الفلوس
إلى أن ترى الشاري يزفّ بضاعة
أعـز عليـه من رضـيـع يلوس
فليس الذي ترقى خطاه ميـاهه
كمثل الذي ترقي خطاه الدروس
وليس الذي نارا تنج ظنونه
كمثل الذي دُوداً تضمّ الطروس
تلوتك إذ أنت الكليم سكونه
رشحتك جمرًا تستقيه الغروس
جذوتك روحي قبل عقلي لأنني
سمعتك صوتًا واهجته النفوس
وتلك سبيل سرت فيها جسارة
وجسرًا إلى سيل سناه يسوس
صُدورًا صِباها قد صلاهُ صَبابةٌ
صَهيلُ صَباح مَحصّنتهُ عروسٌ
دنوت إلى بئر مَـدينَ نديمها
بدام منَ الدنيا دعته الحدوس
إذا شفَّ من مـزّت رؤاه سنينه
رأيت به برقا فتيّا يعوس
وهبَّ يناجي في الكتاب مَريدةً
تروم انعتاقًا قد برتها الحبوس
تروغ عن الأيام وتلك تنوشها
وكلَّ العصور في هواها أموس
رَؤودٌ مع الأنفاس تنوي فضاءها
تلظّى ولو حتى غشاها الجَموس
تهزّ جَناحي مُشرئب لصيحة
يصير بها موتًا وبدءًا يطوس

العيون الحور

جرير*

يا أمّ عمرو، جزاكِ اللهُ مغفرةً
ردّي عليّ فؤادي كالذي كانا

ألستِ أملحَ من يمشي على قدمٍ
يا أملحَ الناسِ كلّ الناسِ إنسانا

يلقى غريمُكمُ من غيرِ عُسْرتِكمْ
بالبذلِ بُخلاً وبالإحسانِ حِرمانا(١)

قد خُنتِ من لم يكن يخشى خيانتَكمْ
ما كنتِ أولَ موثوقٍ به خانا

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيّمَني(٢)
لا أستطيعُ لهذا الحبِّ كتمانا

كاد الهوى يومَ سلمانَيْنِ يقتلني
وكاد يقتلني يومًا بِبَيْدانا

لا باركَ اللهُ في من كان يَحسَبُكم
إلا على العهدِ حتى كان ما كانا

لا باركَ اللهُ في الدنيا إذا انقطعت
أسبابُ دُنياكِ من أسبابِ دنيانا(٣)

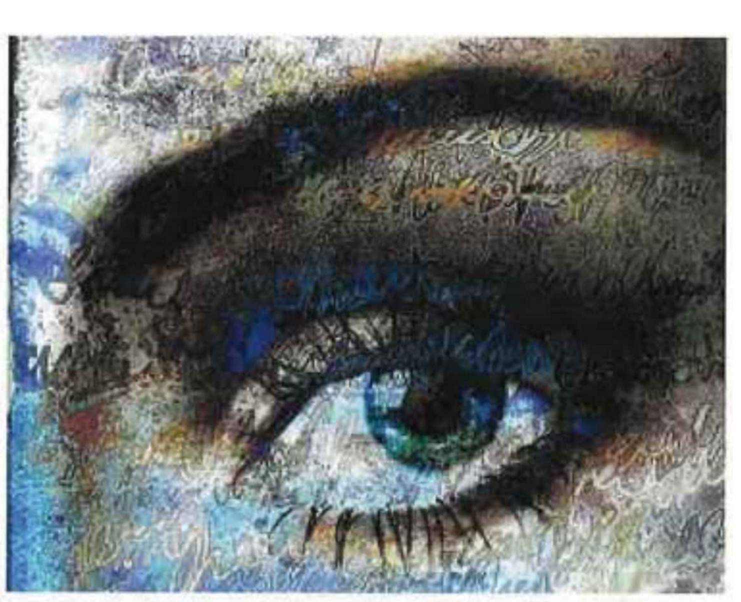
ما أحدثَ الدهرُ مما تعلمين لكم
للحبلِ صَرْمًا ولا للعهدِ نسيانا(٤)

إنّ العيونَ التي في طرْفِها حَوَرٌ(٥)
قتلْننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

يَصرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَراكَ به
وهُنّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانا!

يا حبّذا جبلُ الريّانِ مِنْ جبلٍ
وحبّذا ساكنُ الريّانِ مَنْ كانا(٦)

وحبّذا نفحاتٌ من يمانيةٍ
تأتيك من قِبَلِ الريّانِ أحيانا(٧)



الهوامش

١. الغريم: الدائن. وهنا: المحب، بمعنى أنا أبذل نفسي لك وأنت تبخلين علي.
٢. تهيّمني الحب: كاد يذهب بعقلي.
٣. لا لذة للعيش إذا ابتعدت عني أو ابتعدت عنك.
٤. الصرم: القطع والهجر والبعد.
٥. الحور: شدة سواد السواد وبياض البياض في العين.
٦. الريان: جبل لبني عامر بن صعصعة.
٧. اليمانية: ريح الجنوب. ما أحلى النسيم الذي يأتي من الجنوب.

* هو جريرُ بن عطيّة بن الخطفى (وهو حذيفة) بن بدرِ بن سلمة بن عوف بن كُليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. وهو يلتقي بالفرزدق في جدّهما الأعلى تميم. وأمه هي أمّ قيسٍ بنتُ معبد من بني كُليب بن يربوع. وكذلك كانت جدته لأبيه، وهي النوار بنت يزيد، من بني كليب.

وُلِد جرير سنة ٣٠هـ (٦٥٠م) ونشأ فقيرًا يرعى إبل قومه، وبدأ نظم الشعر في مطلع حياته رجزًا، منذ المهاجاة بين غسان بن ذُهيل وبني الخطفى، في أيام معاوية في الأغلب. ثم إن جريرًا مدح يزيد بن معاوية وأخذ منه جائزة كانت أول جائزة نالها من خليفة. بعد هذا عاد إلى اليمامة.

وظل جريرًا أثيرًا عند الوليد بن عبدالملك، ولكنه هجر البلاط الأمويّ في أيام سليمان (٩٦ ـ ٩٩هـ) وفي أيام عمر بن عبدالعزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ). غير أنه عاد فمدح يزيد بن عبدالملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ)، وهشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ).

وكانت وفاته باليمامة سنة ١١٤ أو ١١٥هـ، بعد وفاة الفرزدق بستة أشهرٍ أو بعام واحد.

ـ المصدر: تاريخ الأدب العربي، د. عمر فرّوخ، ج١، ص ٦٦٤ ـ ٦٧٥، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١م.



زوج الاثنتين

صبحي أسعد عودة
دمشق. سورية

بعد عامين من النكبة، وفي ليلة ممطرة شديدة الظلام، خرج من أحد البيوت العربية في حيفا رجل في العقد الخامس من عمره يرتدي ثوبًا «قمبازًا» وقد تلثم بغطاء رأسه فلم يبدُ من وجهه إلا عيناه.

رفع طرفي ثوبه وأدخلهما تحت حزام سرواله كيلا يعيقه في سيره وليجنبه التلوث بذبالة الطريق إذا ما غذّ السير. عليه أن يكون خارج حدود المدينة قبل بزوغ الشمس وأن يبلغ أقصى مدى بأقل وقت ممكن خشية أن تفسد زوجته بغيرتها ما أزمع القيام به.

إنها الآن تغط في النوم، وهي في نومها لا تبدي أي حركة، بل هي أشبه بنورج ملقى على أرض بيدر مهجور. حين تستيقظ لن ترتاب في أمره، فهو من عادته أن يصلي الفجر في المسجد ومن ثم يذهب إلى «الحسبة» سوق الخضراوات، فيتسوق لمحله ولا يعود إلى البيت قبل الغروب.

سيتخذ سبيله وسط الحقول مبتعدًا ما أمكن عن طرق السيارات وأعين الصهاينة. لن يعجزه ذلك أبدًا. طالما جاب البلاد سعيًا وراء الرزق أو بحثًا عن مواقع الثوار لتقديم العون وتبليغ الأوامر لهم.

أخذ يغذ السير بعد أن أصبح بعيدًا عن حيفا. فما يكاد يجتاز بستانًا حتى يستقبله آخر. وإذا ما جنّ عليه الليل اتجه إلى أقرب قرية فيبيت فيها، ثم يستأنف سيره بعد صلاة الفجر بصحبة أحد رجال القرية فإذا ما بلغ مأمنًا عاد صاحبه. فلما أشرف على بلدة الحولة توجه من فوره إلى بيت صديق صباه وشبابه فأدركه.

- يا حاج أنت تضع روحك على كفك، عبور الحدود ليس بالأمر الهين.

- يا أخي إن حياتي ليست بأعز من أولادي. يجب أن أجدهم وأعود بهم. لن أتركهم يتسولون. كنت أعلم أنهم في مأمن مع أمهم وأهلهم. لكن الأمر اختلف الآن.

أمهم ماتت. وهم صغار يتسولون في شوارع دمشق.

قال الشيخ علي وقد أدرك أن لا فائدة ترجى من محاولة إقناعه بالعزوف عن مرامه: «الصباح رباح. اهدأ سآتيك إن شاء الله برجل تمرس عبور الحدود ويعرف كل تحركات الصهاينة».

نظر الشيخ علي طويلاً في وجه الحاج أسعد. لم يعد ذلك الشاب الوسيم. إن السنين حفرت خطوطًا في وجهه وتركت بصماتها على هامته لكنها لم تشكم عنفوانه أو تنل من روحه وقوة عزيمته. إنه هو هو أسعد الذي كان يأتيه، رغم منع التجول، بأخبار الثورة وتعليماتها أيام الشيخ عطية وعز الدين القسّام. كان يأتي تارةً على هيأة متسول وأخرى على صورة درويش رث الثياب كث اللحية قذر المظهر. تذكر أيضًا كيف كان يغزو على معسكرات الإنجليز، وهو شبه عريان، وقد طلى جسده بالزيت، ليحصل على السلاح دون أن يتمكن الجند من الإمساك به.

- لقد جنيت على نفسك وعلى أولادك بزواجك من امرأة ثانية لماذا لم تبقهم معك؟

- بودي لو استطعت ذلك. حين سقطت حيفا في يد الصهاينة كانوا مع أمهم في قرية الطيرة فلما سقطت الطيرة أيضًا خرجت بهم مع من خرج إلى الشام. وبقيت هنا مع زوجتي الثانية.

أمضى ليله وطوال نهاره داخل البيت بعيدًا عن العيون. ولما حلّ الظلام دخل الغرفة مضيفه بصحبة شاب أسمر مربوع القامة فلسطيني السحنة.

ـ يا حاج هذا هو الشاب الذي حدثتك عنه. إنه سيرافقك ويعبر بك إلى أرض عربية غير محتلة.

ـ هيا بنا الآن يا عم فهذا أنسب وقت للعبور. إن الثلج الذي يهطل الآن خارجًا هو عون لنا الآن. فجنود الصهاينة يدخلون جحورهم طلبًا للدفء. أما إذا طال بنا المكوث فلن نتمكن من العبور. الثلج يقارب ارتفاعه المتر أحيانًا في هذه المناطق.

في الطريق أخذ يسأل الشاب عن أناس يلجأ إليهم بعد اجتياز الحدود. أرشده الشاب إلى قريب له يسكن قرية حدودية. إنه سيقدم لك العون قل له «الكف الأسود» لا تنس هذه العبارة. إنه سعيبر بك وبأولادك الحدود حين تعود بالسلامة.

عاد الشاب بعد أن أدى مهمته. وتابع الشيخ سيره منفردًا. شعر وهو يصعد الهضبة أن قدميه قد بترتا ولم تعودا جزءًا منه. إن البرد يتسرب إلى صدره وسائر جسده رغم الفروة السميكة التي يرتديها وقد زاده ضيقًا وتبرمًا ذلك السيل القطبي السماوي المنهمر دون انقطاع ولا يكف عن لطم وجهه والتراكم على أهدابه وحاجبيه وشاربه ولحيته. وزاد الطين بلة أن انفتق جلد فردة حذائه فتسرب الثلج والطين فتغلغل بين أصابعه فأصبح الحذاء عبئًا عليه فلم يجد بدًا من خلعه والسير حافي القدمين على الثلج والأشواك المطمورة تحته.

طرق الباب طرقات أودعها كل ما تبقى لديه من قوة ثم استند إلى الباب. فتح الباب فهوى إلى الأرض.

ـ الكف الأسود يقرئك السلام و............ .

بقي في ذلك البيت أيامًا ينتظر عودة الرسول بأنباء عن أولاده فلما أتاه الخبر أسرع بالرحيل. قيل له: إنهم يقيمون في مسجد صغير في حي العمارة مع ثماني عائلات يفصلهم بعضهم عن بعض جدران جعلت من الشراشف والحرامات. فكان لكل عائلة شبه خيمة هي لهم غرفة نوم وجلوس ومطبخ و......

ـ يا أصحاب البيت. يا صبحي. يامحمد.

ـ تفضل ادخل.

أزاح باب الخيمة ثم أحنى رأسه قليلاً كي لا يرتطم رأسه بسقف الخيمة المنخفض نظر في الخيمة ليرى أولاده. رأى وجهين صغيرين تحدق أعينهما به.

ـ «أبوي. أبوي... جاء بابا».



طار قلبه فرحًا برؤيتهما فأخذ يقبلهما ودموع الفرح في عينيه. أنسته الفرحة وخز الشوك في قدميه حتى إنه لم يلحظ المرأة التي كانت جالسة بالقرب منهما. هرعت إليه فرحة ترحب به وتهنئه بالسلامة.

ـ أهذا أنت؟

ـ نعم أنا. لم تتوقع أن تراني على قيد الحياة، أليس كذلك؟

ـ إذن هو أنت من اختلق تلك الكذبة. إنها من كيدك.

ـ تريد أن تبقى عند الفحماوية (من قرية أم الفحم) أليس كذلك؟ نسيت أن لأولادك وزوجتك عليك حقًا.

جلس على الحصير البالي دون أن ينبس ببنت شفة. تراءت له صورة أخته وهي تغني ساخرة منه، حين علمت بزواجه الثاني، تلك الأغنية الشعبية الفلسطينية الشائعة:

مُعثَّر يازوج الاثنتين (كثير التعثر)
مُعفَّر يا زوج الاثنتين (مُعفر بالتراب)
مُشحْور يا زوج الاثنتين (مشحور بالهباب).

نقطة العبور إلى الشمال

للروائي المكسيكي: خوان رولفو

ترجمة: علي عبدالرؤوف البمبي

طنطا - مصر

ـ أنا مسافر إلى مكان بعيد، يا أبتاه. أتيت لأحيطك علماً بهذا.

ـ وإلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى الشمال.

ـ ولماذا تذهب إلى هناك؟ أليس لك عمل هنا؟! ألا تعمل في تجارة الخنازير؟!

ـ كنت. أما الآن فلا. الأسبوع الماضي لم نجد ما نشتري به طعاماً، والأسبوع الذي قبله أكلنا سلقاً فقط. الجوع منتشر انتشار النار في الهشيم، يا أبتاه؛ لا تصلك رائحته لأنك تعيش في بحبوحة.

ـ ما تعني؟

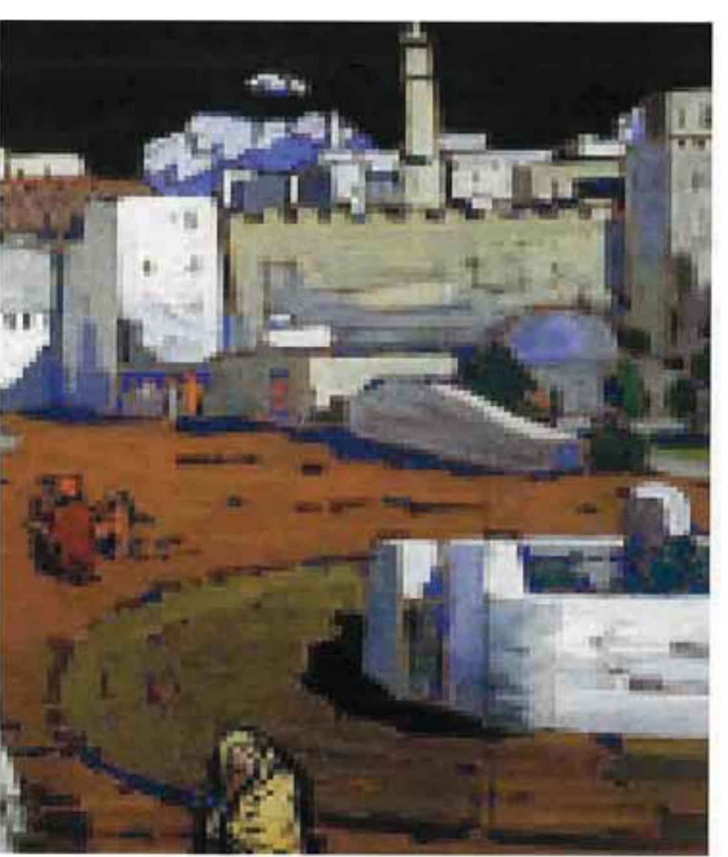
ـ أقصد أن الجوع في كل مكان، وأنك لا تحس به. تبيع أسلحة وذخيرة وبارودا وبأثمانها تقضي حوائجك وزيادة. وما دامت الحروب والنزاعات لا تنتهي سيظل المال ينهمر عليك كالمطر؛ لكن حالتي مختلفة، يا أبتاه.

لم يعد أحد يُقبل على تربية الخنازير في وقتنا الراهن. وإذا رباها تأكلها أنت وأمثالك. وإذا باعها فبأسعار مرتفعة. وفوق هذا وذاك لم يعد المال اللازم لشرائها متوافراً. تجارة الخنازير عفّى عليها الزمان، يا أبتاه.

ـ وماذا ستفعل في الشمال، بحق الشياطين؟

ـ أجمع المال. ألم تر كيف عاد «الكارميلو» غنياً؟! لقد أحضر حتى حاكياً (جرامافون) ويتقاضى على كل رأس خمسة ملليمات مقابل سماع موسيقاه.

يذيع فيه كل ألوان الموسيقى من أولى الرقصات وحتى الأغاني الحزينة لتلك المغنية التي يسمونها «لاأنديرسون»؛ كله بتعريفة موحدة، والناس يتزاحمون في صفوف من أجل السماع وليعمروا جيوبه بأموال وافرة. وكما ترى؛ فليس



عليّ أكثر من الذهاب والعودة. لهذا حزمت أمري وقررت السفر.

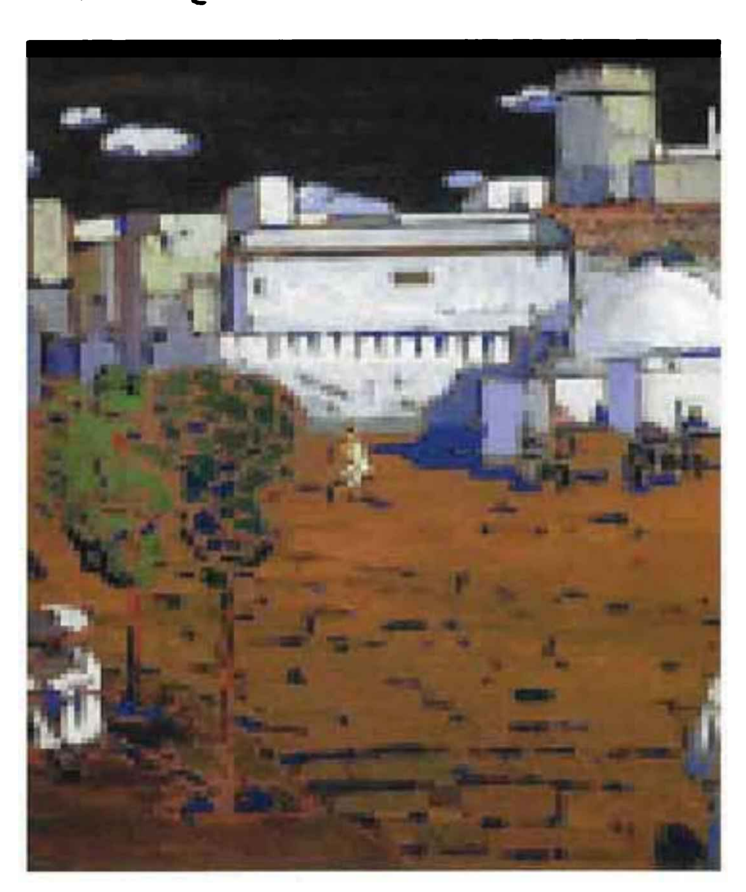
ـ وأين ستترك زوجتك وأولادك؟

ـ جئت إليك من أجل هذا، لكي تتولى رعايتهم.

ـ أتظنني مرضعتك؟ إذا ذهبت فأمرك وأمرهم على الله. لا أطيق الآن تربية الأطفال، لقد أدّيت ما عليّ وزيادة بتربيتك أنت وأختك، عليها الرحمة. من اليوم فصاعداً لا

أريد تحمل أدنى مسؤولية. وكما يقول المثل: «وإذا كان الجرس لا يدق فلأنه يخلو من المدقّة».

ـ لا أدري ماذا أقول، يا أبتاه، لقد حيرتني. ماذا استفدتُ من تربيتك لي؟ أعمال شاقة متواصلة. لقد تركتني وشأني بمجرد أن تفتحت عيناي على هذا العالم. لم تعلمني حتى صناعة السلاح، كما لو كنت تخشى منافستي لك. ألبستني قماطاً وإزاراً وألقيت بي في عرض الطريق لكي أتعلم العيش من كدّي، والآن تردُّني من بيتك خاوي الوفاض. والنتيجة: أننا هالكون لا محالة من الجوع. أحفادك وابنك



هذا وزوجته، أي كل سلالتك، على وشك أن يلفظوا الأنفاس جوعاً. أتعتقد أن هذا عدل أو مشروع؟

ـ وما علاقتي أنا بكل هذا؟ لماذا تزوجت؟ لقد تركت البيت دون أن تفكر في استئذاني.

ـ فعلت هذا لنفورك المستمر من «لاترانسيتو». كنت تسيء معاملتها دائماً كلما أحضرتها، ألا تذكر أنك لم تكلف خاطرك برؤيتها عندما جاءت أول مرة: «ها هي ذي، يا أبي، الفتاة التي أنوي الزواج بها». عندها أخذت تتكلم بالشعر وقلت: إنك تعرفها بما فيه الكفاية، كما لو كانت إحدى الساقطات. وتفوهت بجملة من الأشياء لم أفهمها لهذا السبب لم أحضرها ثانية. لا أطلب منك الآن سوى رعايتها لأن قرار سفري لا رجعة عنه. لا يوجد حالياً أيّ عمل هنا، ولا حتى أمل فيه.

ـ هذا محض افتراء. بالعمل يجد الإنسان ما يطعمه، وبالطعام يعيش. لقد بلغت من الكبر عتياً ومع هذا لا أشكو. ومنذ أن كنت شاباً يافعاً لم يرد على لساني مثل هذا الكلام؛ كان معي ليس فقط ما يكفيني بل ما يغطي نفقات مغامراتي النسائية التي لا تحصى. عائد العمل لا يغطي جميع المتطلبات بما فيها جميع الغرائز الجسدية. كل ما في الأمر أنك أحمق. ولا تقل لي: إنني علمتك هذا أيضاً.

ـ لكنك والدي. وكان الأجدر بك أن تضعني على الطريق الصحيحة، لا أن تطلقني كجواد جامح بين حقول الذرة.

ـ كنت فارع الطول يوم أن تركت البيت. أكنت تريد مني تحمل مسؤوليتك إلى الأبد؟! المحالي وحدها هي التي ترتبط بمخابئها حتى ساعة موتها. اعترف أن الأمور سارت معك على ما يرام، وأنك تزوجت، وأنجبت أولاداً، كثيرون غيرك لم يعرفوا هذا طوال حياتهم، مروا على الدنيا مرور الكرام مثل مياه الأنهار، دون أن ينعموا بمشرب أو بمأكل.

ـ لقد ضننت عليّ حتى بتعلم القريض الذي تبرع فيه. ولو علمتني لكنت كسبت على الأقل شيئاً من وراء تسلية الناس به كما تفعل. قلت لي يوم طلبت منك ذلك: «عليك بتجارة البيض، ودع نظم القصائد لغيرك». وبدأت بتجارة البيض لأتحول إلى الدجاج، ثم إلى تجارة الخنازير التي تمتعت في كنفها بالسُّتر، كما يقولون. لكن المال ينفد؛ يأتي الأولاد ويرتشفونه كالماء لكي لا يبقى منه شيء لمزاولة المهنة، وفي الأيام لا يوجد من يضع ثقته في رجل مفلس. أخبرتك الآن أن السَّلْق الذي لم نجد غيره طعاماً قبل أسبوعين تعذر علينا الحصول عليه الأسبوع الماضي. لهذا أنا ذاهب.

قد لا تصدق، يا أبي، لو أخبرتك أنني ذاهب والحزن يهتصرني لأنني أحب أولادي ولا أرغب في فراقهم، على خلاف ما فعلت أنت بفلذتيّ كبدك عندما ألقيت بهما في عرض الطريق بمجرد أن شبّا عن الطوق.

ـ يا بني، ضع ما أقوله لك الآن حلقة في أذنك: في عش الدواجن الجديد، لا بد أن تحتفظ ببيضة. عندما ترفرف عليك الشيخوخة بجناحيها ستتعلم كيف تعيش، ستدرك كيف يفارقك الأبناء، دون أن يشكروا لك صنيعاً؛ يطمرون حتى ذكراك.

ـ هذا بيت خالص من الشعر.

ـ سيكون بالفعل، لكنها الحقيقة.

ـ أنا لم أنسك، كما ترى.

ـ جئتني عندما دفعتك الحاجة. لو كانت أمورك مستقرة ما تذكرتني. أحسست بالوحدة منذ وفاة أمك؛ ولما ماتت أختك أصبحت وحدتي أشد وطأة؛ وعندما تركتني أيقنت أنني سأظل وحيداً بقية عمري. وتأتي الآن قاصداً إثارة عواطفي وتحريكها ثانية؛ لكن أتعرف أن بعث ميت أصعب بكثير من بث حياة جديدة. تعلم شيئاً. غشيان الطرق يعلم الكثير. ما حكّ جلدك مثل ظفرك، وهذا ما يجب أن تفعله.

ـ أفهم من هذا أنك تتهرب من رعايتهم؟

ـ أتركهم هنالك، لا أحد يموت جوعاً.

ـ أخبرني صراحة أنك قبلت الوصية، لا أريد الذهاب قبل التأكد.

ـ كم عددهم؟

ـ لا يزيدون على ثلاثة أولاد وبنتين، بالإضافة إلى زوجة الابن التي تسترد شبابها من جديد.

ـ تقصد أنها تسترد سلوكياتها المعيبة.

ـ كنت زوجها الأول. كانت عذراء. إنها طيبة. لا تستمر في جفائك لها، يا أبي.

ـ ومتى ستعود؟

ـ سريعاً، يا أبي. سأعود بمجرد تحقيق الهدف الذي أنا ذاهب من أجله. سأعطيك ضعف ما ستنفقه عليهم. قدّم لهم كل ما يحتاجون إليه من طعام. هذا كل ما أوصيك به.

من النجوع والعزب يتجه الناس إلى القرى، ويذهب أهل القرى إلى المدن. وفي المدن يضيعون؛ يذوبون بين طوفان البشر. «ألا تعرف مكاناً به عمل؟!». «نعم، عليك بالذهاب إلى مدينة (خواريث). بإمكاني تسهيل سفرك إلى هناك وضمان مرورك من نقطة المراقبة نظير مئتي بيزو. ابحث عن فلان الفلاني وأخبره أنك من طرفي. إياك وإفشاء هذا السر لأحد».

«حسناً، يا سيدي، ستكون النقود عندك غداً».

ـ اسمع، يقولون إنهم يحتاجون إلى عمال في (نونو ألكو) لتفريغ القطارات.

ـ ويدفعون؟

ـ بالطبع، الكيلة بقرشين.

ـ صحيح؟ أفرغت أمس نحو طن من الموز بالقرب من(لاميرثي) وأعطوني عدة أصابع أكلتها. اتضح في النهاية أنه سُرق منهم ولم يدفعوا شيئاً، حتى إنهم اتهموني وسلموني للشرطة.

ـ العمل في السكة الحديدية يتسم بالجدية. إنه شيء آخر. إذا كنت مستعداً فعليك به.

ـ ولم لا!

ـ أنزلنا بضائع من القطارات من شروق الشمس إلى غروبها وفاض من البضائع ما يكفي لعمل يوم آخر. أعطونا أجرنا. عددت النقود: أربعة وستون بيزو. لو تسير كل الأيام على هذا المنوال!

ـ سيدي، أحضرت لك المائتي بيزو.

ـ حسناً. سأعطيك ورقة لزميلنا في مدينة (خواريث). احتفظ بها ولا تضعها. سيساعدك على عبور الحدود، ولن يتركك إلا وعقد العمل في يديك. في الورقة عنوانه وتليفونه لكي تتصل به في أقرب فرصة. لا، لن تذهب إلى (تكساس). أسمعت عن مدينة أوريجون؟. حسناً، قل له: إنك تريد الذهاب إلى (أوريجون) لجمع التفاح، هذا أنسب لك، ابتعد عن جني القطن. (باين عليك راجل نبيه). قدّم نفسك لـ (فرنانديث). لا تعرفه؟. حسناً، اسأل عنه. وإذا كنت لا تريد جمع التفاح فسيجعلك تعمل في تثبيت فلنكات قضبان السكك الحديدية. العمل الأخير عائده أكبر ومدته أطول. ستعود محملاً بالدولارات. لا تضع الكارت.

ـ أجهزوا علينا، يا أبي.

ـ على من؟

ـ علينا. أطلقوا علينا الرصاص، في أثناء عبور النهر، ومزقونا إرباً إرباً.

ـ أين؟

ـ هناك، عند نقطة العبور إلى الشمال، أضاؤوا علينا الكشافات بينما كنا نتجاوز النهر.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري، يا أبتاه. أتذكر (إستانيسلاو)؟ هو الذي أوعز إليّ بالسفر إلى هناك. حدثني عن خبرته الطويلة بمسألة

السفر وعن إدراكه لكل دقائقها، وذهبنا أولاً إلى (مكسيكو) ومنها إلى نقطة العبور. كنا نعبر النهر عندما حصدونا ببنادق (الموزر). عدت أدراجي لأنه توسل إلي قائلاً: «أخرجني من هنا يابن بلدي، لا تتركني». عندما طلب مني هذا كان مستلقياً على قفاه وجسده أشبه بمصفاة من كثرة الرصاص الذي اخترقه. سحبته، جرجرة قدر استطاعتي وابتعدت به عن ضوء الكشافات التي كانت تبحث عنا. قلت له: «أنت حي»، فأجابني: «أخرجني من هنا، يابن بلدي». قال لي بعد ذلك: «لقد تمكنوا مني». كنت مصاباً بطلق ناري في إحدى ذراعيّ، وعظمة كوعي ليس في مكانها. لهذا مددت له يدي السليمة وقلت له: «تشبث بها جيداً».

مات على ضفة النهر جهتنا، قبالة أنوار قرية تقع داخل حدودنا وتسمى (أوخيناجا)، بين نباتات الأسل التي لا تزال تمشط النهر وكأن شيئاً لم يكن.

رفعته على الشاطئ وسألته: أما زلت حياً؟!. لم يجب. أمضيت بقية الليل إلى جواره أحاول بشتى الطرق إعادة الحياة إلى الإستانسيلاو؛ دلّكت جميع أطرافه ونفخت في رئتيه لكي يلهث، لكنه لم ينبس ببنت شفة. اقترب مني آخر النهار أحد موظفي مصلحة الهجرة والسفر.

ـ أنت! ماذا تفعل هنا؟

ـ أرعى هذا الميت.

ـ أنت الذي قتلته؟

ـ لا، يا سيدي الجاويش ـ رددت عليه.

ـ لا أمتّ بصلة لأي جاويش. من قتله إذن؟

عندما رأيته مرتدياً البدلة الرسمية وعليها النسور تلك حسبته من الجيش، ولم يتطرق إلي الشك في هذا عندما شاهدت الطبنجة الكبيرة الحجم متدلية من وسطه.

كرر سؤاله: من قتله، إذن؟.

وظل يكرر ويكرر إلى أن أمسك بشعر رأسي وأخذ يهزني بعنف وأنا لا حول لي ولا قوة، لا أستطيع الدفاع عن نفسي لذراعي المصاب.

قلت له: لا تضربني، كوعي مهشم.

توقف حينئذ عن توجيه الضربات لي.

ـ ماذا حدث؟، تكلم.

أضاؤوا علينا الكشافات بالليل. كنا ذاهبين ونشوة العبور إلى الجانب الآخر من الحدود تسكرنا، وعندما وصلنا إلى عرض النهر انهمر الرصاص علينا كالمطر.

لم نستطع تفاديه. أنا وهو الوحيدان اللذان استطاعا الخروج، وإن كان الإنصاف يقتضي القول: إن واحداً فقط هو الذي أفلت؛ لأن الثاني، كما ترى، قضى نحبه.

ـ ومن هم الذين أطلقوا عليكم الرصاص.

ـ إننا حتى لم نرهم. غمرتنا أضواء كشافاتهم وانهالوا علينا، لم نسمع سوى دويّ طلقات بنادقهم، إلى أن أحسست بكوعي ينفجر وسمعت هذا يستغيث بي: «أخرجني من الماء، يابن بلدي». مع أن رؤيتهم لم تكن ستنفعنا بشيء.

ـ لابد أنهم كانوا من «الأباتشي».

ـ أيّ «أباتشي»؟

ـ جنس من الهنود، يعيشون على الجانب الآخر.

ـ أليس أهالي (تكساس) هم الذين يعيشون على الجانب الآخر؟

ـ نعم، لكنها تعجّ بالأباتشي، يبدو أنك لا تعرف شيئاً. سأتركك وأذهب إلى (أوخيناجا) لأبلغهم حتى يرسلوا من يحمل صديقك، وعليك بالاستعداد للعودة إلى بلدك. من أين أنت؟ ما كان عليك مغادرتها. معك نقود؟

ـ أخذت ما كان في جيب الميت من نقود قليلة، لعلها تعينني على العودة.

ـ لديّ هنا مخصصات لرعاية المغتربين. سأعطيك ثمن التذكرة؛ ولو لمحتك ثانية هنا سأجعلك تعض أنامل الندم. لا يروق لي رؤية وجه إنسان مرتين. هيا، اذهب.

ـ وأتيت، يا أبتاه، لأقص عليك ما جرى.

ـ حدث لك هذا بسبب بلاهتك وغبائك. وعندما تطلّ على بيتك ستصدم بعاقبة إصرارك على السفر.

ـ هل حدث ما يعكر الصفو؟ مات أحد الأولاد؟

ـ لاترانسيتو هربت مع بغّال. كنت تتغنى بطيبتها، أليس كذلك؟ أولادك نائمون بالداخل. أما أنت فعليك بالبحث عن مكان تمضي فيه الليل؛ لأنني بعت دارك لكي أسدد نفقات أسرتك. وما زلت مديناً لي بثلاثين (بيزو) قيمة العقود.

ـ حسناً، لن أنكر عليك ما فعلت، يا أبي. ربما أجد في الغد عملاً هنا لكي أسدد ما عليّ من دين لك. في أي اتجاه ذهبت (لاترانسيتو) مع البغّال؟

ـ من هذا الاتجاه. لم أدقق النظر.

ـ لن أغيب طويلاً، أنا ذاهب للبحث عنها.

ـ أيّ وجهة تأخذ؟

ـ التي أخبرتني أنها هربت منها.

الرياض في عيون الرحالة

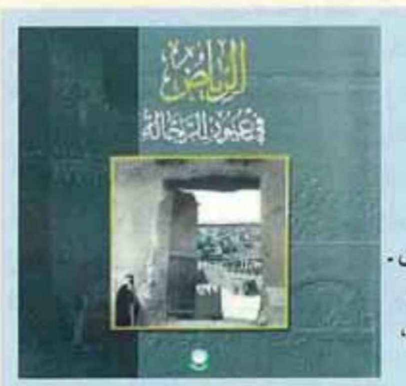
مراجعة: وليد نذير عتمة
الرياض - السعودية

شهدت المناطق المختلفة في شبه الجزيرة العربية خلال القرنين الماضيين توافد عدد كبير من الرحالة الذين قدّموا الكثير من المعلومات المستمدة من المشاهدات التي شملت الأوضاع الاجتماعية والسياسية.

يبدأ التاريخ العلمي لاكتشاف تاريخ الجزيرة العربية الحديث مع رحلة كارستن نيبور أحد أعضاء البعثة الدانماركية التي أرسلها ملك الدانمارك لاكتشاف اليمن سنة ١١٧٥هـ (١٧٦١م). ففي سنة ١١٨٦هـ (١٧٧٢م) ظهر العمل الأول لنيبور عن شبه الجزيرة العربية، وهو كتاب «وصف جزيرة العرب» الذي يحتوي على وصف عام للبلاد العربية من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية واللغوية، وفصول عن المناطق المختلفة للجزيرة: اليمن وحضرموت وعُمان ومناطق الخليج ونجد والحجاز وصحراء سيناء. ويعدّ نيبور أول من حمل إلى أوربا أخبار الدعوة السلفية التي ظهرت في نجد، ولقد سعى نيبور إلى زيارة الدرعية ولقاء الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لكنه لم يتمكن من ذلك لظروف تعرضت لها بعثته العلمية في اليمن، فقد توفي جميع أعضائها عدا نيبور الذي أخذ يتحرى أخبار هذه الدعوة التي تعرض لها في كتابه.

الرحالون يتوافدون

ومع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) بدأ عدد من الرحّالة الأوربيين بالتوافد على المنطقة، منهم الرحالة أولريخ سيتزن الألماني، وعلي بيك العباسي (دومينغو باديا) الإسباني، وجون لويس بوركهارت السويسري. أما وسط شبه الجزيرة العربية، فلم تكن معلوماتهم عنه تعتمد على الاتصال المباشر، لعدم تمكنهم من زيارة هذه المنطقة. وأول كتاب صدر في أوربا سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م، وتحديداً في فرنسا، عن الدعوة السلفية كان بعنوان «تاريخ الوهابيين» تأليف الفرنسي أوليفييه دي كورانسيه عضو البعثة العلمية التي رافقت نابليون بونابرت إلى مصر عندما غزاها سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، وهو الذي أصبح قنصلاً لفرنسا في حلب، وقد اعتمد الكاتب على ما جمعه في حلب



الرياض في عيون الرحالة

الرياض: أمانة مدينة الرياض - مؤسسة التراث، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٣٤٠ص.

من أخبار وروايات طوال ثمانية أعوام عن الدعوة السلفية، وكذلك بوركهارت الذي لم تتجاوز رحلاته منطقة الحجاز، اعتمد أيضاً على ما سمعه من الرواة وشهود العيان وكتب عن الدعوة السلفية وعن البدو وعاداتهم وتقاليدهم.

لم تتح لأي أجنبي زيارة الرياض وكتابة شيء عنها قبل سقوط الدرعية، إلا أن ضابطاً إنجليزياً هو جورج فورستر سادلير جاء مكلفاً من حكومة الهند البريطانية سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م لمقابلة إبراهيم باشا في الدرعية، لتهنئته بالقضاء على الدولة السعودية الأولى، والدخول معه في مفاوضات للتعاون مع القوات البريطانية في الخليج على محاربة القواسم. وقد ورد في هذا التقرير بعض المعلومات القليلة عن الرياض، والذي نشر في سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.

بعد سقوط الدرعية اتخذ مؤسس الدولة السعودية الثانية الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الرياض عاصمة له في سنة ١٢٤٠هـ. لذلك جذبت الرياض الرحّالة والدبلوماسيين رغبة في تعرّف جوانبها الجغرافية والاجتماعية والسياسية، وظهور عدة مؤلفات وصفت طبيعة الحياة في الرياض.

ففي سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م استطاع الرحالة البريطاني وليم جيفورد بالجريف الوصول إلى الرياض متخذاً صفة طبيب سوري باسم سليم أبو محمود إلياس، وفي سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٥م نشر بالجريف كتابه عن رحلته، ويعد كتابه هذا الأول في وصف الرياض وحياتها بشكل غير مسبوق.

وبسبب ظروف عدم الاستقرار السياسي وانعدام الأمن اللذين عاشتهما الرياض في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري)، وانتقال مركز الثقل السياسي إلى أماكن أخرى، وانتشار الاضطرابات السياسية في وسط نجد لم تتح الفرصة للرحالة زيارة المنطقة، ولكن مع إشراقة القرن العشرين، وباستعادة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حكم الرياض في الخامس من شهر شوال سنة ١٣١٩هـ/١٩٠٢م، لم تعد الرياض بعيدة المنال للرحالة، كما اتجه إليها الدبلوماسيون ومبعوثو الدول.

ويوضح الكتاب كيف تغيرت حال هذه العاصمة، ووصف الذين توافدوا عليها، ليطلع وما سجلوه عنها - عرباً وأجانب - من تفاصيل لحياة سكانها وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية وطريقة حكمها وإدارتها.

وهذه الكتابات مع أنها مرئيات شخصية، إلا أنها تظل مصدراً مهماً للباحثين والدارسين لتاريخ المنطقة وجغرافيتها ومراحل تطورها خلال ما يقارب القرنين من الزمان.

لقد نهج الكتاب بأنه عرّف كلّ رحالة أو مبعوث، وهدف رحلته، والنصوص التي تم اختيارها من النص المعرب، وبعض المشاهدات والانطباعات التي تم تسجيلها من خلال الرحلات.

الرياض في قرنين

يقع الكتاب في قسمين يتضمنان تاريخ الرياض في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين

القسم الأول: الرياض في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). ويتناول الفترة من: ١٢٣٤ - ١٢٨١هـ/١٨١٩ - ١٨٦٥م من خلال رحلات جورج فورستر سادلير ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، ووليم جيفورد بالجريف ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، ولويس بلي ١٢٨١هـ/١٨٦٥م.

القسم الثاني: الرياض في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ويتناول الفترة من ١٣٣٠ - ١٣٧٩هـ/١٩١٢ - ١٩٥٩م وقد ضم خمسة فصول:

الفصل الأول: ١٣٣٠ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٢ - ١٩١٨م من خلال رحلات باركلي رونكيير ١٣٣٠هـ/١٩١٢م، وجيرارد ليتشمان ١٣٣٠هـ/١٩١٢م، ووليم شكسبير ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، وبول هاريسون ١٣٣٦هـ/١٩١٧م، وآر. إي. إيه. هاميلتون ١٣٣٦هـ/١٩١٧م، وهاري سانت جون فيلبي (عبدالله فيلبي) ١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧ - ١٩١٨م.

الفصل الثاني: ١٣٤١ - ١٣٤٩هـ/ ١٩٢٢ - ١٩٣٠م من خلال رحلات أمين الريحاني ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، ولويس ديم ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، ومحمد شفيق أفندي مصطفى ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، وليوبولد فايس (محمد أسد) ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.

الفصل الثالث: ١٣٥١ - ١٣٥٨هـ/ ١٩٣١ - ١٩٣٩م من خلال رحلات عبدالله فيلبي ١٣٥١هـ/ ١٩٣١م، ورحلتين لغيرالد ديغوري ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م و١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م، وجيرالد رندل ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، وهارولد ديكسون ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م، وإيجيرو ناكانو ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

الفصل الرابع: ١٣٦٦ - ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٦ - ١٩٤٨م من خلال رحلات آر. إس. هنسي ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، وعبدالوهاب عزام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.


قصر الحكم بالرياض. فيلبي، ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م

الفصل الخامس: ١٣٧٢ - ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٢ - ١٩٥٩م من خلال رحلات فان در ميولين ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م، وأمين المميز ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ومحمد كامل حتة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، وكارل تويتشل ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، وعبدالله فيلبي ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

والكتاب لا يتسع بالطبع لرحلات جميع من زاروا الرياض وكتبوا عنها، لكنه يذكر أبرز هذه الرحلات.

مصدر رئيس

وتجدر الإشارة إلى أن بعض النصوص الواردة ترجمت خصيصاً لهذا الكتاب، وبعضها قد سبق ترجمتها، وتم الاعتماد عليها في النصوص المختارة.

وما ينبغي معرفته أنه لا يؤخذ كل ما أورده الرحالة، من معلومات على أنها لا تقبل المناقشة، فكثيرون منهم يقومون الأشياء من خلال سياقاتهم الفكرية والثقافية والدينية، ولكن تبقى حقيقة أنّ ما قدمه هؤلاء الرحالة من معلومات تُعدّ مصدراً رئيساً من مصادر معرفتنا لما شهدته مدينة الرياض من تطور.

الرياض في القرن التاسع عشر

يصف جورج فورستر سادلير (١٢٣٤هـ/١٨١٩م) منفوحة بأنها قرية تحوي ما يقارب ألفي أسرة، وفيها بعض البيوت الجيدة مبنية بالطين والحجارة، وبعضها يتألف من طابقين، وسطوح منبسطة، أما قرية الرياض فواقعة إلى الشمال على بعد ميل تقريباً من منفوحة، وسكانها لا يعادلون سكان منفوحة، والدرعية واد ضيق شديد الانحدار إلى الشمال الغربي من منفوحة، وعلى بعد عشرة أميال عنها.

أما وليم جيفور بالجريف (١٢٧٩هـ/١٨٦٢م) فقد قال: تتميز منفوحة الكبيرة بأنها لا تقل حجماً عن الرياض إلا قليلاً.

وذكر سلسلة جبال اليمامة وصحراء الدهناء التي تختفي خلف تلك الجبال، وإلى الغرب ينغلق الوادي ويضيق في امتداده شمالاً نحو الدرعية، ويصف منفوحة بأنها مدينة معتبرة تحيط بها حدائق لا تقل عن حدائق الرياض، ومناخها يتميز من مناخ الرياض.

أما لويس بلي (١٢٨١هـ/١٨٦٥م) فيصف الرياض بأنها بنيت على مرتفع لا يبعد كثيراً عن وادي حنيفة، وأنها فسيحة ولطيفة، وبناياتها من اللبن، وأنعشت ضواحيها حدائق النخيل.

أما باركلي رونكيير (١٣٣٠هـ/١٩١٢م) فيصف وادي حنيفة بأن مجراه امتلأ بالأشجار والشجيرات الصغيرة، ويقول: ثم غادرناه إلى هضبة بها بعض التعرجات البسيطة، ويمكننا مشاهدة قمم أشجار النخيل في أسفل الوادي، ثم أشرفنا على واحة عرقة الصغيرة والأطلال التي كانت جزءاً من مدينة الدرعية، فواد صخري صغير، فمرتفع، ثم واد جداره أخضر داكن من بساتين النخيل، ثم الأسوار والأبراج.. هذه مدينة الرياض المدينة الرئيسة للمملكة السلفية التي استقرت بها عائلة آل سعود.

ويصف جيرارد ليتشمان (١٣٣٠هـ/١٩١٢م) دخوله إلى أول مقاطعة لنجد الجنوبية المعروفة باسم العارض التي تضم الرياض وأماكن مهمة كالدرعية ومنفوحة وعرقة، ثم دخوله في خانق جبل طويق، وكان مملوءاً بأشجار السدر والطلح، ثم وادي حنيفة ويعرف بوادي الحيسية، وعند العيينة وجد بقايا سدود صخرية بنيت للتحكم في اندفاع مياه الأمطار في الوادي، ثم قرية الملقى، ومن هذا المكان تمتد بساتين النخيل، بينما تبدو خرائب الدرعية القديمة واضحة على الضفة اليمنى للوادي، ويقابلها على الضفة اليسرى العاصمة القديمة لنجد الجنوبية، ثم هضبة صخرية بعرض عشرين ميلاً تبرز الرياض العاصمة الكبرى لنجد ومقر حكم الدولة السعودية التي تحيط بجوانبها الثلاثة بساتين النخيل، وتحاط بسور ضخم حديث البناء، وله أبراج، وللسور بوابات ذات مداخل مختلفة، ويقع في شمالها الشرقي مقبرة شلقا، وهي التي تقع الآن بين شارع البطحاء وشارع الملك فيصل. وأغلب المساجد متواضعة المظهر، وإن حضور الصلوات الخمس إجباري، ويعاقب من لا يواظب عليها، ويغلق السوق في أوقاتها.

ويقول وليم شكسبير (١٣٣٢هـ/١٩١٤م): ذهبنا بموازاة الشعيب حتى اجتزنا أرضاً مرتفعة فبدا سور الرياض الشرقي بأبراجه، ثم مشينا في طريق واسع إلى القصر مجتازين كثيراً من المباني المتهدمة وبعض المنازل الكبيرة والجديدة المبنية على طراز القصور؛ ويقول: إن مخطط الرياض الذي أعده بالجريف جيد جداً، والمنازل مبنية بالطين من نوعية جيدة والسطوح عالية، وأغلب البيوت تتكون من طابقين.



جيرارد ليتشمان ١٣٣٠هـ/١٩١٢م

ويصف بول هاريسون الرياض بأنها الأرض الصحراوية الجافة والمدينة الصغيرة التي يسكنها نحو عشرة آلاف نسمة، وتحيط بها بساتين النخيل، ويسحب الماء من الآبار التي يبلغ عمقها نحو تسعين قدماً، وقال: يعيش الناس في هذه المدينة من أجل الآخرة، المئات يدرسون في المساجد، ليعملوا مدرسين بين القبائل البدوية، وتنتشر مبادئ التعليم في الجزء الأعظم من السكان (الرجال).

ويقول آر. إي. إيه. هاميلتون الوكيل السياسي لبريطانيا في الكويت، الذي زار الرياض واصفاً إياها بأنها مدينة صغيرة نسبياً، ولاحظ مجرى سيل وادي حنيفة، وزار بعض المحلات التجارية والحدائق البهيجة في الرياض. وفي نهاية السوق باتجاه منفوحة، لاحظ أن الخرائب والأسوار القديمة من المدينة السابقة آخذة في الانحسار تدريجياً.

ويقول هاري سانت جون فيلبي (عبدالله فيلبي) (١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧ - ١٩١٨م) عندما وصلنا أطراف المدينة حيث حزام من أشجار النخيل حولها، وهنا توقفنا انتظاراً لفتح بوابات المدينة المغلقة، حيث السكان من الرجال مجتمعون لأداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير، ويتم إقفالها يومياً بعد صلاة العشاء، وحين فتحت البوابات، بدأت الحياة تدب، ودخلنا من خلال ممر ضيق يخترق البساتين المسورة، وبنهايته وصلنا إلى ساحة متسعة ومفتوحة، وقبل الوصول إلى المدينة كانت تنتشر خيام البدو السوداء، وواصلنا سيرنا عبر طريق ترابي بالقرب من الحصن

والأبراج، وصلنا نحو ساحة القصر، دخلناه عبر ممر مزدحم، ثم صعدنا درجاً، بعدئذ مررنا عبر دهليز أفضى بنا إلى ردهة مفتوحة مؤدية إلى الديوان الملكي. أما واحة الرياض فتمتد من الضفة اليسرى لوادي حنيفة، وتنتشر بساتين النخيل بكثافة في جنباتها كافة، ماعدا الشمال الشرقي الذي توجد فيه بساتين قليلة متناثرة بظهر جبل أبو مخروق من خلالها. ولقد شيدت الرياض على لوح منخفض من الصخور الجيرية المنحدرة.

ويضيف فيلبي: أمضيت الكثير من الساعات بصحبة بوصلتي ودفتر مذكراتي في قياس أسوار المدينة، محاولاً الوصول إلى الشكل الصحيح لها واتجاهاتها وأبعادها، وكانت حصيلة عملي أن الرياض ذات شكل غير منتظم، له عدة أضلاع، ويحيط بالمدينة سور سميك من الطوب الطيني يبلغ ارتفاعه خمساً وعشرين قدماً تقريباً، وتعلوه حافة ذات تصميم بأسنان الحوت، وتوجد أبراج ضخمة على امتداد السور على مسافات متفاوتة، وأبراج أخرى للحراسة أقل حجماً، وتراوح ارتفاعاتها من ثلاثين إلى أربعين قدماً، وتبرز قليلاً من خارج السور للتمكن من عمليات الدفاع، ويحتوي سور المدينة على تسع بوابات، والشوارع الداخلية تفتقد التنسيق، أما الشارع الرئيس بها فهو الذي يربط بوابة الثميري بالقصر، ويحتل السوق تلك الساحة المكشوفة الواقعة إلى الشمال من القصر، وجامع الرياض مستطيل الشكل، أبعاده نحو ستين ياردة في خمسين ياردة، ويتألف من ثلاثة أقسام، قسم مكشوف، والقسمان الآخران كلاهما مغطى بسقف منخفض مرتكز على عدة صفوف من الأعمدة الحجرية، وهناك مسجد العيد، حيث يتكون من مساحة واسعة مستطيلة الشكل فارغة تماماً ومحاطة بسور طيني قصير.

وزار أمين الريحاني الرياض (١٣٤١هـ/١٩٢٢م) بدعوة من الملك عبدالعزيز، وقال إن واحة العارض تقع عند قاعدة جبل طويق، وهي مستطيلة الشكل، وتمتد مسافة اثني عشر ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وليس بها جداول مائية جارية، لكن بها ينابيع جيدة، وتقع الرياض على طرفها الشمالي الشرقي، وتنتصب على أحد عروق جبل طويق الصخرية، حيث يمكن مشاهدة صخوره العارية في بعض طرقاتها، ولكن ليست هناك منازل يمكن أن يقال إنها موجودة على تلك الطرقات، كما أن الأسوار الطينية التي يراوح ارتفاعها بين عشرين وستين قدماً لا تحوي أي أثر يشير إلى وجود مساكن بشرية على الرغم من أن النوافذ والفتحات الصغيرة في أعلاها تتجاوز حدود نظر الإنسان العادي. أما المنازل فهي مشيدة حسب النظام المتبع حول فناء غير مرصوف، وتحدث عن الزخارف الحائطية المكونة من الجبس، والزخارف على الأبواب في شكل ألوان متعددة، والجدران البيضاء، والأسقف المرتفعة المغطاة في منازل الأثرياء بالأقمشة القطنية التي تمت حياكتها في شكل زخارف وتصميمات ذات ألوان صارخة، ولكن السمة الأساسية للمنزل النجدي وجود الموقد في قاعة الاستقبال، وهو تجويف مستطيل بنهاية الغرفة نحو عشر بوصات أسفل مستوى سطح الغرفة مع مقعدين على طرفيه. ويقول الريحاني: كانت شوارع الرياض أنيقة، وفي بعض الأماكن تنفرد بوجود أرصفة من الصخور، إلا أن السوق متواضع.

وفي منتصف شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٢هـ، اختارت الإرسالية الأمريكية في البحرين لويس ديم لتلبية دعوة عاجلة من سلطان نجد للقيام ببعض الأعمال الطبية في الرياض وزيارة بعض المدن النجدية مثل عنيزة وبريدة وشقراء، وحال وصول ديم إلى الرياض ذهب إلى السلطان عبدالعزيز، وكان يعاني من التهاب حاد، فبدأ علاجه، ومع الوقت والأدوية، أصبح السلطان بصحة جيدة. ثم بدأنا العمل الطبي في عيادة صغيرة جهزناها في بيت متواضع أعطي لنا، واستطعنا في خلال ٢٧ يوماً من إقامتنا معالجة ٣٣٧٤ مريضاً بينهم ١٣٠٦ حالات جديدة و ١٩٧٨ متابعة علاج، و ٩٠ حالة استدعاءات خارجية، وإجراء ١٣٧ عملية.



قصر المربع، ويظهر سوق الجمال في مقدمة الصورة. فان در ميولين، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م

ويصف محمد شفيق أفندي مصطفى (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) الرياض بأنها أكبر مدن نجد وأعظمها شأناً بوصفها عاصمة الديار النجدية وهي ذات مبان متعددة، بينها عدة عمارات كبيرة، وتمتاز قصور أمراء الأسرة المالكة من سائر المباني باتساعها وبهاء شكلها، ويحيط بالمدينة سور فخم له أبواب كثيرة، ومزارع وأشجار نخيل، وفي الرياض عدة مدارس دينية، يتعلم فيها الصبيان مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن، ولا يتبحر في العلوم الدينية إلا القلة الذين يتاح لهم الانقطاع لخدمة العلم والدين، فيلقنون تفسير القرآن وأحكام الشرع، ومن هؤلاء يتخرج أئمة المساجد ووعاظها.

وفي الرياض ستة مساجد خالية من مظاهر الزخرف والفرش، وهي بغير قباب وأغلبها بغير سقف.

ثلاثينيات الرياض

ويصف ليوبولد فايس (محمد أسد) - الصحفي النمساوي الذي أعلن إسلامه في سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م-، مدينة الرياض في سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م بأنها تبدو من جهة الشمال كتلةً من أشجار النخيل تظهر من بينها البيوت الطينية، تعلوها أبراج القصر الملكي العالية، وسور المدينة الطيني، وهو عال وقوي، بما يكفي لحماية المدينة ضد أي هجوم غير متوقع، ومن خلف السور تبدو كتل المنازل الطينية ذات السطوح والمحاطة بأسوار في ارتفاع قامة الرجل، وتبدو الأبراج، ليست أبراج القصر الملكي الواقعة في وسط المدينة فقط، بل أبراج أخرى مثل برج القلعة الواقعة في الشمال الشرقي (يقصد به حصن المصمك)، وأبراج السور الخارجي للمدينة التي يصل عددها إلى أكثر من عشرين برجاً، ثم مئذنة الجامع الكبير بارتفاعها المنخفض، وسوق الرياض في الواجهة الأمامية للقصر الملكي، ويتكون من صف من الدكاكين ذات الطابق الواحد، وكل دكان غرفة صغيرة بها باب واحد وليس بها نافذة، وفي الزاوية الشرقية من السوق يوجد سوق الجمال، وفي الزاوية المقابلة صفان من المحلات يشغل أغلبها صانعو الأحذية، وعلى مسافة قريبة من جدران القصر يقع سوق النساء.

ويقول عبدالله فيلبي عند عودته للمنطقة (١٣٥١هـ/١٩٣١م) بعد فترة غياب: تظل الرياض مخفية في سلسلة من التلال الجيرية الوعرة العديمة الشكل والسمات، وفي وسطها يقع وادي حنيفة، ثم نخيل الشمسية، وهي أبعد منطقة من حدائق الرياض من جهة الشمال. كانت البطحاء والأماكن الأخرى تعج بخيام رجال القبائل الذين قدموا من كل حدب وصوب، ويقول لقد زاد عدد سكان الرياض عن سعة الجامع، وتم توفير مسجدين جامعين، وذكر أن الطريق من البديعة ولعدة أكيال يظهر عليه أنه محاط بأشجار النخيل صعوداً ونزولاً بكلا جانبيه في تلك الأراضي الغنية بالطمي الذي تجلبه السيول الموسمية، وليس هناك بستان من البساتين يضاهي بستان البديعة: فيه ١٢٠٠ نخلة مثمرة، وتعود للأمير سعود، وذكر قرية المصانع ذات المساحة الكبيرة من النخيل والواقعة جنوب الرياض، حيث تضاعفت في رقعتها، أما قرية منفوحة فهي تبدو مهجورة.

ويقول غيرالد ديغوري (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م): إنه لمس المفاجأة لدى الجميع حين عرفوا أننا قطعنا المسافة بين جدة والرياض بأقل من ست ليال.. إنه لرقم قياسي!

ويضيف بأن السيارات لم تصل إلى الرياض إلا منذ فترة قصيرة، ويقول عن الملك عبدالعزيز: إنه كان يعود من قصره الصيفي في البديعة بعد الغروب، وينصرف إلى أعماله، فيوقع الرسائل ثم يعطيها إلى سكرتيره، كما يستقبل الزوار، ويصغي إلى عرض لأخبار المقاطعات وأخبار العالم، ويقرأ القرآن ويستمع إلى قراءته، ويقرأ بعض الأدعية، وينام حتى الفجر، حيث يصلي ثم يرتاح قليلاً، ثم يعمل حتى موعد صلاة الظهر.

ويقول أيضاً غيرالد ديغوري في رحلته الثانية (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م): توقفنا في رماح فترة قصيرة للاطلاع على الآبار العميقة التي هي المصادر الوحيدة للماء الموجودة شمال شرق الرياض وما جاورها، وعندما اقتربنا من الرياض المحاطة بدائرة من المرتفعات، تحسن الطريق في هذا المكان، وكان وصولنا إلى جبل (أبو مخروق) إشارة إلى وصولنا إلى الرياض، وأصبحت صواري المحطة اللاسلكية وبساتين النخيل وأسوار الرياض واضحة أمامنا. ويشق وادي حنيفة بصورة ملتوية جبل طويق ماراً بمدينة الرياض عند سورها الجنوبي، ويقود مجرى وادي البطحاء إلى بوابة الرياض الشرقية، أما جبل العرمة وجبل طويق فهما يحيطان بالرياض من الشرق والغرب.


وليم شكسبير ١٣٣٢هـ/١٩١٤م

ويقول جيرالدين رندل (١٣٥٥هـ/١٩٣٧م) واصفاً الرياض بأنها تحيط بها أسوار مبنية باللبن تظهر فيها الأبراج في نقاط معينة، ودخلنا المدينة من بوابة الثميري التي توصل إلى شارع واسع ومبانٍ مشيدة من الطين والحجر على جانبيه، وهو يؤدي إلى ساحة القصر، ويوجد السوق والمسجد الجامع خلف ساحة القصر.

أما هارولد ديكسون الذي زار الرياض هو وزوجته بدعوة من الملك عبدالعزيز سنة (١٣٥٥هـ/١٩٣٧م)، فيقول: عندما وصلنا التلال المنخفضة شاهدنا الرياض، وبعد عدة منعطفات انحدرنا قليلاً نحو سهل صغير ورأينا قلعة كبيرة ذات أبراج ترتفع فوق الأسوار وأعالي الأبنية تظهر فوق الأسوار والأبراج، وإلى يسار ذلك كان هنالك عمودا اللاسلكي، ووصلنا إلى تل منخفض يمكن للسيارة أن تسير نحوه، وتدخل في نفق فيه ثم تخرج من الجهة الثانية، إنه أبو مخروق، كان عدد من السيارات تخترقه، ولم نكد نصل إلى القلعة حتى أطلت علينا بساتين النخيل في الرياض، ثم انحدرنا نزولاً على طريق صخرية منحدرة ومتعرجة تتجه نحو ما يعرف بالباطن.

ياباني في الرياض

أما إيجيرو ناكانو فيقول واصفاً الرياض في أثناء زيارته المملكة ضمن وفد ياباني سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م): وصلنا إلى خارج الجبيلة، كان الطريق سهلاً منبسطاً، وكانت هناك لوحات إرشادية بعد كل مسافة تشير إلى اسم المكان، وعلى بعد نحو ثلاثة أكيال شاهدنا واحة خضراء، ثم منظر قلعة، ثم بان سورها ونوافذها والمباني العربية الأصيلة في الصحراء، ويقول كأن الطريق عُبد منذ شهرين أو ثلاثة، وشعرنا بملامح الحضارة على هذا الطريق، اتجهنا إلى الناحية الجنوبية الغربية على بعد عشرة أكيال من قصر الرياض، وصعدنا على مرتفع نشاهد فيه وادي

حنيفة، ثم سرنا بمحاذاة سور القصر، إنه قصر البديعة، ويصف السوق بأنه دكاكين تبيع الملابس ودقيق القمح والأرز، بنيت بالطين وغطي سقفها بجذوع النخيل، ومررنا بمكتب الهاتف والبرق.. كان هناك عمودان هوائيان كبيران يقدر ارتفاعهما بمئة وخمسين متراً تقريباً، قام ببنائهما الأمريكيون، وشاهدت عشرة موظفين من العرب.

الرياض في منتصف القرن العشرين

ويصف آر. إس. هنسي الرياض (١٣٦٦هـ/١٩٤٦م) بأنها ذات مظهر بهي مسورة محاطة بخضرة زاهية، تليها صحراء مقفرة، ويقول لقد هبطنا في المطار، وكانت طائرة واحدة على الأرض، وهي من نوع دوجلاس رمادية اللون، وهي الطائرة الخاصة بالملك والتي أهداها له روزفلت، والمدينة في مجملها تبدو إلى حد ما كمدينة من العصور الوسطى، ولقد كان القصر والمسجد أكثر الأماكن تميزاً، ومعهما الحصن القديم «المصمك»، وجميع المباني بأحجامها المختلفة يوجد في داخلها الفناء المعتاد، كما أن الكبيرة منها تتكون من طابقين، وبها شرفات، وفيها شرفة داخلية تطل على الأفنية.

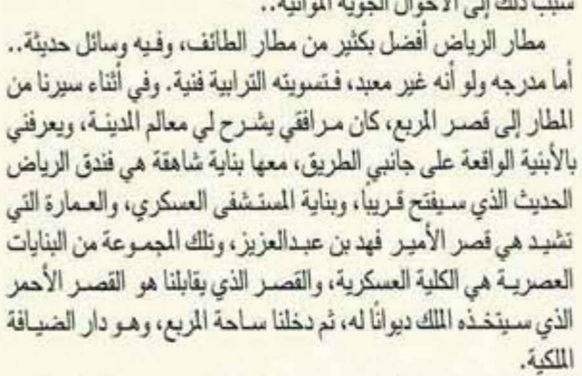


أمين الريحاني ١٣٤١هـ/١٩٢٢م

ويقول عبدالوهاب عزام عن رحلته للرياض (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م)، بينما كنا نسير على الطريق الذي يمر بالقصور الملكية، رأينا بستاناً للأمير سعود يسمى الناصرية، وآخر للأمير طلال يسمى الفاخرية، وآخر يسمى عليشة. ثم توجهنا إلى وادي حنيفة، وعلى جوانبه عند الرياض نخل كثير وأبنية، وهناك بستان للأمير سعود يسمى البديعة، وذهبنا إلى منفوحة، وهي على أربعة أكيال إلى الجنوب من الرياض على الوادي، ثم خرجنا لنرى الدرعية، وهي على مسافة ثمانية عشر كيلاً شمال الرياض، ثم سرنا إلى قصر الحكم (قصر الإمام عبدالله بن سعود إمام الدعوة السلفية وحاكم الدولة السعودية الأولى)، وذهبنا إلى قصر سعد بن سعود إلى الشمال، ثم إلى المعذر التي بها زروع تسقى بالسواني، وذهبنا إلى سانية فإذا هي عميقة يبعد ماؤها نحو خمسة عشر متراً، ثم مررنا بالبئر التي تسمى حجر اليمامة، ثم منفوحة، فبلغنا الربض الفسيح حول القرية وهذا الجانب يسمى خضرمة وفيه آبار، ثم رأينا وراء منفوحة بستان الأمير منصور بن عبدالعزيز واسمه الجو، وشطر الغرب من وادي حنيفة قرية تسمى المصانع، ثم ملنا نحو الغرب إلى واد اسمه نمار.

ويصف د.فان در ميولين الرياض خلال زيارته التي كانت تلبية لدعوة من الملك عبدالعزيز سنة (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، فيقول من النظرة الأولى لمدينة الرياض شاهدنا ساريتي مذياع، تشيران إلى حدوث تغييرات بالمدينة، والمنظر الثاني وجود منشأة حفر معسكر أمريكي للسيارات، حيث أربع وحدات من حفارات الآبار تعمل في الصحراء حول المدينة، وعندما يجدون الماء في عمق مناسب تحفر الآبار وتوضع مضخات الماء وتنشأ الحدائق. ثم يقول: وقد بدأت تتضح معالم القلعة الكبيرة الرمادية، وخلفها مجموعة مباني قصر المربع الممتدة والبسيطة والطريق المعبد الذي كنا نسلكه في السابق قد تغير إلى الأفضل، ويبدأ من محطة السكة الحديدية، موازياً للسور الشرقي، ولكنه على مسافة بعيدة منه، ويؤدي إلى المطار، وقد تم تشييد مطار جديد من البناء المسلح طغت عليه لمحة محلية وبقربه مسجد، ويقول: عندما عرفت الرياض سنة (١٣٦٣هـ/١٩٤٤م) كان عدد سكانها يربو على خمسين ألفاً بقليل، أما الآن فعدد سكانها قد وصل إلى ما يقارب مئتي ألف نسمة.

وهذا أمين المميز يصف لنا رحلته من مطار جدة إلى الطائف، ثم إلى الرياض سنة (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) فيقول: أقلعت الطائرة من جدة نحو الساعة الرابعة، وحطت بمطار الطائف نحو الساعة الخامسة.. إن مطار الطائف بدائي ليس فيه أي أثر من آثار التسهيلات الحديثة للطيران، فلا مدرج ولا برج ولا إشارات أرضية أو غير ذلك مما تقتضيه سلامة الملاحة الجوية، حطت الطائرة على رقعة من الأرض لا تخلو من الصخور المتناثرة في أرجائها، وبعد أن نزل بعض المسافرين أقلعت ثانية متوجهة إلى الرياض، حيث بلغت الرياض بنحو ثلاث ساعات، وهي أقل من المدن المقررة، ويرجع سبب ذلك إلى الأحوال الجوية المواتية..



مطار الرياض أفضل بكثير من مطار الطائف، وفيه وسائل حديثة.. أما مدرجه ولو أنه غير معبد، فتسويته الترابية فنية. وفي أثناء سيرنا من المطار إلى قصر المربع، كان مرافقي يشرح لي معالم المدينة، ويعرفني بالأبنية الواقعة على جانبي الطريق، معها بناية شاهقة هي فندق الرياض الحديث الذي سيفتح قريباً، وبناية المستشفى العسكري، والعمارة التي تشيد هي قصر الأمير فهد بن عبدالعزيز، وتلك المجموعة من البنايات العصرية هي الكلية العسكرية، والقصر الذي يقابلنا هو القصر الأحمر الذي سيتخذه الملك ديواناً له، ثم دخلنا ساحة المربع، وهو دار الضيافة الملكية.

ويقول محمد كامل حتة واصفاً الرياض عند زيارته لها سنة (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م): وصلنا إلى مطار الرياض بنحو ثلاث ساعات طيران قادمين من مطار جدة، ثم نزلنا فندق الرياض في ضيافة الملك

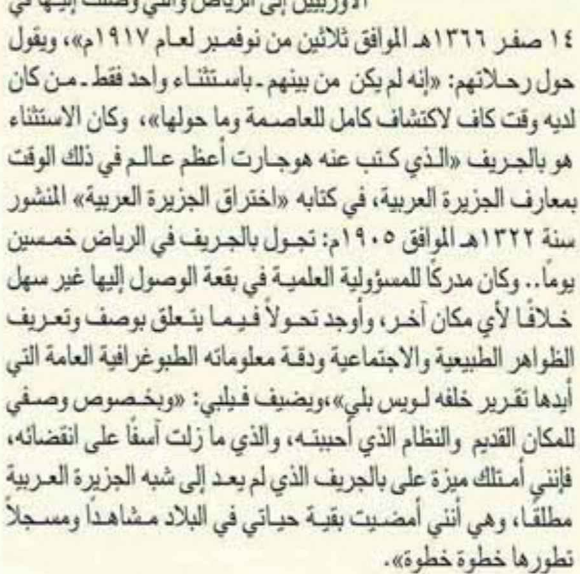
سعود، ثم أخذنا نجوب شوارع الرياض، تلك المدينة العجيبة في تكوينها ومعالمها، والتي وجدنا فيها كثيراً من المفارقات التي تصور مدى ما نالها وينالها من تطور سريع، إذ تتحول الرياض القديمة بمبانيها التي تشبه القلاع وبشوارعها الضيقة إلى الرياض في صورتها الحديثة، حيث انطلقت مشروعات النهضة والعمران وحولت البلدة القديمة في أعماق الصحراء إلى عاصمة من أكبر عواصم الشرق، فهذه الشوارع المسفلتة الواسعة والعمائر الضخمة، وقصور الناصرية والحمراء، ودور الوزارات التي أوشكت على التمام، والمعاهد التعليمية، ودار المحكمة الشرعية، والمدارس النموذجية لأنجال الملك وأمراء الأسرة المالكة وأبناء الشعب.

ويصف كارل تويتشل من خلال زيارته الرياض سنة (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) بأنها تقع في وادي حنيفة على ارتفاع ١٧٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتوسعت بصورة هائلة في السنوات القليلة الماضية، ففي عام ١٩٤٦م قدر تعداد سكانها بنحو ٦٠ ألف نسمة، وفي عام ١٩٥٢م بنحو ٨٠ ألف نسمة، ووصل عام ١٩٥٧م إلى ٣٥٠ ألف نسمة، وكان لانتقال أغلب الدوائر الحكومية إلى الرياض، والتزايد الكبير في حجم التبادل مع منطقة الخليج العربي، وتدشين خط السكة الحديدية، كان لذلك كله أثر في النماء والتطور الهائل. كما كان لاكتشاف الاحتياطي الضخم للمياه السطحية ولمشروع سد الرياض دور عظيم في التوسع السريع في الرقعة الجغرافية للمدينة، وهناك فندقان جديدان، فندق سكة الحديد، وفندق المطار، وفي عام ١٩٥٦م افتتح خط هاتفي جديد مكّن من التحدث مع القاهرة، والآن يوجد اتصال مباشر مع أمريكا وأوربا عن طريق الهاتف والبرق، واهتمام بالصحة والتعليم، وشارف المستشفى الحكومي الضخم على الاكتمال، وازداد عدد الحدائق والمتنزهات، ووسعت الطرق وزينت بزراعة الأشجار والشتول حولها. كانت المصابيح أو اللمبات تضاء بالكيروسين المبخر بالهواء المضغوط من مضخات هوائية خاصة، وحالياً الكهرباء هي وسيلة الإضاءة، وتم إنشاء محطات إضافية لها، وبنك الرياض حديث التأسيس سهل كثيراً من عمل المعاملات المالية للحكومة، واكتملت مبانٍ حديثة شيدت لتكون كلية الملك عبدالعزيز الحربية، ونفذ مشروع الجامعة السعودية، وأصبح المعهد الديني السعودي مركزاً رئيساً للتعليم في كل بلد، وزاد عدد المدارس الأولية والثانوية، وتم تأسيس مدرسة لتعليم البنات، وتم تدشين السكة الحديدية بطول ٣٥٧ ميلاً عبر حقول النفط الرئيسة إلى ميناء الدمام على الخليج العربي.



أحد الشوارع المحيطة بقصر الحكم. رندل ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م

وفي ختام الكتاب يقول عبدالله فيلبي: في سنة (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) قبل مئة عام مضت لم يكن هناك أي أوربي قد شاهد الرياض، مع أن الكابتن ج.ف. سادلير قد مر بالقرب منها من ناحية الجنوب خلال مسيره من منفوحة إلى الدرعية، وخلال الأشهر السنة الأخيرة من سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م قام وليم بالجريف برحلة بدءاً من غزة بالمرور مباشرة عبر قلب الجزيرة العربية حتى القطيف على ساحل الخليج العربي، وفي سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٥م سافرت بعثة بريطانية رسمية برأسها السير لويس بلي المقيم الإنجليزي حينذاك في الخليج العربي من الكويت إلى الرياض، وبالعكس، ممضية بضعة أيام فقط في عاصمة الوهابيين، ومضى نصف قرن حتى أتى زائر أوربي آخر هو الرحالة الدانماركي باركلي رونكيير الذي أمضى أقل من ثمان وأربعين ساعة في البلدة في ربيع الآخر سنة ١٣٣٠هـ الموافق مارس/آذار ١٩١٢م، وفي ديسمبر/ كانون الثاني من السنة نفسها قضى الكابتن أ. ليتشمان، الذي قدم من دمشق أسبوعاً في القصر ضيفاً على ابن سعود، وأخيراً خلال خريف عام ١٩١٤م قضى وليم شكسبير ثلاثة أيام في الرياض، وهناك زيارة قصيرة للدكتور بول هاريسون إلى الرياض عام ١٩١٧م وهو منصر طبي أمريكي، كان مدعواً من قبل ابن سعود ليعالج بعض الأمراض في العائلة المالكة. ويقول فيلبي: «هذه هي القائمة الكاملة لمن سبقني من الأوربيين إلى الرياض والتي وصلت إليها في ١٤ صفر ١٣٦٦هـ الموافق ثلاثين من نوفمبر لعام ١٩١٧م»، ويقول حول رحلاتهم: «إنه لم يكن من بينهم - باستثناء واحد فقط - من كان لديه وقت كاف لاكتشاف كامل للعاصمة وما حولها»، وكان الاستثناء هو بالجريف «الذي كتب عنه هوجارت أعظم عالم في ذلك الوقت بمعارف الجزيرة العربية، في كتابه «اختراق الجزيرة العربية» المنشور سنة ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٥م: تجول بالجريف في الرياض خمسين يوماً.. وكان مدركاً للمسؤولية العلمية في بقعة الوصول إليها غير سهل خلافاً لأي مكان آخر، وأوجد تحولاً فيما يتعلق بوصف وتعريف الظواهر الطبيعية والاجتماعية ودقة معلوماته الطبوغرافية العامة التي أيدها تقرير خلفه لويس بلي»،ويضيف فيلبي: «وبخصوص وصفي للمكان القديم والنظام الذي أحببته، والذي ما زلت آسفاً على انقضائه، فإنني أمتلك ميزة على بالجريف الذي لم يعد إلى شبه الجزيرة العربية مطلقاً، وهي أنني أمضيت بقية حياتي في البلاد مشاهداً ومسجلاً تطورها خطوة خطوة».





السرديات واللسانيات



السرديات واللسانيات.. ما العلاقة؟

طالعت باهتمام شديد وشغف ما جاء في مقالة الأخ عبدالعالي بوطيب في الفيصل العدد ٢٩٨، ولقد استوقفتني تباينات في العلاقة بين السرديات واللسانيات كما ذهب إليها وعممها الكاتب بوطيب.

أولاً: عليّ أن أحييه على عمق ثقافته، وعليّ أن أحيّي «الفيصل» تلك المجلة الحضارية لأنها المجلة العربية التي تمارس الانفتاح على جميع المعارف من أجل اكتشاف الذات من خلال الآخر، وهذا الانفتاح الذي تمارسه «الفيصل» انفتاح واع لا يقتلع جذورنا من تربتها العربية فيفقدنا خصوصيتنا، ولهذا لن نُحوَّل إلى نَسْخ مشوَّه للآخر، وبهذا تساهم الفيصل بسخاء وفاعلية في توضيح بعض معالم أسرار التعثر الذي يعانيه النقد العربي الحديث؛ ولتجنّب النقد العربي بعض المثالب جاء هذا التعقيب.

بدأ بوطيب المقالة بتكثيف شديد على الرواية خاصة، قائلاً: «إن الأدب محاكاة للحياة كما هي، وللحياة الاجتماعية بشكل خاص»، هل الطبيعة هي الأصل والفن محاكاة لها أو الفن هو الأصل والطبيعة محاكاة له؟ فأرسطو قال بالفكرة الأولى، وكان ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد، أما وسلر(١) ووايلد وأصحاب مدرسة الفن للفن Art to Art فقالوا بالفكرة الثانية، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وهذه القضية في أصل الفن تحتاج إلى قدر من التوضيح والتفصيل ولا يفيد أن نقول: إن لكلٍّ وجهةَ نظر أو ننهي المسألة كما نهاها بوطيب الذي آثر الارتماء في حضن المحاكاة الأرسطية.

رولان بارت

أصاب بوطيب في ضرورة قطع الصلة بين النص والمؤلف؛ لأنه من الخطأ أن ينسب إلى العناصر البيوجرافية أي قيمة نقدية(٢) ونخطئ لو فهمنا معنى الصدق في الأدب(٣) على أنه القرب من الحقيقة الشخصية أو الاتصال بتجارب الكاتب.

الشكلانيون الروس لم يحققوا ما سمي بالقطيعة المعرفية مع التصورات الأدبية، وإن اهتموا بدراسة ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً، والأعمال التي قام بها الشكلانيون في البداية

منصبة في غالبيتها على اللهجات والفولكلور، لاحظ أن هناك إهمالاً للجانب المتعلق بالشعر ولغته وما يطرحه الأدب بصورة عامة، ونتيجة لذلك درسوا اللغة الشعرية بمفاهيم جديدة مأخوذة عن سوسير وفلسفة هوسرل واعترضت الماركسية على الشكلانية ورأت أنها «تخريب ذو طبيعة أيديولوجية»(٤) وتوالت الضربات عليها، نُفِي بعضهم وقتل آخرون حتى توقفت وهاجر أعضاؤها من روسيا، وتمكن جاكبسون من أن ينقل الحركة اللسانية إلى براغ التي تولدت عنها فيما بعد اللسانيات البنيوية، وأزعم أن المقالة التي

اللسانيات لم تستطع حتى حل قضايا اللغة اليومية التي تعد بسيطة إذا قارناها بالسرديات

نشرها تنيانوف وجاكبسون بعنوان «مشاكل الدراسات الأدبية(٥) واللسانية» تطل على استحياء من خلال ما ترتئيه.

المعروف أن عناصر البنائية ثلاثة: الزمان والمكان والشخصية، بجانب العناصر الأخرى كالسرد ووجهة النظر وصيغة الحكي؛ وتحليل الخطاب الروائي وفقاً على ثلاثية الزمن والصيغة والرؤية السردية إنها المكونات المركزية التي لا يختلف فيها اثنان والتي يقوم عليها الخطاب الروائي من خلال طرفيه المتقاطبين الراوي والمروي له، أي إننا وقفنا عند حدود ما يعرف بالمظهر النحوي أو البنيوي أليس كذلك؟

البنية التي تتصف بالمستويات السردية والذهنية والدلالية تجزّئ بنية النص ذاتها، ويُلغي البعد العلائقي فيها إلغاءً تاماً، وهذا لا يكون النظر إليه من خلال عدة بنى سطحية وعميقة وذهنية ودلالية، وإنما يكون من خلال عدة مستويات في البنية الواحدة: المستوى السردي والمستوى الذهني والمستوى الدلالي تتعالق ضفائرياً لتجسد مستوى رابعاً كما يقول فولدمان رؤية الكاتب المستوى السردي اللغوي، أو بتعبير قريب من تشومسكي من خلال التركيب الظاهر عبر تتابع كلمات النص، والتقسيم السردي الذي يبدأ من الفونيم وينتهي بالبناء الكامل للنص مروراً بالكلمة والتركيب والجملة. والمستوى السردي يمثل سطح النص وما يمتاز به من طبيعة نسقية ومن أبعاد تركيبية، وتؤثر الخصوصية النوعية للنص في التقسيم السردي، فما يصلح كتقسيم للنص الروائي قد لا يصلح للنص القصصي أو الشعري، والعكس صحيح، وثمة تقسيمات سردية خاصة بالنص الروائي مثل القسم، والفصل، والوحدة السردية، والمقطع السردي.

تهتم كل من اللسانيات والسرديات باللغة كنسق، فاللغة هي موضوع الحقلين على السواء، لكن اللغة تتعدد وتختلف من حيث الوظيفة والبنية التركيبية. فاللسانيات لا تهتم إلا باللغة الطبيعية التواصلية داخل المجتمعات البشرية، أو اللغة بشكل عام، أما السرديات فإنها لا تنظر إلى اللغة إلا من جانب محدد خاصة في اللغة ذات الوظيفة الجمالية. جاكبسون من الذين شددوا على ضرورة تطبيق اللسانيات على الأدب، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين رأى أن الشعرية Poetique جزء لا يتجزأ عن اللسانيات، وعمل جاهداً لنشر فكرة استقبلت في فرنسا خلال الستينيات أحسن استقبال، وهي أن العمل ليس إلا بنية وحاول جاكبسون نفسه تمكين هذا التصور للأدب عندما شرح نصوصاً بواسطة

المجهر لكي يظهر للعيان توازنات صوتية ولغوية، ونحوية أو أسلوبية، وبذلك رأت النور مقارنة جديدة للأدب معروضة لمصطلحات تقنية صعبة الفهم غالبًا(٧).

وللتأكد من صحة العلاقة بين السرديات واللسانيات أو خطئها هناك جملة مآخذ على اللسانيات، لسانيات فرانزبون وأوراسك، وكذلك لسانيات سوسير وتروبو تشكوي ومارتيني وهاريس وتشومسكي هي تلك العقلية والمنهج أكثر من نتائجها، وهذا الانتفاء يأتي لكون اللسانيات - وعكس ما قاله جاكبسون - لم تستطع حتى حل قضايا اللغة اليومية التي تعد بسيطة إذا قارناها بالسرديات، وهذا ما يحمل في طياته دحض ذلك التصور الذي طرحه بوطيب الذي عدّ الصلة بين اللسانيات والسرديات وثيقة كما تم دحض ما طرحه جاكبسون الذي عدّ الصلة بين اللسانيات والشعرية وثيقة، بل إن الشعرية جزء لا يتجزأ من اللسانيات للتصور المرتبط باللسانيات علاقة بمرحلة انقضت، مرحلة ارتبطت بالحركات الأدبية الكبرى التي ظهرت في بداية هذا القرن مع جيل الطليعة «الشكلانيون الروس والمستقبليون» الذي انتهى بتلك النتائج التي حققتها اللسانيات مع اعتبارهم لهذا العلم اللغوي الجديد آنذاك المفتاح السحري الكفيل بحل كل المشكلات علينا بالحيطة والحذر من بعض النماذج التي أدت إلى فهم خاطئ من طرف جاكبسون والذين أتوا بعده.

ولهذا يقترح رولان بارت(٨) بديلاً منهجيًا يعيد النظر في علاقة الأدب بالتاريخ، ويعدّ الاعتناء بالقارئ أحد عناصر هذا البديل، لكنه



تشومسكي

سرعان ما عدل عن هذه النظرة التي تربط الأدب بما يتجاوزه «بالقارئ» وذلك انسجامًا مع دعوته وممارسته لدراسة محايثه للأدب تختص بالعناصر النصية الداخلية فقط، راح يهتم بالقراءة اهتمامًا خاصًا متمنيًا تأسيس لسانيات سيميولوجية القراءة.. من هذا أمكن القول: إنه لا يمكن التوفيق بين اللسانيات والسرديات المتنافرة بحثًا عن نظرية كلية أو تكاملية مزعومة إلا كما يوفق بعض النقلة عندنا بين المناهج السوسيولوجية(٩) والسيكولوجية والبنيوية أي بالانتقائية المتعسفة، ينبغي ألا نغالي في العلاقة بين السرديات واللسانيات إذ لكل منهما تصور خاص ليس بالضرورة يؤدي إلى تعايش حقيقي، وينبغي أن نعترف بأن لكل منهما تصوره الخاص وبأن كل توفيق في العلاقة بينهما بمنزلة تلفيق لها إذ يلغي أبعادها الفلسفية الخاصة.

عبدالرحمن أبوالمجد
أسوان - مصر

المراجع

١. راجع مقدمة كتاب Kostelanetz. R, on Contemporay Literature, U.S.A. 1971

٢. عبد الرحمن أبو المجد، من أجل وعي بالممارسة النقدية، مجلة «حورس»، فبراير/شباط ٢٠٠٠م ص٢١.

3-Wellek. R and Warren, A theory of Literature, London, 1963, p78.

٤. نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس.
ت: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٢م، ص٢.

٥. مفاهيم نقدية، رينيه ويلك، ت: محمد عصفور، عالم المعرفة، ص٤٠.

٦. سعيد يقطين تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠م، ص٨.

٧. العرب والفكر العالمي، العدد ٧، روجي فايول، نحو علم الأدب.
اتجاهات النقد المعاصر، ت: محمد خير البقاعي، ص٦٨.

8-Barthes Rsland, Le Bruissemont de la langue, Seuil, 1984, p35.

٩. عبد الرحمن أبو المجد، بين النقد والنقض، صحيفة «صوت أسوان»، مارس/أذار ٢٠٠١م.

إسماعيل كسبرالي:
مصلح واقعي كان همه الوفاق الروسي - الإسلامي

ميثم الجنابي
موسكو - روسيا

ولد إسماعيل كسبرينسكي (كسبرالي) في قرية آخجي قرب بخشيسار في روسيا عام ١٨٥١م. كان والده مصطفى كسبرالي من أغنياء منطقة كاسبر قرب يالطة المعاصرة. واستطاع والده أن يحصل على لقب أرستقراطي من القيصرية الروسية مقابل عمله في مؤسساتها، وبخاصة في مجال القوات البرية العسكرية.

ودخل إسماعيل المدرسة الابتدائية، وحين بلغ سنته العاشرة أرسله أبوه لاستكمال الدراسة في المدرسة الروسية. وبعد سنتين من الدراسة نقله أبوه مرة أخرى للدراسة في مدرسة الكاديت (العسكرية) الروسية في مدينة فارونيش. بعدها انتقل إلى موسكو لاستكمال دراسته العليا، حيث أخذ يرتاد، إلى جانب الدراسة، المراكز الأدبية والثقافية الواسعة الانتشار حينذاك في موسكو. واكتشف موهبته المبكرة إيفان كتكوف أحد محرري جريدة الأخبار الموسكوفية. وقد كان كتكوف من بين الشخصيات الروسية الفاعلة وسط الأدباء والمفكرين القوميين السلافيين (الوطنيين). وتوثقت عُرا الصداقة بينهما، إلى أن بدأت ثورة القبارصة ضد الأتراك، التي وقف كتكوف إلى جانبها، بعد مهاجمته الشديدة للأتراك. وقد أثار ذلك الأسى والتألم في قلب الشاب إسماعيل كسبرالي، بحيث ترك صداقة كتكوف وغادر موسكو راجعاً إلى أوديسا من أجل الانتقال إلى تركيا للانضمام إلى جيشها، ولكنه لم يستطع قطع الشوط حتى نهايته بسبب عدم امتلاكه آنذاك جواز سفر يخوله حق الخروج.

اضطر بعدها إلى الرجوع إلى أهله، وأخذ بتدريس اللغة الروسية في المدرسة. إلا أن رغبة الانضمام إلى الجيش التركي ظلت تراوده بين الحين والآخر، وسمح له بالخروج إلى إسطنبول في عام ١٨٧١م، بعدها سافر إلى النمسا ومنها إلى فرنسا. حينذاك بدأ بوضع مشروعه الفكري عن «الإسلام الروسي» (روسكويه موسلمانستفه)، بوصفه أحد الأبدال الفكرية الضرورية لتأسيس موقف المسلمين من أنفسهم ومن الروس والحضارة الغربية. إلا أنه لم يستطع تنفيذه آنذاك بسبب الظروف الحياتية التي اضطرته إلى العمل مترجماً في باريس.

بعدها رجع إلى إسطنبول للعيش عند عمه، وحاول حينذاك دخول المدرسة العسكرية التركية العليا إلا أنه لم يفلح بسبب تدخل السلطات الروسية والسفير الروسي اغناتييف عند الوزارة التركية لمنعه من ذلك. عندها عمل على مد الجرائد الموسكوفية والبطرسبورغية بالمقالات، وأخذ بمزاولة الكتابة الأدبية. وكتب في مرحلته الأولى عن حياة الفلاحين وحياة الناس العادية من خلال تصوير حياة الناس في شبه جزيرة القرم. بعدها كتب قصة حياته بعنوان «فيون دوق دو» وذيلها باسم مستعار هو دانييل بي. وفي كتابه هذا استعرض رغبته في إنشاء جريدة يخدم بها مصالح بلده (القرم) والأتراك في الموقف من الحضارة الأوربية.

في عام ١٨٧٨م تزوج من زهرة خانوم، لعائلة تترية غنية من قازان. وأصبح رئيساً لمدينة بخشيسار. وفي عام ١٨٧٩م كتب عريضة لإنشاء جريدة للمسلمين، غير أن السلطات الروسية رفضت طلبه في أول الأمر؛ آنذاك أخذ بكتابة سلسلة مقالات عن «حالة المسلمين في روسيا» نشرها في الجريدة الروسية - التترية «تافريده». وهي المقالات التي سبق أن فكر بها كمشروع عن المسلمين في روسيا. وفي عام ١٨٨١م جمع هذه المقالات ونشرها في كتاب مستقل بعنوان «الإسلام الروسي». وفي عام ١٨٨٣م حصل على إجازة إنشاء جريدة خاصة بالمسلمين باللغة الروسية

والتترية أسماها «الترجمان». وفي عام ١٩٠٥م غير اسمها إلى «ترجماني أحوالي زمان»، واستمرت بالصدور حتى عام ١٩١٧م أي بعد موته بثلاث سنين، إذ كانت وفاته في عام ١٩١٤م.

أدت «الترجمان» دوراً سياسياً وثائقياً كبيراً، ليس بين مسلمي روسيا فحسب، بل وخارجها أيضاً. وجرى الاعتراف بقيمتها وأثرها حتى من قبل الدول الإسلامية خارج روسيا. ففي الاحتفالات التي أقيمت عام ١٩٠٨م بمناسبة مرور ربع قرن على إنشائها حصلت الترجمان على أوسمة تقدير تركية وفارسية ومن بخارى. وسلمه القيصر الروسي نيكولاي الثاني وسام ستانيسلاف من الدرجة الثالثة. وإلى جانب «الترجمان» أصدر في بخشيساراي صحيفة أسبوعية بلغة القرم التترية تحت عنوان «ملة» (الأمة). وكذلك جريدة خاصة بالمرأة تحت اسم «عالمي نسوان» (عالم النساء).

أعماله الفكرية

لم يترك إسماعيل كسبرالي أعمالاً فكرية كبيرة بالطريقة المعتادة في تقاليد الإبداع الإسلامي، أي إنه لم يترك لنا أعمالاً فقهية أو تاريخية أو فلسفية أو كلامية بالمعنى المتعارف عليه، ولكنه ترك جملة من الأعمال الفكرية الاجتماعية التي جمعها من نتاجاته المتراكمة في الكتابة الصحفية، وذلك يعني أنها تراكمت في مجرى تجاربه الحياتية العملية، وهو الأمر الذي أعطى ويعطي لها حيوية فكرية وسياسية حتى في العالم المعاصر.

لقد أثارت اهتمامه منذ البداية مشكلات الحياة اليومية للمسلمين التتر في شبه جزيرة القرم. ووجد ذلك انعكاسه على كتاباته الأدبية عن حياة الفلاحين في القرم كما وضعها في كتاب (قيون دوق دو). والشيء نفسه يمكن العثور عليه في سلسلة المقالات التي كتبها عن (حالة المسلمين في روسيا)، والتي جمعها في وقت لاحق ونشرها تحت عنوان «الإسلام الروسي»، الذي حاول فيه إرساء قواعد جديدة للعلاقة بين الروس والمسلمين، تتجاوز تقاليد السيطرة والإكراه والهيمنة المميِّزة للسياسة الروسية القيصرية تجاه رعاياها المسلمين.

وتوّج عمله هذا في أهم كتاباته الفكرية ألا وهو (الاتفاق الروسي الشرقي) الذي وضعه باللغتين الروسية والتترية (لغة تتر القرم). واحتوى هذا الكتاب على صيغة مكثفة لتجاربه الحياتية السياسية والفكرية في تأمل حالة المسلمين في روسيا، ومحاولة إنهاضهم عبر حركة تجديدية تبني مواقفها العملية على رؤية واقعية من روسيا. أي إنه حاول التأسيس فيه لرؤية استراتيجية للعلاقة الروسية الإسلامية تخدم مصالح الطرفين.

وكتب أيضاً جملة من المقالات والأبحاث والكتب ذات الصفة التربوية التي سعى من خلالها إلى إنهاض الروح الأدبية عند الجيل الشاب؛ لذا نراه يكتب للصبيان (خواجي صبيان) و(معلوماتي نافيعة) وقد سعى إلى إدراك هدفه عبر تحويله الكتابة الأدبية إلى أسلوب للتربية الأخلاقية، كما هو الحال في روايته الخيالية (إلى إدارتي راحة للمسلمين). وأراد كتابة موسوعة شاملة للمسلمين في روسيا إلا أنه لم يعثر على من يمولها آنذاك.

كل ذلك يشير إلى أن الأعمال الفكرية لإسماعيل كسبرالي كانت تسعى إلى إنهاض الروح العملية عند المسلمين غير أن ما يميزها من الحركات الإصلاحية الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هو موضوعاتها العملية المباشرة المرتبطة بالواقع الروسي وحالة المسلمين فيه.

التجديد والتوحيد، أو الإصلاح والوحدة الإسلامية

لا يعني اهتمام إسماعيل كسبرالي بواقع المسلمين في روسيا (وبمنطقة القرم بالأخص) ضعف اهتمامه بالعالم الإسلامي؛ فإننا نعثر في سلوكه الحياتي اندفاعاً عارماً صوب مشكلات العالم الإسلامي جميعاً. لذا نراه يسافر إلى بخارى وتركستان ومصر والهند للمساهمة في إنهاض الفكر الإسلامي التنويري، والعمل التنظيمي من أجل توحيد المسلمين. وهي فكرة ظلت متغلغلة في أعماق تصوراته عن كيفية خروج المسلمين من المأزق التاريخي الذي أخذوا يواجهونه في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في مواجهة الهيمنة والسيطرة (الكولونيالية).

انطلق إسماعيل كسبرالي في رؤيته لوحدة المسلمين من ضرورة اعتمادها على عقول مستنيرة، وناس قادرين على التضحية والعمل. وهي مهمة مستحيلة في ظل سيادة الجهل والتخلف المادي والمعنوي، ومن هنا وضع قضية الاهتمام بالمعارف والعلوم في صلب تصوراته الإصلاحية، وأكد بهذا الصدد ضرورة الاستفادة من إيجابيات الثقافات الأخرى في مختلف الميادين، والعلمية منها بالأخص؛ فهو يسير هنا في تقاليد العقلانية الإسلامية نفسها، وتقاليدها الإصلاحية القديمة التي كانت ترى أن العلم بحد ذاته فضيلة. بحيث جعله ذلك يقر بإمكانية بل وبضرورة توسع روسيا في المناطق الإسلامية، ولكن بشرط مساهمتها في إنهاض المسلمين ثقافياً وعلمياً. وبنى اجتهاده هذا الذي كان يرمي ضمن تصوراته إلى خدمة وحدة المسلمين على اعتبارين، الأول: هو حقيقة الإسلام التوحيدية والأممية؛ والثاني: رؤيته لطبيعة المكونات الثقافية لروسيا نفسها. ووضع في الاعتبار الأول الفكرة القائلة بأن عظمة الإسلام تقوم على قدرته ومساعدته المسلمين على الاحتفاظ بهويتهم الثقافية، وعلى هذا فإنه لا معنى لتجزئة المسلمين على أساس العنصر

والمكان والتراب. لذا وقف بالضد من أن يكون لكل قوم أو شعب مسلم مفتيه الخاص، عاداً انتماء الجميع إلى الإسلام أرقى من أي اعتبار للقومية. لهذا السبب رأى توحيد المسلمين داخل روسيا مساهمة موضوعية جمع شمل المسلمين. من هنا يمكن فهم موقفه المعارض لما أسماه بالنزعة الانعزالية لمسلمي روسيا آنذاك، الذين أرادوا العيش خارج روسيا، وكتب بهذا المعنى يقول إن مصلحة الدولة (الروسية) تفترض الاستفادة من الجميع بما في ذلك المسلمون. لذا ينبغي أن تتعامل معهم بصورة إيجابية. وفي الوقت نفسه طالب المسلمين بالانخراط الثقافي الفعال في الحياة الروسية؛ فقد استغرب اعتداد بعض المسلمين بالنفس في حين لا تتعدى حياتهم دائرة المناطق الريفية، ومن هنا دعاهم إلى الذهاب إلى المدن والاستفادة من نتاجات الحضارة الروسية. وأعطى لهذا الاشتراك الفعال للمسلمين في روسيا أبعاداً ثقافية عالمية، من خلال ما أسماه بالعامل الوسط في الثقافة الروسية بين الغرب والشرق، وبالعامل الوسط للمسلمين في روسيا بين روسيا وعالم الإسلام. وأعطى لهذه «الوسطية» أيضاً أبعاداً سياسية وروحية، بحيث جعلته يتكلم على «المكان الشرعي» للروس والمسلمين في روسيا بين الغرب والعالم الإسلامي، وذلك بفعل التوافق الباطني بين المسلمين والروس.

كانت مواقف إسماعيل كسبرالي واجتهاداته هذه مبنية على تحسسه واقع المسلمين في العالم بشكل عام، وفي روسيا بشكل خاص. لقد تحسس حينذاك خسارة المسلمين أمام الروس والغرب ثقافياً وحضارياً. وأعتقد أن الاحترام الحقيقي والمحبة المخلصة للإسلام يفترضان الاندفاع الفعال من أجل منافسة الآخرين لا الانعزال المكتفي بذاته. ولم ير في اندفاع المسلمين في روسيا للانخراط في الحياة الروسية والاستفادة منها أمراً «تكتيكياً» أو عابراً بقدر ما وجد في ذلك شيئاً يستند إلى أصوله الخاصة القائمة في «الدِّين» الروسي أمام المسلمين أنفسهم الذين أنقذوا روسيا الروس فيما مضى. وأكد بهذا الصدد أن التتر والمغول قد أنقذوا روسيا من الانحلال في الغرب الأوربي. مما ساهم في إبقاء الأصالة الروسية وتوحيدها اللاحق، ومن ثم فإن على روسيا أن تدفع الثمن، لكن لا بالنقود الآسيوية القديمة، بل بالنقود «الأوربية المعاصرة»، أي بالعلم والمعرفة.

وإذا كانت هذه الأفكار تتشابه ظاهرياً مع ما هو مألوف في الاعتبارات الفكرية لتيار محبي السلافية الروسية وأنصارها وتيار الأوروآسيوية. فإنه يختلف عنها في الباطن من حيث وضعه أولوية العامل الإسلامي في اعتباراته السياسية والثقافية. فهو أيضاً يتكلم على الروح الجماعية والجماعة الروحانية، ومعارضة الفردية الأنانية (بما في ذلك الجماعية والقومية) بوصفها مكونات أساسية في الإسلام وضرورية للمسلمين، إلا أنه أدرج هذه الأفكار في سلسلة الغاية السياسية الكبرى، ألا وهي توحيد المسلمين. معتقداً أن توحيد المسلمين داخل روسيا هو فرصة لتقويتهم الداخلية وتحضرهم السريع.

الأعمال الفكرية لإسماعيل كسبرالي كانت تسعى إلى إنهاض الروح العملية عند المسلمين الروس، ولا يعني اهتمامه بواقع المسلمين في روسيا ضعف اهتمامه بالعالم الإسلامي

الوفاق الروسي - الإسلامي: مشروع المستقبل

وضع إسماعيل كسبرالي بهذا الصدد نظريته عن الوفاق الروسي الشرقي (الإسلامي)، التي انطلق فيها من واقع وجود المسلمين ضمن إطار الدولة الروسية من جهة، وطبيعة العلاقة التاريخية بينهما من جهة أخرى. ورأى وجود المسلمين في روسيا خيراً لهم، انطلاقاً من إمكانية الاستفادة مما توفره الثقافة الروسية المعاصرة، بينما عدّ تاريخ العلاقة بين الروس والمسلمين ضمانة الوفاق التاريخي بينهم، خصوصاً أنهما يمثلان ثقافياً وروحياً موقع الوسط والحلقة الرابطة بين الغرب والشرق. وروسيا بهذا المعنى هي «قدر» المسلمين فيها؛ لأن روسيا هي طريق الغرب الأوربي إلى المسلمين، الذين يحصلون على الثقافة الأوربية بعد مرورها في التجربة الروسية. أي إنها تصل إليهم «بصورة مشذبة» وخالية من عنفوان الأوربية المباشرة. وهو أمر يجعل من الممكن الأخذ بنتاجات الثقافة الأوربية دون الاصطدام المباشر بها. خاصة إذا عرفنا أن روسيا تتصف بصفات ثقافية ونفسية مشتركة مع المسلمين، إضافة إلى إنها لا تتميز بسياسة القهر الحضاري؛ فالروس تعودوا وجود أكثر من ثقافة بينهم.

وصاغ من هذه المقدمة مطلبه القائل بضرورة تذليل الشكوك المتبادلة بينهما، وعدّ أن إعلان روسيا وطناً للجميع بغض النظر عن الدين والعرق، هو الأساس الضروري لهذا الوفاق، بمعنى إقناع المسلمين بأن وجودهم ضمن روسيا يعطي لهم إمكانات هائلة للتقدم والازدهار العلمي والثقافي والاقتصادي (التجاري)، وإقناع الدولة الروسية بألا تكون عندها شكوك تجاه المسلمين، وأن تزيل من هواجسها وسلوكها موقف الشك الدائم في المسلمين بأنهم عملاء للدول الإسلامية (العثمانية بالأخص). ويترتب على ذلك بنظر كسبرالي سيادة الواجب المشترك عند الروس والمسلمين تجاه الدولة ومسؤولية الدولة المتساوية تجاههما. ورأى «عدم تدخل الدولة في الشؤون الداخلية للمسلمين» عملاً ضاراً.

فإذا كان ذلك سائغًا فيما مضى، فإن الظروف المعاصرة تفترض دخول المسلمين واشتراكهم الفعال في إدارة الدولة. أي ينبغي أن يكون الجميع مشتركين فعالين في بناء روسيا العظمى. وهو اشتراك ينبغي أن يستند إلى مبادئ الحرية والإبداع، اللذين لا يتعارضان مع تقاليدهما وإيمانهما فحسب، بل يساعدان على نهوضهما المشترك.

واعتقد كسبرالي أن الدولة القيصرية ينبغي أن تعمل من أجل وضع الشروط المتكافئة للجميع، واستعمال الأساليب النبيلة من أجل بلوغ هذه الغاية. إذ لا يمكن بلوغ الغاية السامية، كما يقول كسبرالي بوسائل مشبوهة، وإن رسالة القيصرية الروسية ينبغي أن تكون رسالة أخلاقية روحية تساهم في تذليل تخلف رعاياها المسلمين، لا بالإبقاء عليهم في غياهب الجهل والتخلف؛ لأنه في حالة عدم قدرة القيصرية وروسيا على رفع مستوى هذه الشعوب، فإنها لا تمتلك الحق الشرعي والأخلاقي للتدخل في شؤونهم.

وحاول أن يؤسس لفكرته عن الوفاق الروسي - الشرقي (الإسلامي) من خلال ربط الأبعاد الجيوسياسية والثقافية للعلاقة الروسية - الإسلامية في كل واحد. فقد انطلق مما أسماه بضرورة تذليل خطورة الصين والإنجليز. فالصين تتميز بسيادة فكرة السلطة من أجل السلطة والتصيين الذي يسحق الأصالة الثقافية للشعوب والقوميات، بينما يتميز الإنجليز بالصلافة وعدم احترام تقاليد الشعوب الأخرى. أما الروس فإنهم على خلاف ذلك؛ فهو لم ير شعبًا سائدًا يعامل الشعوب الأخرى الخاضعة له ضمن الدولة على قدر المساواة، كما أنهم ينظرون إلى الآخرين كما لو أنهم منهم وإليهم. ولا يتميز الشعب الروسي بروح العداء للمسلمين، بل هم أكثر تسامحًا وأعدل في علاقتهم بالشعوب التركية المسلمة في روسيا من أتراك السلطنة العثمانية تجاههم. يضاف إلى ذلك أن الروس يختلفون عن الأوربيين الغربيين المتميزين بالأنانية والنفعية البارزة. فالمسلمون يرون في الروس أيضًا ذاتهم المشتركة مثل الانفتاح والتسامح والصداقة وحب الآخرين. لهذا اشترط في ترسيخ الوفاق الروسي الإسلامي اعتماده على الشعور المشترك بالانتماء المعنوي إلى روسيا، لا على أساس الاعتبارات النفعية والسياسية الضيقة. وطالب المسلمين بأن يكونوا أولاً وقبل كل شيء وطنيين، وبالعمل مع الروس من أجل التنوير والنهضة. ويقتضي ذلك من الدولة الروسية العمل من أجل تخليص المسلمين من الجهل والتخلف. إذ لا ينبغي أن تكون السيطرة الروسية من أجل السيطرة والاستغلال ودفع الجزية. ومن العيب على روسيا أن تكون مهمتها بهذا الصدد مجرد الاستعاضة عن القاضي بتسمية الحاكم، وعن النائب بتسمية الشرطي. إن مهمة روسيا كما خطط لها كسبرالي في الوفاق المفترض هي مهمة حضارية.

وأعتقد أن سياسة كهذه سوف تدفع حدود روسيا إلى كل مناطق الأتراك المسلمين، بحيث تصبح هذه المناطق عاجلاً أم آجلاً جزءًا من الدولة الروسية.

وربط كسبرالي هذه الحالة بسيادة الحقوق والواجبات المشتركة الجميع في الدولة الروسية. لذا طالب بأن يعيش الروس والمسلمين في دولة واحدة بقوانين واحدة، كشركاء، مثلما يعيش أبناء عائلة كبيرة من شعوب وقوميات متنوعة.

وعدّ مساواة الجميع حاجة طبيعية، بينما يؤدي استعمال القوة إلى تدمير الدولة ورعاياها. وكتب بهذا الصدد قائلا: إن الدولة لا ينبغي أن تجمع ما هو غير قابل للإجماع، كما لا ينبغي لحم ما هو قابل للتكسر في كل لحظة. أي ينبغي على الدولة ألا تستعمل القوة في فرض شروطها دون أن تأخذ في الحسبان حقوق من تريد ضمه إليها. ووضع في هذه الحقوق مساواة الجميع، وأدرج في هذه المساواة الضرورية للوفاق الروسي الإسلامي سيادة الحرية والإبداع المشترك. لهذا طالب بالكف عن الروسنة المفروضة بالقوة، وطالب بالاستعاضة عنها بالوحدة الروحية الأخلاقية والحفاظ على الأصالة الثقافية. من هنا برز وقوفه المُعارض لتدخل الدولة في كل دقائق الحياة الاجتماعية والروحية للمسلمين، وطالب بالحرية السياسية بصفتها فضيلة ضرورية لوجود الدولة والأمم. ورأى أن أفضل خدمة يقدمها المواطن طواعية للدولة هو المواطن الحر. أي ينبغي للجميع أن يكونوا أحرارًا في خدمة الدولة. ولم يقصد هو بهذه الخدمة العبودية للدولة، بل الإبداع الحر المستند إلى فكرة الحق والواجب. فما كان يقلق عقل كسبرالي وضميره ليس «المصير الروسي» بل حقوق المسلمين وواجب الدولة الروسية تجاههم. وفي حالة تطبيق الدولة الروسية لمبادئ العدل والمساواة والحرية، فإنها تكون بذلك الأقرب إلى أفئدة المسلمين وعقولهم، لأن هذه المبادئ هي مبادئ المثال النموذجي للحكم الإسلامي والحضارة الإسلامية. وروسيا المثلى هي روسيا المبنية على أساس الاتحاد الطوعي المرتكز على مبادئ المساواة والحرية والعلم والتربية والتعليم.

تجربة كسبرالي وحياته وفكره ومشروعاته كانت وستبقى ذات قيمة حيوية بالنسبة إلى المسلمين عمومًا وبالنسبة إلى العلاقة الضرورية بين العالم الإسلامي وروسيا بشكل خاص

المأثرة التاريخية
لشخصية إسماعيل كسبرالي وأفكاره

إن إسماعيل كسبرالي - دون شك - أحد الأعلام المتميزين للحركة الإصلاحية الإسلامية الجديدة في روسيا. تميزت آراؤه ومواقفه بالواقعية وغلبة النوازع الاجتماعية والسياسية فيها. فهو يشبه الكواكبي من حيث اهتمامهما الأساسي بقضايا الواقع السياسي والاجتماعي للمسلمين غير أن ما يميز إسماعيل كسبرالي أن شخصيته الاجتماعية والسياسية تبلورت في مجرى الدفاع عن حرية المسلمين وتقدمهم في ظل السيطرة الروسية، وكانت أفكاره العلمية والعملية موجهة من أجل إيجاد الحلول لمشكلات المسلمين في روسيا والخروج بهم من المأزق التاريخي والثقافي آنذاك. وأوصلته رؤيته الواقعية إلى التشديد على أولوية التنوير والتربية والتعليم والتأسيس للتدرج في ميدان الحرية الاجتماعية والسياسية؛ لذا نراه أيضاً يقف ضد الفكرة الاشتراكية المنتشرة حينذاك بين الروس بعد ثورة ١٩٠٥م، انطلاقاً من عدم ثقته بالنجاح السريع عاداً الراديكالية خطراً على التحرر الاجتماعي والثقافي، ومدمرة للأصالة الثقافية، ومن هنا جاء اتزان موقفه من الغرب الأوربي. فقد أكد من جهة أنانية الغرب، وأعطاه في الوقت نفسه حقه بوصفه معقل العلم والثقافة في ذلك الوقت. واقتبس منه فكرة التنوير والحرية، ولكنه لم يجر بخطا أنصار السلافية الروس ومحبيهم في انتقادهم المرير «لبرلمانية الغرب وإلحاده» وما شابه ذلك. لقد بنى معارضته للغرب الأوربي على أساس انعدام التعددية الثقافية فيه؛ وانطلق في ذلك من يقينه أن الغرب لا يعرف سوى سياسة الهيمنة والابتلاع والسيطرة، بينما شكلت الأصالة الثقافية والدينية للمسلمين بالنسبة إلى كسبرالي مرجعية ثابتة في فكره.

بينما كان مشروعه عن الوفاق الروسي - الإسلامي في غاياته هو مشروع المستقبل، بناه على أساس تاريخي - ثقافي - روحي، بمعنى تداخل الرؤية التاريخية في نماذج الثقافتين الروسية والإسلامية. وهو تداخل تراكمت عناصره في مجرى قرون متعددة من الحرب والسلم، ترتبت عليه صيرورة أبعاد روحية متغلغلة في أجساد المسلمين والروس وأرواحهم، متشابهة في السلوك والأخلاق والأمزجة. لذا رأى أن على الدولة الروسية أن تبني موقفها من المسلمين على أسس روحية أخلاقية لا على أساس القوة والغلبة، كما مارسته تجاه البولنديين والفنلنديين وغيرهم. واعتقد أن روسيا سوف تسير في هذا الطريق، وسوف تترأس التمدن الإسلامي، الذي يجعل من العالم الإسلامي وروسيا قوة لها أثرها التاريخي الهائل.

لم تكن أفكار إسماعيل كسبرالي ومشروعاته هذه معزولة عن واقع المسلمين في القرن التاسع عشر وخضوعهم للسيطرة الروسية، أي إن اجتهاده كان منصباً على البحث عن سبل واقعية للنهوض بمسلمي روسيا، والمسلمين من خلالهم بشكل عام. وهي فكرة لها أصالتها الثقافية وأبعادها الجيوسياسية المعاصرة. أي إنها لم تفقد قيمتها المعاصرة بعد ضرورة الأخذ بحصيلة التغيرات التي جرت على النطاق العالمي في مجرى القرن العشرين بشكل عام، وعلى مسلمي روسيا (القيصرية) والاتحاد السوفييتي بشكل خاص.

فقد أدى زوال روسيا القيصرية إلى زوال «مشروع الوفاق الروسي الإسلامي» بصيغته التي اقترحها كسبرالي. ولكنه فتح الطريق أمام إمكانية ظهوره في التشكيلة السوفييتية، التي أدرجت الشعوب الإسلامية في تركيبات دولية وقومية أدت إلى تجميعهم المتجزئ. وهي خطوة متناقضة من حيث قيمتها السياسية والثقافية. أي إن المرحلة السوفيتية جسدت بصورة جزئية مشروعه عن الوفاق وعن التمدين والتنوير، ولكنها خربت بصورة كبيرة مبادئ الأصالة الثقافية للمسلمين. وتجلى ذلك بصورة مأساوية بالنسبة إلى شعبه ووطنه الأم (القرم).

انطلق كسبرالي في رؤيته لوحدة المسلمين من ضرورة اعتمادها على عقول مستنيرة، وناس قادرين على التضحية والعمل

عانى المشروع الثقافي السياسي لكسبرالي من نقاط ضعف، منها وهم التجمع الحر للمسلمين وتنويرهم التام داخل قومية وثقافة دولة أخرى مسيطرة عليهم. فالسيطرة بحد ذاتها لا تفترض ولا تستلزم المساواة. إضافة إلى ذلك أن التجمع الحقيقي للقوميات والثقافات يفترض خوض معاناة الصراع من أجل خلق مكونات الوحدة الداخلية، لا الوحدة المفروضة خارجياً. أما مطالبته الدولة القيصرية بتقديم شروط متكافئة للمسلمين مع الروس فهو وهم يتناقض مع كامل تاريخ القيصرية وسياستها. وهو الوهم نفسه القائم في تصوراته عن إمكانية الرسالة الروحية والأخلاقية للقيصرية تجاه المسلمين، والشيء نفسه يمكن قوله عما أسماه بدور روسيا الحضاري، وضرورة دخولها مناطق عيش الأتراك جميعاً! إذ يفترض هذا التصور وجود روسيا المثالية. ولا مثالية في السيطرة؛ لأن السيطرة تسعى أساساً إلى الحصول على غنيمة، إضافة إلى ما في هذا التصور من إجحاف بالحقيقة التاريخية التي لازمت تفوق المسلمين تاريخياً وثقافياً لآلاف السنين على الروس وغيرهم. ذلك يعني أن الوفاق الروسي - الإسلامي يستلزم أولاً وقبل كل شيء المساواة والتكافؤ الوجودي للثقافات والأمم عبر بنائه على أسس المعاناة الذاتية في البحث عن النظام الأمثل.

الملف الثقافي

مؤتمر وجائزة عالميان باسم الملك فهد

تكريم الأمير عبدالله الفيصل في المغرب

إعلان أسماء الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية

اكتشافات أثرية في سورية والعراق

جونكور لروفان وجائزة تيودور أدورنو لجاك ديريدا

مؤتمر «التعليم وأسواق العمل» في بيروت



خاتمة المطاف

في مفهوم

التراث

مؤتمر وجائزة عالميان باسم الملك فهد

في إطار الاحتفالات التي تنظمها المملكة العربية السعودية بمناسبة مرور عشرين عاماً على تولي خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز مقاليد الحكم، نظمت جامعة الملك سعود مؤتمراً عالمياً في الفترة من ٢٦ - ٢٨ شعبان الماضي عن خادم الحرمين الشريفين


الملك فهد بن عبد العزيز

وإنجازاته، وقد رعى المؤتمر صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد، ونائب رئيس مجلس الوزراء، رئيس الحرس الوطني، وافتتح فعالياته صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض، الذي ألقى كلمة سمو ولي العهد بالنيابة.

وقد حظيت فعاليات المؤتمر بحضور كبير ومشاركة عالمية واسعة ساهمت في إغناء جلسات المؤتمر وإنجاحه، واشتمل المؤتمر على عدة جلسات علمية وثقافية تضمنت أوراقاً بحثية ومحاضرات عامة وموائد مستديرة تناولت بالبحث والتحليل تلك الجهود العظيمة التي بذلها خادم الحرمين الشريفين - يحفظه الله - في خدمة الإسلام والمسلمين في شتى بقاع العالم، وعمارة الكعبة المشرفة والمسجد الحرام بمكة المكرمة ومرافق الحج، وعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، وعمارة المساجد في مختلف أنحاء المعمورة، وجهوده المقدرة في ترجمة معاني القرآن الكريم وطباعتها ونشرها، وكذلك التطور الكبير في مجال التعليم بشقيه العام والعالي وتطوير القطاع الإداري والعلاقات السياسية، وهذه الجوانب تناولتها ثلاثة محاور هي: «خدمة الإسلام وعمارة الحرمين الشريفين» و«المحور التربوي»، و«المحور الإداري والسياسي».

وقبلت اللجنة العلمية للمؤتمر خمساً وتسعين ورقة بحثية تقدم بها نخبة من رجالات الفكر والسياسة والثقافة من داخل المملكة وخارجها، وشارك فيه من خارج المملكة قرابة (٤٠٠) باحث ومفكر ينتمون إلى أكثر من (٥٠) بلداً، وممثلون من هيئات إقليمية ودولية تناولوا بالبحث والتحليل إنجازات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز في خدمة الإسلام والاهتمام بقضايا الأمة العربية والإسلامية وتطوير بلاده ورفاهية شعبه والوصول إلى مصاف الدول المتقدمة.

كما وافقت اللجنة العلمية للمؤتمر على قبول أكثر من (٧٠) مشروع كتاب ترصد الجهود الجبارة التي قام بها - يحفظه الله - في مجال خدمة الإسلام والمسلمين على كل المستويات المحلية والإقليمية والدولية وعمارة الحرمين الشريفين، وكذلك مختلف أوجه التطور التي شملت: المجالات السياسية والاقتصادية والتعليمية والصناعية والزراعية والعمرانية والصحية والثقافية والاجتماعية، وغيرها من المجالات التي نالت حظها من النماء والتطور خلال العقدين المنصرمين من هذا العهد الزاهر.

وعلاوة على هذا النشاط الثقافي صاحب فعاليات المؤتمر تنظيم معرض شاركت فيه (٤١) جهة تمثل عدة قطاعات تعكس مختلف أوجه التطور الذي حدث في شتى المجالات.

وأصدر المؤتمر في ختام اجتماعاته عدداً من التوصيات من بينها:

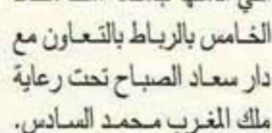
- أن تكون كلمة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني التي افتتح بها المؤتمر وثيقة من وثائق المؤتمر.
- تأليف موسوعة متكاملة عن إنجازات خادم الحرمين الشريفين على المستوى المحلي والمستوى الدولي مع ترجمتها بعدد من اللغات الأجنبية، مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية... إلخ. وغير ذلك من التوصيات.

وكان صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن فهد بن عبدالعزيز وزير الدولة، عضو مجلس الوزراء ورئيس ديوان رئاسة مجلس الوزراء قد أعلن خلال فعاليات المؤتمر عن تخصيص جائزة عالمية باسم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز على غرار جائزة نوبل والجوائز العالمية الكبرى، وترمي هذه الجائزة إلى العناية بالعلوم العربية والإسلامية وتقدير جهود العلماء المبدعين وتكريم الشخصيات والمؤسسات التي تسهم في مجالات خدمة السلام العالمي، والعمل الإنساني، وتهتم الجائزة أيضاً بعدة مجالات متخصصة لخدمة الإسلام واللغة العربية والعلوم التطبيقية: الطبية والاجتماعية، وتمنح الجائزة أيضاً لمن يحقق إنجازاً مميزاً في البحث العلمي من طلاب الدراسات العليا، كما تعطي منحاً دراسية لأبناء المسلمين المتفوقين.

وأعلن سموه عن قيام «مركز الملك فهد العالمي للترجمة» الذي سيساهم في توفير مكتبة علمية عربية تنقل العلوم الإسلامية والعربية إلى لغات الأمم الأخرى، وتيسر سبل البحث ونشر العلوم وجعلها في متناول جميع الناطقين باللغة العربية، كما سيساهم في ترجمة الكتب العلمية والأدبية والدوريات المتخصصة، وكذلك تعريب الإنترنت وبرامج الحاسوب (الكمبيوتر).

وسام الكفاءة الفكرية للأمير عبدالله الفيصل


الأمير عبدالله الفيصل



منح العاهل المغربي الملك محمد السادس وسام الكفاءة الفكرية للشاعر الأمير عبدالله الفيصل تقديراً لعطائه الفكري وإبداعه المتميز؛ وذلك على هامش الندوة العلمية التكريمية التي أقامتها جامعة الملك محمد الخامس بالرباط بالتعاون مع دار سعاد الصباح تحت رعاية ملك المغرب محمد السادس.

وقد تسلم درع الجائزة نجله صاحب السمو الملكي الأمير سعود نيابة عن والده الذي غاب عن حضور الاحتفالية لأسباب صحية، وقد عبّر الأمير سعود العبدالله الفيصل عن شكره للملك محمد السادس لهذا التكريم.

وقال نجيب الزروالي وزير التعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي: «إن هذه الندوة تشكل أرضية لتأسيس تعاون مثمر بين المؤسسات العلمية، في البلدان العربية، وسترسم صورة للشاعر، وتصنف بمقياس التاريخ منعطفات فكره وأشعاره الرائعة»، كما أشاد بالتفاتة الملك محمد السادس ورعايته لهذا التكريم.

وأكد الحاضرون في مداخلاتهم التقدير الكبير للأمير الشاعر، وقال عبدالله المعطاني - أستاذ النقد في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة: «إن عطاء الأمير عبدالله الفيصل جعل الأمة تحس بمسؤولية الشاعر في بناء الحضارة وتأسيس الثقافة...».

وتم عرض شريط وثائقي يؤرخ لمحطات بارزة في حياة الأمير الشاعر، ثم تواصلت فعاليات الندوة وقُدّم عدد من المحاضرات التي ترصد تجربته الشعرية.

ومن ناحية أخرى تقيم دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع احتفالية عربية مماثلة يومي ١٩ و ٢٠ ديسمبر/كانون الأول الحالي بالقاهرة تكريماً للشاعر بمناسبة صدور الكتاب الاحتفالي «الشاعر عبدالله الفيصل بين مشاعر الحرمان وغربة الروح»، تحت رعاية وزير الثقافة المصري فاروق حسني.

ومن المقرر أن يتحدث صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير ورئيس مؤسسة الفكر العربي في هذه المناسبة، كما يوزع خلال الاحتفال الكتاب التكريمي الذي تقدمه الدكتورة سعاد الصباح عن سمو الأمير عبدالله الفيصل، ثم يتم عرض الفيلم التسجيلي «ربع الدنيا» الذي أخرجه أنور قوادري، ويتناول سيرة حياة سمو الأمير عبدالله الفيصل عبر شهادات معاصرة وعدد من الوثائق النادرة.

وتقام ندوة نقدية لدراسة أعمال سمو الأمير عبدالله الفيصل يشارك فيها عدد من المثقفين العرب، كما تقام أيضاً يوم ١٩ ديسمبر/كانون الأول الحالي في اليوم الأول للاحتفالية أمسية شعرية يحييها عدد من الشعراء العرب والمصريين.

وتختتم الاحتفالية يوم ٢٠ ديسمبر/كانون الأول الحالي بحفل في دار الأوبرا المصرية تحييه فرقة الموسيقى العربية، وستقدّم فيه أربع قصائد من تأليف الشاعر الأمير عبدالله الفيصل غنتها أم كلثوم وعبدالحليم حافظ، وهي «ثورة الشك»، و«من أجل عينيك»، من ألحان رياض السنباطي، و«سمراء» من ألحان كمال الطويل، و«ياما لكًا قلبي» من ألحان محمد الموجي.

إعلان جائزة الملك فيصل العالمية
الأمير خالد الفيصل: سنشارك في إثراء الفكر الإنساني ولن نتخلى عن قيمنا وثوابتنا


الأمير خالد الفيصل

بعد أن أعلن صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام في التاسع من رمضان الماضي (٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني الماضي) اسم الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام وهو سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، أعلن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير رئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية بقية أسماء الفائزين بالجائزة في فروعها الأربعة الأخرى، وذلك في مساء ١٢ رمضان ١٤٢٢هـ (٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي). ففاز بجائزة الأدب العربي اثنان هما الأستاذ الدكتور حسام الدين أمين الخطيب (سورية)، والأستاذ الدكتور حسني محمود حسين (الأردن)، وفاز بجائزة الطب اثنان وهما الأستاذ الدكتور فن واقستين (السويد) والأستاذ الدكتور يوجين برونولد (أمريكا)، بينما تناصف جائزة العلوم الأستاذ الدكتور يوري مانين (روسيا) والأستاذ الدكتور بيتر ويليستون شور (أمريكا).

وجاء في كلمة سموه: أرحب بكم في هذا المساء المبارك، وكل عام - إن شاء الله - وأنتم والمسلمون وجميع البشرية بخير وعافية.

في بدء هذه الكلمة القصيرة أود أن أتقدم بباقات ورد، الباقة الأولى لمولاي خادم الحرمين الشريفين بمناسبة مرور عشرين عاماً على توليه مقاليد الحكم في هذه البلاد التي خطت في عهده المديد خطوات كبيرة من التطور والرقي والبناء، وأهنئ مولاي بهذا الشعب الكريم بحبه وولائه وأهنئ الشعب العظيم بهذه القيادة الحكيمة المتفانية لخدمتهم.

وباقة الورد الثانية أقدمها لسيدي صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني على هذه المواقف المشرفة التي شرفت كل عربي مسلم إزاء قضيتنا الأولى قضية فلسطين وما أبداه من اهتمام واتصالات مع القيادة الأمريكية حتى وصلت هذه الاتصالات إلى إعلان الولايات المتحدة الأمريكية تأييدها لإقامة دولة فلسطينية على أرض فلسطين.

فشكراً لسموه باسمي وباسم جميع أهل الفكر وأهل الأدب وأهل العلم في هذه البلاد وجميع البلاد العربية والإسلامية.

والباقة الثالثة أقدمها لسيدي صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز الذي امتدت أياديه البيضاء لمساعدة هذه المؤسسة في كل مجالاتها الخيرية وآخر هذه المساعدات هو موقفه المعنوي والمادي حتى تم بناء مشروع الفيصلية، ولولا دعم سموه المستمر لما تم هذا البناء، وشكراً له وهو الذي وصفه سمو سيدي الأمير سلمان بأنه مؤسسة خيرية تسير حيث ما سار الخير وتمتد إلى مشارق الأرض ومغاربها وحيث ما حل حل الخير لسلطان الخير.

الشيخ الدكتور سلطان القاسمي

أما الباقة الرابعة فإنني أقدمها للفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية لهذا العام، وأقول لهم: إن هذه كلمة شكر، ولو كانت قليلة أو صغيرة، إلا أنها كبيرة بمعناها لأنها تقدر العلم والعلماء من مؤسسة أنشئت لخدمة العلم وإثراء البشرية بمشاريع الخير.

أما الباقة الخامسة فإنني أقدمها لأولئك الذين هاجموا هذه البلاد ووصفوها بالتخلف ووصفوها بمصدر الإرهاب وإيواء الإرهاب وأرد عليهم بهذه الباقة من خمس وردات: خدمة الإسلام، والدراسات الإسلامية، والأدب العربي، والطب، والعلوم، وأقول لهم: هاجموا كما تريدون فإننا على ثقة من أنفسنا، ولن نحيد - إن شاء الله - عن مسارنا في خدمة الإنسانية والبشرية، وإن هذه البلاد كانت ولا تزال مصدراً للإشعاع الحضاري منذ أن بزغ فجر الإسلام على أرضها، وما حضارة الغرب اليوم إلا ما بنته على قواعد الحضارة العربية والإسلامية، وأعدهم بأننا سوف نشارك في كل أمور الخير لرفعة شأن الإنسان البشري على هذه الأرض التي استخلفه الله عليها لبنائها ولإعمارها، وليس لهدمها أو تخريبها.

سوف نشارك في إثراء الفكر الإنساني، سوف نشارك في إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات، سوف نشارك في تكريم العقول والعلماء والمبدعين، سوف نشارك في كل مسيرة فيها رفعة شأن الأمة العربية والإسلامية والعالمية بشكل جمعي، ولكن إذا كان ما يراد من هذه الهجمة أن نتراجع عن موقفنا الإسلامي أو عن ثوابتنا أو عن ديننا أو أخلاقنا فإننا نرد عليهم بما قاله رسولنا صلى الله عليه وسلم للمشركين عندما قال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري



د. حسام الدين الخطيب



د. حسني محمود حسين

على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وقد تلا الدكتور عبدالله العثيمين أمين عام الجائزة أسماء الفائزين في الفروع الخمسة ومسوغات نيلهم جوائز هذا العام، فقد نال صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي - حاكم الشارقة - في دولة الإمارات العربية المتحدة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام لقيامه بمشروعات تعليمية وصحية وإيوائية في كثير من بقاع العالم. ومن ذلك بناء المدارس والمعاهد والجامعات وتقديم المنح الدراسية لطلاب العلم من المسلمين في جامعات عالمية، وإنشاء المراكز الصحية، وإقامة السدود والمساكن للمتضررين من الفيضانات والكوارث الطبيعية، وعمارة المساجد، وتعبيد الطرق، وتجهيز شبكات الكهرباء والمياه والصرف الصحي، وقيادته الحكيمة المتمثلة بحرصه

على التزام أوامر الشريعة ومكافحة ما يضرُ بمواطنيه؛ دينياً وأخلاقياً، وتأليفه كتباً تاريخية قيّمة كشف بها مظالم الاستعمار وجنايته في منطقة الخليج.

وقررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية حجب الجائزة، هذا العام (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) وموضوعها «الدراسات التي عنيت بمقاصد الشريعة»، لعدم ارتقاء الأعمال المرشحة إلى مستوى الجائزة.

وقد منح الدكتور الخطيب جائزة الأدب العربي وموضوعها «الدراسات التي تناولت الأدب العربي الفلسطيني الحديث في تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضاياه» تقديراً لجهوده العلمية عامة ولعنايته الواضحة بدراسة الأدب العربي الفلسطيني الحديث إبداعاً ونقداً في داخل فلسطين وفي الشتات.

ونال الدكتور حسني محمود الجائزة تقديراً لدراساته وبحوثه النقدية في مجال الأدب العربي الفلسطيني الحديث وإسهاماته البارزة التي وقف عليها جانباً كبيراً من حياته العلمية.

ونال الدكتور فن واقستين جائزة الطب وموضوعها «الخلل الوظيفي لقصور القلب المزمن»، لكونه أول من اكتشف الفائدة الكامنة في علاج قصور القلب الاحتقاني بحاصرات البيتا ودورها في إبطال مفعول الكاتكول إمينز الضار، وكان ذلك في عام ١٩٧٦م، وقد قوبلت نتائج بحوثه بكثير من التحفظ، ولكنه تابع دراساته عشرين عاماً أخرى قبل أن يحظى بقبول نتائج تلك البحوث، ومنذ خمس سنوات مضت أصبح استخدام حاصرات البيتا حجر الزاوية في علاج قصور القلب في جميع أنحاء العالم، وقد نشر أكثر من ٢٠٠ بحث في مجال الخلل الوظيفي لأمراض القلب في مجلات علمية عالمية.



د. يوجين برونولد — د. يوري مانين



د. فن واقستين

أما الأستاذ الدكتور يوجين برونولد فقد أثرى ببحوثه الأصيلة على مدى ٤٠ عاماً فهم الأسرة الطبية للخلل الوظيفي لمرض القلب المزمن، وأصبحت إسهاماته الرائدة الأساس لعلاج فاعل لهذا الخلل، ومن خلال نشاطاته البحثية الواسعة أصبح له دور قيادي عالمي في مجال تخصص أمراض القلب. وشارك يوجين في نشر أكثر من ١١٠٠ بحث، وألّف كتاب أمراض القلب والأوعية، وكتاب هارسن لمبادئ الطب، الواسع الانتشار والاستعمال في كليات الطب في جميع أنحاء العالم. وشملت نشاطاته البحثية تجارب سريرية ومخبرية مهمة في مجال قصور القلب الاحتقاني ومتلازمة الشرايين التاجية الحادة.

ونال جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم وموضوعها (الرياضيات) الأستاذ الدكتور يوري ي. مانين الروسي الجنسية.

وهو من أعظم علماء الرياضيات في العالم منذ أربعة عقود. وكان أكثر عمله، في المرحلة الأولى من حياته العلمية، في نظرية الأعداد، وفي الهندسة الحسابية الجبرية، ثم امتدت بحوثه إلى الفيزياء الرياضية، فكان له شأن عظيم في إقامة أساس رياضي مكين للفيزياء النظرية الحديثة.

أما الدكتور شور فكان إسهامه في ميدان الحواسيب فتحاً جليلاً. والحواسيب الكبرى الموجودة في مراكز البحوث اليوم قادرة على القيام بأكثر من ألف مليار عملية حسابية في الثانية الواحدة.

وموضوعات الجائزة للسنة القادمة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) على النحو الآتي:

«الدراسات الإسلامية» وموضوعها (الدراسات التي تناولت التاريخ الاقتصادي عند المسلمين لمنطقة أو حقبة في مجال أو أكثر)، و«الأدب العربي»: موضوعها (الدراسات التي عنيت بتعريف المصطلحات الأدبية والنقدية)، و«الطب» موضوعها «سرطان الثدي»، و«العلوم» وموضوعها «الكيمياء».

والأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية تحمد الله على توفيقه، وتشكر أعضاء لجان الاختيار الكرام والخبراء والحكام الأفاضل على ما قاموا به من جهود عظيمة، كما تشكر كل من تعاون معها من المنظمات الإسلامية والجامعات والمؤسسات العلمية بالترشيح، وتتقدم بالتهاني الخالصة للفائزين، آملة أن يمد الله العاملين في حقول الخير بالعون والرعاية. والله ولي التوفيق.

وقد أجاب الأمير خالد الفيصل عن أسئلة الصحفيين، فقال: معلقاً على سؤال حول هل هناك تفكير لتخصيص جائزة تشجيعاً للأدباء

الشباب من السعوديين: إن الجائزة تكريمية، وليست تشجيعية. وعن مدى تأثير الأحداث السياسية في توجهات الجائزة قال: إنها لم ولن تتأثر بالمتغيرات، لأنها لخدمة البشرية جمعاء. وانتقد سموه الإعلام العربي، وقال: إنه لايزال فاشلاً في نقل الصورة الصحيحة عن الأمة العربية.

ونفى أن يكون للجائزة اتجاه لخدمة الباحثين السعوديين، لأنها جائزة عالمية، وعلى السعودي أن ينافس غيره من أنحاء العالم إذا أراد الفوز بها، وأشار إلى أن الدكتور منصور الحازمي أثبت في العام الماضي أنه جدير بالجائزة.

وقال سمو الأمير خالد الفيصل: إن مؤسسة الملك فيصل الخيرية بصدد إنشاء جامعة أهلية بعد صدور الموافقة السامية، وسوف تضم هذه الجامعات كلية الأمير سلطان للعلوم السياحية والفندقية في أبها، وكلية عفت بجدة إلى جانب إنشاء كليات جديدة بالرياض منها كليات للعلوم والهندسة والإدارة والطب.

وأشار إلى أن المسمى سوف يتحدد لاحقًا، كما أن التفاصيل سيتم إعلانها في القريب.

وحول السؤال عن منح الجائزة لمؤسسات إسلامية وأدبية كما حدث في العام الماضي حين نال الأزهر الشريف جائزة خدمة الإسلام، قال سموه: إن هذا يرجع إلى لجان الاختيار. وأشار سموه إلى أن جائزة الأدب العربي تغير مسماها إلى جائزة اللغة العربية وآدابها.

وسوغ سموه عدم فوز علماء عرب بجائزة الطب والعلوم بأن بداية العرب كانت متأخرة في هذين الحقلين على الرغم من أنهم وضعوا لبناتهما متمنياً أن يعود العرب للحاق بركب التقدم، وقال: على الرغم مما حدث من تقاعس فإننا على الطريق سائرون إن شاء الله.

وقال سموه: إن الإعلام الغربي لم يعط العالم العربي والإسلامي حقه حتى يعطي الجائزة حقها.

وعن الموازنة بين جائزتي نوبل والملك فيصل العالمية، أشار إلى أن جائزة نوبل جائزة عالمية كبيرة ومشهورة ولا أحد ينكر أولويتها، أما جائزة الملك فيصل العالمية فقد استطاعت أن تكتسب صفة العالمية، وأن تكون ثاني جائزة عالمية بعد نوبل، أما الفارق فيتمثل في الأهداف، فجائزة نوبل أنشئت للتكفير عن ذنب أو غلطة، في حين أن جائزة الملك فيصل العالمية قامت لتكريم رجل واسم وعلم.

وعن معنى فوز أمريكيين وروسي وسويدي بجائزتي هذا العام في الطب والعلوم، قال سموه: إن هذا ردنا في المملكة، ومن هذا الشعب الوفي.. وهذا هو رد الفكر ورد العلماء، ليس في المملكة، وإنما في



د. بيتر ويليستون شور

العالم العربي والإسلامي؛ لأننا نعيش في عالم يجب أن تتضافر فيه الجهود، لأننا لا يمكن أن نحيا أمما متفرقة وأدياناً متنافرة، فنحن نعيش في كوكب أصغر من قرية.. ونحن أمة وضعنا الله على هذه الأرض لكي نعمرها، وهذه الجائزة رد على من يتهموننا بالتخلف أو من يصفوننا بالإرهاب. فنحن ضد الإرهاب وضد الرجعية، ونحن مصدر للإشعاع الفكري والإنساني والثقافي، لأن هذه الأرض هي مهبط الوحي، وهذا الدين يبدأ بالسلام والرحمة والبركة ، بينما هناك من يهاجمنا بلا سلام ولا رحمة.

وعما إذا كان هناك اتجاه لتكريم من يدافعون عن الإسلام في الإعلام العربي، قال سموه: إن الجائزة عالمية وليست عربية، وإذا تم تخصيص جائزة للإعلام، فإنها ستكون عالمية.

ولم يستبعد سموه أن يكون هناك جائزة للاستشراق في إطار جائزة الدراسات الإسلامية.

وحول العلاقة المتوقعة بين جائزة الملك فيصل العالمية وجائزة الملك فهد التي تم الإعلان عنها مؤخراً، أجاب سموه: بأن جائزة الملك فيصل ستكون في خدمة جائزة الملك فهد.

وانتقد سموه المؤسسات العلمية العربية بسبب عدم حيادية بعضها عند ترشيح من تراه لنيل الجائزة، وتقاعس بعضها عن الترشيح، بينما تهتم المؤسسات العلمية الغربية بالدقة والموضوعية في الترشيح.

وعندما دافع أحد الصحفيين عن الإعلام العربي، متهماً الساسة بتهميشه، أجاب سموه: علينا أن ننتقد الإعلام، وعلى الإعلام أن ينتقد الساسة.

مختارات من الشعر العربي

صدر في الأسابيع الماضية عن مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في الكويت - بمناسبة اختيار الكويت عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠١م - الجزء الثالث من سلسلة «مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين». وجاء هذا الجزء من المختارات في ٧٤٤صفحة، يشمل مختارات لشعراء من سلطنة عمان وقطر وليبيا ومصر، وقد بلغ عدد شعراء سلطنة عمان (٢٥) شاعراً، و(١٦) شاعراً من قطر، و (٤١) شاعراً من ليبيا، و (١٤٠) شاعراً مصرياً.



عبد العزيز سعود البابطين

والجدير بالذكر أن هذه المختارات تتألف من أربعة أجزاء وزعت على الأقطار العربية، فقد جاء الجزء الأول عن شعراء الأردن وفلسطين، والإمارات العربية المتحدة، والبحرين، وتونس، وشمل الجزء الثاني تعريفًا لنحو مئتي شاعر من ثلاث دول عربية هي الجزائر والسعودية وسورية، وقد بلغ عدد الشعراء من المملكة العربية السعودية أكثر من تسعين شاعراً يمثلون نماذج من الشعراء الذين أغنوا الساحة الشعرية في المملكة العربية السعودية والخليج والعالم العربي، ويتوقع أن يصدر الجزء الرابع من هذه المختارات قريباً يشمل مجموعة قصائد مختارة من بقية البلدان العربية.

وقد وزّعت هذه الأجزاء الأربعة على فصول العام على حسب ترتيب الأقطار أبجديًا، ويتم عرض النصوص على حسب الحروف الأبجدية أيضًا، ووضعت حاشية تعريفية مختصرة عن كل شاعر تشمل اسمه وميلاده ووفاته ومكان تلقيه العلم، وتعريفًا بدواوينه.

جائزة شاعر مكة

أعلنت هيئة جائزة شاعر مكة محمد حسن فقي عن فوز الشاعرين المصري الدكتور إسماعيل مصطفى الصيفي، والسعودي حسن عبدالله القرشي مناصفة بجائزة الشعر للدورة السادسة من عمر الجائزة، وأعلنت الهيئة عن تناصف الشاعر السوري وليد المشوح، والسعودي عبدالله الفيفي جائزة أفضل كتاب في نقد الشعر.

وقال رئيس هيئة الجائزة د. أحمد زكي يماني: «إن الديوانين الفائزين بجائزة الشعر هما «ملحمة الإيمان» للدكتور إسماعيل مصطفى الصيفي، و«ستائر المطر» للشاعر حسن عبدالله القرشي، وإن كل جائزة من جائزتي الشعر والنقد تصل قيمتها إلى ٢٠ ألف دولار».

وأضاف أن هذه الدورة تحمل عنوان «القدس»، وتتضمن عدة ندوات وحلقات بحثية تقام على مدى يومين حول القدس في الشعر العربي على مر العصور، إضافة إلى إقامة ندوة شعرية لكبار الشعراء الفلسطينيين والعرب، بينهم محمود درويش، وسميح القاسم، ومريد البرغوثي، وهاني هاشم الرشيد من فلسطين، وعدد كبير من الشعراء من مختلف الأقطار العربية.

وأوضح يماني «أن الاحتفالية تهدف إلى ضرورة التأكيد على الهوية العربية للقدس في مواجهة المزاعم الإسرائيلية والخروج بدراسة رائدة تجمع كل ما كتب عن القدس شعراً، وذلك إسهاماً في الحفاظ على دائرة المدينة المقدسة من العبث الإسرائيلي، وإيمانًا بأن الشعر هو ذاكرة العرب».

الربيع رئيسًا لنادي الرياض الأدبي



عبدالله بن إدريس

محمد الربيع

بعد واحد وعشرين عاماً قضاها في رئاسة نادي الرياض الأدبي، استقال الأديب عبدالله بن إدريس عن رئاسة النادي ليتفرغ لأعماله وشؤونه الخاصة، وليفسح المجال للشباب كي يأخذ دوره، ويمارس أنشطته كما صرح بذلك!

وجاءت موافقة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز - الرئيس العام لرعاية الشباب بخطاب حمل تقديراً كبيراً على ما بذله من جهد طوال رئاسته للنادي. وأعلن الأديب بن إدريس أن الدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيع وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سوف يتولى رئاسة النادي من بعده.

ولد الأديب عبدالله بن إدريس في سدير سنة ١٣٤٩هـ، وتخرج في كلية الشريعة في الرياض، وتقلد عدة مناصب في وزارة المعارف، كما شغل منصب المدير العام للثقافة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وعمل رئيساً لمجلة الدعوة، وهو عضو شرف رابطة الأدب الإسلامي في الهند، وعضو اللجنة الثقافية بجمعية الثقافة والفنون، وله عدة مؤلفات.

ولد الربيع في مدينة الرياض سنة ١٣٦٦هـ، وحصل على الدكتوراه في الأدب والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وعمل مدرساً بمعهد مكة المكرمة العلمي سنة ١٣٨٨هـ، ومعهد الرياض العلمي سنة ١٣٨٩هـ، ومديراً للدراسات والمعلومات بالنيابة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٥هـ، ومديراً للبعثات بالنيابة بالجامعة نفسها سنة ١٣٩٦هـ، وأستاذاً مساعداً سنة ١٣٩٩هـ، وأستاذاً مشاركاً بقسم الأدب بكلية اللغة العربية سنة ١٤٠٥هـ، وعميداً للبحث العلمي سنة ١٤٠٥ـ ١٤١١هـ، ورئيساً لتحرير مجلة الجامعة للبحوث العلمية، ومستشاراً في الأمانة العامة لمجلس التعليم العالي، ومستشاراً غير متفرغ بوزارة الأعلام، ووكيلاً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للدراسات العليا والبحث العلمي.

وهو عضو في عدد من المجالس واللجان العلمية، وله مجموعة كبيرة من المؤلفات.

موسوعة إبداعية سعودية

تشهد مدينة الرياض قريبًا صدور أحدث موسوعة عن الأدب السعودي المعاصر تضم بين دفتيها أعمال نحو ٤٠٠ أديب وشاعر وروائي سعودي ألفت في الفترة ما بين ١٣١٩ ـ ١٤٢١هـ، وقد شارك في تقسيم هذه الموسوعة وتبويبها كل من د. منصور الحازمي، ود. عبدالله المعيقل، ونفذها عدد من الباحثين.

وتقع الموسوعة التي تصدرها إحدى دور النشر الخاصة في عشرة مجلدات يحوي كل مجلد أكثر من ٦٠٠ صفحة. وجاءت القصائد في الموسوعة قاصرة على القصيدة التقليدية والقصيدة الحديثة، ولم تدرج قصيدة النثر في الموسوعة، كما أوضح عبدالرحيم الأحمدي ناشر الموسوعة الذي أكد «أن الموسوعة خاصة بالنصوص الأدبية الإبداعية، وليست موسوعة تراجم للكتاب والأدباء».

ومن ناحية أخرى أصدرت الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية مؤخراً كتاباً بعنوان «دليل الأدباء والكتّاب في دول مجلس التعاون» ويضم هذا الدليل، الذي جاء في ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط، نحو ٤٥٣ أديباً وكاتباً خليجياً، منهم ١٧٤ سعودياً يتصدرهم الشاعر الدكتور غازي القصيبي، والناقد عبدالله الغذامي، والأستاذ عبدالله الجفري، والكاتب الدكتور تركي الحمد.

رواية جديدة لعبده خال

«ياريم وادي ثقيف/ لطيف جسمك لطيف/ ماشفت أنا لك وصيف / في الناس شكلك ظريف» (غناء طارق عبدالحكيم).


عبده خال

«بعد أن خرجت من السجن كان لزامًا عليّ أن استمع إلى هذه الأغنية، فحين كنا ندس أحزاننا بين ممرات الدهاليز الطويلة، كان يصلنا صوته حارقًا مترنماً ملتاعاً يردد مقاطع منها. قيل: إنه ترنم بها في بداية غرامه. وفي عنبر آخر سمعتها عبر صوت أبي حية، فحين تطفأ الأنوار ولا يعود في جواره سوى عشقه يصدح بتلك الأغنية بدندنة شجية يرف لها القلب، وتنبت في البال امرأة تحرق كل مراكب الصبر، وتتركك تجدف باستغاثة متقطعة. وبعد أن استمعت إليها نبتت في داخلي رغبتان: رغبة أن أجمع سيرتهما، ورغبة أن أسرد لكم سبب سجني، فبأي الرغبتين أبدأ؟».

بهذه المقاطع بدأ الروائي والقاص السعودي عبده خال روايته الجديدة التي صدرت عن دار الجمل (كولونيا ـ ٢٠٠١م) تحت عنوان «الأيام لا تخبئ أحداً».

ولد الروائي عبده خال في جازان بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٦٢م، وتخرج في جامعة الملك عبدالعزيز في جدة، التي درس فيها العلوم السياسية، وهو يعد من أبرز الروائيين السعوديين الجدد، وتميز بأنه يطرق آفاقًا جديدة في رواياته لم تكن معروفة من قبل، وتضم المكتبة عدداً كبيراً من مؤلفاته منها «لا أحد» قصص (القاهرة ١٩٩٢م)، و«ليس هناك ما يبهج» قصص (القاهرة ١٩٩٣م)، و«الموت يمر من هنا» رواية (بيروت ١٩٩٥م)، و«مدن تأكل العشب» رواية (لندن ١٩٩٨م)، و«من يغنّي في هذا الليل» قصص (الدمام ١٩٩٩م).

سبعة أدباء ومفكرين يفوزون بجائزة سلطان العويس


قاسم حداد


محمد البساطي

أعلنت الأمانة العامة لمؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية في الشهر الماضي أسماء الفائزين بجوائز الدورة السابعة للجائزة بفروعها التي تشمل مجالات الشعر والقصة والرواية والمسرحية والدراسات الأدبية والنقد ومجال الدراسات الإنسانية والمستقبلية، وذلك في مؤتمر صحفي عقد بفندق الماريوت بدبي.

وقد فاز بالجائزة، في مجال الشعر، الشاعر البحريني قاسم حداد، وجاء في الأسباب والحيثيات التي دعت إلى فوزه «أن شعره يهتم بقضايا الإنسان في مواجهة الواقع، وقضايا الإبداع في مواجهة المكرس والثابت»، كما «تميزت لغته بالجدية والحيوية والقدرة على استغلال إيحاءات الألفاظ والعبارات بما يخدم غرضه الشعري، وإن كانت لغته لم تسلم من الغموض، وذلك يعود إلى اتكائه بصورة خاصة على معطيات الحدس والحلم وعوالم الباطن في تشكيل التجربة الشعرية».

وتناصف جائزة حقل (القصة والرواية والمسرحية) كل من زكريا

تامر (سورية) ومحمد البساطي (مصر)؛ وذلك لأن زكريا تامر «ظل يكتب هذا اللون من القصة القصيرة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وإذا كانت مجموعته الأولى «صهيل الجواد الأبيض» قد صدرت في طبعتها الأولى عام ١٩٦٠م، فمعنى ذلك أن الكاتب قد بدأ رحلته الكتابية في خمسينيات القرن العشرين، فليس طول الفترة من الإبداع هي التي تثير الانتباه، إلا أن هذه النصوص الباهرة التي تشد قارئها وتجبره على المتابعة المتحفزة والممتعة والقلقة هي التي تفعل فعلها»، بينما «يعد البساطي واحداً من أبرز القصاصين العرب المعاصرين وأكثرهم عمقاً وشاعرية، وقد اختط لنفسه أسلوباً يحمل بصمته وظل يطوره ويبلوره حتى بلغ قمة النضج الفني في السنين الأخيرة».

وفي مجال الدراسات الأدبية والنقد فاز الناقد العراقي محسن جاسم الموسوي لعدد من المعايير، منها: «الجودة في نتاجه، إلى جانب الكم والمنهج النقدي الدقيق، وموضوعات النقد التي يختارها، والرصد الذي



زكريا تامر

محسن جاسم الموسوي

امتاز به في قراءتين: الأولى تراثية، وأخرى حداثية، والعناية بالإرث الحضاري».

عبد الوهاب المسيري

وفاز بجائزة الدراسات الإنسانية والمستقبلية الدكتور عبدالوهاب المسيري لكونه «مفكراً موسوعياً، ومفكراً عربياً رومانتيكياً، والرومانتيكية عنده رؤية لقدرة الإنسان على تجاوز الواقع، وتميز الفكر الإنساني بالقدرة على التوليد والتحليل والاستشراف».

وقرر المجلس تأجيل إعلان جائزة الإنجاز الثقافي والعلمي إلى وقت لاحق من هذا العام، وتقرر أيضاً بشكل تقريبي أن يقام احتفال تكريم الفائزين بجوائز هذا العام في منتصف شهر يناير/كانون الثاني القادم.

والجدير بالذكر أن عدد المرشحين لنيل جوائز هذا العام قد بلغ (٦٠٣) مرشحين، فقد ترشح لحقل الشعر (١٠٩) شعراء، وفي حقل القصة والرواية والمسرحية (١٤٢) كاتباً، وفي حقل الدراسات الأدبية والنقد (١٣٠) باحثاً وناقداً، وفي حقل الدراسات الإنسانية والمستقبلية (١٨٠)، وترشح لجائزة الإنجاز الثقافي والعلمي (٤٢) شخصية.

والمعروف أن جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية قد بدأت دورتها الأولى في عام ١٩٨٨م، وتحولت إلى مؤسسة ثقافية في منتصف عام ١٩٩٢م، ولتستقل الجائزة بعد ذلك عن مؤسسة اتحاد الكتاب والأدباء.

فرنسا تحتفل بـ «أندريه مالرو»

تشهد فرنسا حالياً تظاهرات ثقافية وأدبية بمناسبة مرور مئة عام على ميلاد الكاتب الفرنسي الشهير أندريه مالرو (١٩٠١ ـ ١٩٧٦م)، وتشارك وزارة الثقافة الفرنسية في هذه الاحتفالية بالإضافة إلى بعض الجهات الأخرى.



أندريه مالرو

ولد مالرو في باريس في ٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٠١م، وترك الدراسة، ولمّا يتجاوز عمره السابعة، ولكنه كان يمضي وقتاً طويلاً في المكتبات العامة والمتاحف والمسارح، وتعرف في هذه الفترة عدداً كبيراً من نجوم المجتمع الباريسي في الأدب والفن والرسم، أمثال المسرحي والرسام الفرنسي جان كوكتو، والرسام الأسباني بيكاسو. ولقد مرّت حياة هذا الأديب بثلاث محطات مختلفة تركت أثراً بالغاً في حياته: أولاها: سفره ـ أول مرة ـ إلى ما كان يعرف بـ «الهند الصينية» عام ١٩٢٣م لولعه بالفن الخميري، وقد سجن في تلك الفترة لاتهامه بنهب الآثار الكمبودية، وأنكر الكاتب هذه التهمة، وفي فترة السجن كتب أندريه أجمل ثلاث من رواياته المهمة وهي: «الغزاة»، و«الطريق الملكية»، و«الوضع البشري»، وهي الرواية التي نالت جائزة جونكور عام ١٩٣٣م.

وكانت المحطة الثانية المؤثرة في رحلة حياة مالرو هي تجربته خلال الحرب الأهلية الإسبانية التي دارت في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي، إذ ساعدت تجربته خلال هذه الحرب على صقل الجانب الالتزامي في شخصيته، فقد ظل يردد «إن الفاشية يمكن أن تتجسد تارة في قوة عسكرية، وتارة أخرى في مجرد فكرة تستبد بصاحبها وتستعبده فلا ينجح في تخفيف حملها عنه، إلا إذا اشترك آخرون في حملها».

وكانت آخر محطات مالرو هي التي بدأت عام ١٩٤٥م حين تعرف الجنرال ديغول، وتدرج حتى أصبح الناطق الرسمي باسم «الديغولية» في فرنسا وفي العالم، وتقلد منصب وزير الثقافة في الفترة من ١٩٥٩م إلى ١٩٦٩م، وأنجز في هذه الفترة عدة مشروعات ثقافية منها: إنشاء دور للثقافة في كل المدن والقرى الفرنسية، والسعي إلى جعل تعلم الفن أمراً مشاعاً عند الكبار والصغار، بل إن بعض النقاد قد نسبوا إليه فكرة إقامة المتاحف الافتراضية التي تسمح التكنولوجيا الحديثة بإقامتها اليوم، ويقولون: إن مالرو قد أعد صيغة تقريبية لهذا النوع من المتاحف في كتابه الشهير الذي وضعه عام ١٩٤٧م بعنوان «المتحف الخيالي».

مخطوطات البحر الميت

أعلن جاكوب فيش عضو جمعية أصدقاء سلطة المحفوظات القديمة في إسرائيل مؤخراً أن مخطوطات البحر الميت التي اكتشفت في أواخر الأربعينيات وحفظت بعناية منذ ذاك الحين، نشرت جميعاً في ٣٧ مجلداً في أعقاب جدل وفضائح استمرت عشرات السنين، وقال: «هذه أكبر عملية نشر في القرن العشرين».

وقد نشرت مؤسسة «أوكسفورد يونيفرسيتي برس» المخطوطات التي فتحت لعلماء الآثار اللاهوتيين آفاقاً جديدة في دراساتهم للكتاب المقدس وحياة يسوع المسيح.

وأحيطت مئات الوثائق التي عثر على القسم الأول منها في عام ١٩٤٧م بالأسرار منذ ذاك الحين، فقد نسبت في البداية إلى الأسينيين، وهم طائفة يهودية متقشفة. وتزامن العثور عليها من قبل بدوي في مغارة بالقرب من البحر الميت مع إنشاء دولة إسرائيل. ونشرت نسخ وصور لمجموعة أولى من هذه المخطوطات لتأكيد قدمها، ودفع المختصين إلى إجراء بحوث في شأنها.

لكن سلسلة من الجدالات أحاطت منذ ٣٠ عاماً بأعمال النشر التي عرقلتها منافسات شخصية ضمن الفريق الدولي المعني بالنشر والمؤلف من أمريكيين وإسرائيليين وأوربيين.

اكتشافات أثرية في سورية

عثرت البعثة السورية الفرنسية المشتركة التي تبحث في وسط البادية السورية شمال تدمر (٢٥٠ كم شمال غرب دمشق) على جمجمة تعود إلى نحو خمسين ألف عام أي إلى ما يعرف تاريخياً بـ «إنسان نياندرتال» وهي فترة العصر المسماة العصر الحجري القديم والأوسط والأعلى.

كما تم العثور أيضاً على مجموعة من أحجار الصوان المشحوذ، وهي أدوات يمكن أن تعين الباحث على معرفة حياة إنسان تلك الفترة، لكن



آثار سورية

الاكتشافات الأكثر إثارة هي الكشف عن صوان مشحوذ على شكل نص حاد مغروز في رقبة حيوان، وقد أكد البروفيسور الفرنسي كريستوف جريجور معاون رئيس فريق التنقيب أن هذا الاكتشاف هو الأول من نوعه الذي يعود إلى تلك الفترة.

وقال الباحث الأثري الفرنسي ج. كوفان «إن موقع منخفض الكوم يتفرد بكونه قد أهل بشكل قلما انقطع تواصله منذ خمسمئة ألف سنة حتى نهاية العصور قبل التاريخية، إذ تعاقبت على السكن فيه جماعات الصيادين الجانبيين وجماعات الزراعيين المربين من بدو وحضر».

مؤسسة يونانية في مكتبة الإسكندرية

أقيم مؤخراً بالإسكندرية معرض مشترك بين مكتبة الإسكندرية ومؤسسة «يوروبا يمنش» اليونانية، وقد احتوى المعرض على الكتب المهداة من المؤسسة اليونانية المهتمة بالتراث الإغريقي.

وأعلن الدكتور إسماعيل سراج الدين - مدير المكتبة - أن المؤسسة قررت إيداع كل مطبوعاتها في مكتبة الإسكندرية، لذلك ستقوم المكتبة بتكريم هذه المؤسسة لجهودها من أجل التعريف بتراث الحضارة اليونانية ولحرصها على إيداع كل مطبوعاتها في المكتبة. وأضاف سراج الدين أن ندوة علمية عن الحضارة اليونانية القديمة ستقام على هامش المعرض يلقيها الدكتور باناويتس ميخالوبوس، رئيس المؤسسة، بالإضافة إلى محاضرة أخرى حول «الصلات الحضارية بين اليونان القديمة والثقافة العربية الإسلامية» يلقيها الدكتور يوسف زيدان - مدير إدارة المخطوطات بالمكتبة.

سرقة في طشقند

سرق مجهولون خمس لوحات نادرة من متحف الفنون في العاصمة الأوزبكية طشقند تقدر قيمتها بنحو مليوني دولار، وتمثل هذه اللوحات المسروقة الفن الروسي في القرن التاسع عشر. ومن بين هذه اللوحات

«الغروب في السهوب» بريشة إيزافوفسكي، و«كينياجينا أبالينا» بريشة ترابينينا، و«التركية» بريشة بريلوف و«الفتاة ذات الشريط الأحمر» بريشة كرمسكوف، وهناك اعتقاد بأن هذه اللوحات قد هربت إلى كازاخستان المجاورة.

اكتشاف قصر الخورنق



آثار عراقية

أكّد علماء آثار عراقيون أنهم قد اقتربوا من اكتشاف القصر المشهور الذي بناه الملك العربي النعمان بن المنذر قبل الإسلام والمعروف بقصر «الخورنق»، وقد بنى الآثاريون تصوراتهم اعتماداً على نتائج أعمال التنقيب التي أجريت في منطقة أبي صخير في ظهر مدينة الكوفة (١٦٠ كم جنوب بغداد) والتي تقع بالقرب من الحيرة عاصمة الملك النعمان بن المنذر، وقد بيّنت التنقيبات في هذه المنطقة ظهور آثار متنوعة تمتد إلى عصور ما قبل الإسلام.

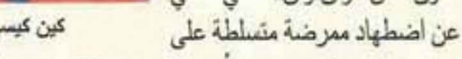
وقالت الآثارية ناهدة عبدالفتاح النعيمي - رئيسة بعثة التنقيب - كما جاء في صحيفة البيان الإماراتية في عددها رقم ٧٧٧٥: «إن البعثة عثرت في هذه المنطقة على ٤٦٧ قطعة أثرية كاملة تراوح بين الجرار الكبيرة والصغيرة، وأثاث جنائزية نسائية تتكون من قلائد تحتوي على أحجار كريمة وحرز ثمين ونفيس مثل العقيق وأساور نحاسية وبرونزية وحديدية مرصعة بالأحجار الكريمة وفرز ونحاسيات»، كما كشفت أن هناك توقعات بإمكانية ظهور جوانب من قصر الخورنق في مراحل التنقيبات اللاحقة. وأضافت أن أهمية هذه المكتشفات تكمن في أنها تكشف عن ملامح جديدة في الفن العراقي في تلك المرحلة وتدل على تقدم صناعة الزجاج في العراق إذ إن هذه المكتشفات تضم قارورة زجاجية ملونة مطعمة بتوريدات داخل الزجاج، وهي مستوحاة من الوردة الآشورية الملونة.

وأشارت إلى «أن البعثة تمكنت من العثور على عدد كبير من الجرار الكبيرة الحجم التي توضع فوق قبور الرجال بأعداد متفاوتة تراوح بين ٢ و٥ حسب مكانة الشخص المتوفى، إذ إنه بعد رفعها من أمكنتها تظهر الهيكل العظمي لذلك المتوفى إلى جانب مجموعة قوارير وأوان زجاجية تحتوي على زخارف ونقوش مختلفة الأشكال والاستخدامات».

رحيل الكاتب الأمريكي كيسي

توفي في الشهر الماضي الكاتب الأمريكي كين كيسي عن ٦٦ عاماً، بعد صراع طويل مع مرض السرطان.

درس كيسي في جامعة ستانفورد، واكتسب شهرة واسعة عام ١٩٦٢م عندما ألّف روايته الشهيرة «طيران فوق عش الواق واق» التي تحكي عن اضطهاد ممرضة متسلطة على



كين كيسي

مجموعة من المرضى في أحد المصحات النفسية، وأتبعها عام ١٩٦٤م برواية «أحياناً أمة عظيمة». ثم بقي محجماً عن الكتابة طوال ٢٨ عاماً.

عرف كيسي بشخصيته المشاكسة الرائدة، ورفضه الإجابات التقليدية عن كثير من الأسئلة العميقة. وقد عدّت روايته الثانية أفضل مؤلفاته، وحولت إلى فيلم سينمائي من بطولة هنري فوندا وبول نيومان، واكتسبت روايته «طيران فوق عش الواق واق» شهرة أوسع، لكن كيسي لم يعجب بالفيلم الذي اقتبس عنها عام ١٩٧٤م الذي قام ببطولته جاك نيكلسون، مع أن الفيلم حصد ثلاث جوائز أوسكار آنذاك.

جائزة جونكور لروفان

فاز الكاتب الفرنسي جاك كريستوف روفان بجائزة «جونكور ٢٠٠١م الأدبية» عن روايته «أحمر برازيلي» التي صدرت عن دار جاليمار. وفاز روفان بهذه الجائزة، التي تعد أرفع الجوائز الأدبية في فرنسا في الدورة السادسة للتصويت بعد منافسة حادة مع مارك لامبرو صاحب رواية «غرباء في الليل»، وذلك بفارق صوت واحد.

وتدور أحداث الرواية الفائزة بالجائزة حول الغزو الفرنسي للبرازيل من خلال أعين طفلين أرغما على المشاركة في الحملة والعمل مترجمين مع القبائل الهندية التي تسكن في البلاد.

وقد صرح الفائز أنه كتبت هذه الرواية على شكل فصول متعاقبة حين كان يقيم في البرازيل إقامة فعلية، كما أن بعض شخصيات الرواية هي أشخاص حقيقية، وأنه استقى وقائعها الأساسية من شهادة أدلى بها الفرنسيون الذين شاركوا في تلك الغزوة.



جاك كريستوف روفان

وروفان الذي يبلغ من العمر ٤٩ عامًا درس العلوم السياسية والطب، وانخرط بعدها في مجال العمل الإنساني، إذ كان يعد من رواد منظمة «أطباء بلا حدود»، وسافر إلى كثير من مناطق النزاعات في إثيوبيا، ونيكاراجوا، وأفغانستان، وكمبوديا، والبوسنة، ورواندا، وألّف عددًا من الكتب التي أثارت جدلاً مثل: «الإمبراطورية والبرابرة الجدد» و«الديكتاتورية الليبرالية».

شهدي سرور في المعتقل

تعرض شهدي سرور نجل الشاعر الراحل نجيب سرور الذي يعمل في وكالة إعلانات صحيفة الأهرام للاعتقال بتهمة نشر أشعار إباحية كتبها والده، وقام هو بنشرها على موقع والده في الإنترنت. وكان من ضمن القصائد المنشورة قصيدة مشهورة بعنوان «أمسيات نجيب سرور»، وهي من القصائد الإباحية المحظور نشرها في مصر، وتحمل انتقادات سياسية لاذعة، وعبارات جنسية فاضحة، وكان الشاعر قد كتبها في منتصف السبعينيات إبان زيارة الرئيس المصري الراحل أنور السادات القدس.



نجيب سرور

والمعروف أن نجيب سرور شاعر وممثل ومخرج مسرحي، سافر إلى روسيا في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، ودرس فيها الفنون المسرحية، وتزوج من روسية أنجبت له ولدين هما شهدي وشقيق آخر له. وعمل أستاذًا في معهد الفنون المسرحية، وشارك بالتمثيل والإخراج في كثير من المسرحيات، وتعرض للاعتقال أكثر من مرة بسبب هجائه للسادات، وفصل من عمله في السبعينيات من القرن الماضي، ودخل مستشفى للأمراض العقلية.

جاك ديريدا يفوز بجائزة

جاك ديريدا

فاز الفيلسوف الفرنسي الجزائري المولد جاك ديريدا (٧١ عامًا) بجائزة تيودور أدورنو، وهي من الجوائز المهمة التي تبلغ قيمتها مئة ألف مارك ألماني (٧٤ ألف دولار). وكانت لجنة الجائزة قد اختارت ديريدا للفوز بجائزتها لعام ٢٠٠١م بوصفه أحد أهم الفلاسفة المعاصرين.

ويشتهر ديريدا بتفكيره الحر الفريد على الرغم من وجود معارضين لمنهجه الفلسفي، وقد ولد في الجزائر عام ١٩٣٠م، وقام بالتدريس في جامعات مختلفة في باريس وخارج فرنسا. ويقول الفيلسوف ديريدا عن الفلسفة الغربية: إنها تقوم على مقدمة منطقية زائفة مضمونها أن الحقيقة والمعنى الثابت للكلمات والمصطلحات أمر موثوق به.

أحداث عصفور طائر

صدر مؤخرًا عن دار النشر الفرنسية «سوى» ترجمة لرواية «أحداث عصفور طائر» للكاتب الياباني هاروكي موراكامي الذي يعد من الكتّاب المميزين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقام بترجمة الرواية كل من كورين أتلان وكارين شينو، وتتناول الرواية الأحداث المؤلمة التي حدثت في أثناء الحرب العالمية الثانية وذكريات الكاتب عنها، خاصة بعد إلقاء القنبلة الذرية على اليابان، وما صاحب ذلك من مآسٍ انعكست على المجتمع الياباني، ونتج من ذلك رحيل الكاتب، وهو مازال طفلاً إلى


هاروكي موراكامي

أمريكا، البلاد التي صنعت القنبلة المأساة، ثم عودته مرة أخرى إلى اليابان.
والجدير بالذكر أن الكاتب كان قد نال جائزة «جونزو» للرواية عام ١٩٧٩م عن هذا العمل الذي يعد من الأعمال الأدبية البارزة التي ترجمت إلى لغات عدة.

التعليم وأسواق العمل

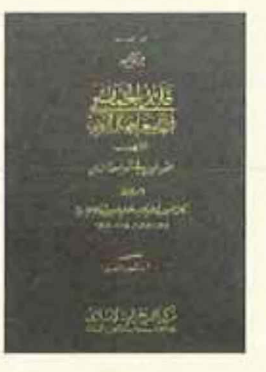
يقيم المعهد العربي للتخطيط بالكويت مؤتمراً دولياً في بيروت حول تعزيز الصلات بين التعليم وأسواق العمل في البلدان العربية في الفترة من ٤ ـ ٦ مارس/آذار ٢٠٠٢م، ويرمي المؤتمر إلى تعريف التطورات الحالية والمستقبلية للعلاقة بين مخرجات التعليم ومتطلبات أسواق العمل نظرياً وتطبيقياً، والاهتمام بالحالات الدراسية العربية وتطبيقاتها في مجال السياسات الكلية والجزئية، والمؤسسات والتعديلات المطلوبة للوصول إلى علاقة ملائمة بين عرض المخرجات التعليمية وطلب أسواق العمل. وتناقش محاور المؤتمر نماذج نظرية تستكشف الصلة بين النظام التعليمي وسوق العمل، وحججاً نظرية تستكشف مضامين العولمة للأنظمة التعليمية واتجاهات تعديلها لأسواق العمل واتجاهات تكيفها، ونماذج نظرية أو تطبيقية حول الاستثمار في رأس المال البشري مثل التعليم وعوائده وعلاقته بالنمو وسوق العمل، ونماذج جزئية أو


تشغيل الأطفال قضية إنسانية

كلية عن علاقة التعليم بسوق العمل في البلدان العربية، ونوعية التعليم وسوق العمل باستخدام مؤشرات لهذه النوعية، مع فصل التعليم الحكومي عن الخاص، وتعليم المرأة وسوق العمل في الأقطار العربية، والتمايز الأجري بأسواق العمل العربية حسب المستويات التعليمية، وعمالة الأطفال غير المتعلمة أساساً وتأثيرها في أسواق العمل والعمالة المتعلمة، والسياسات الاقتصادية العربية وانعكاساتها على الصلة بين التعليم وسوق العمل، وتقويم أداء التركيبة المؤسسية في البلدان العربية على سوق العمل حسب المستويات التعليمية.

مخطوطات شبين الكوم

صدر حديثاً في القاهرة، ضمن سلسلة فهارس المخطوطات الإسلامية، «فهرس مخطوطات بلدية شبين الكوم في مصر» الذي قام بإعداده خبير المخطوطات المصري يوسف زيدان، وهو يشتمل على ٢٨٢ مخطوطة في علوم اللغة والدين والمنطق والكلام.
وتعد هذه المخطوطات مهمة من عدة نواح: فمن الناحية الفنية تمتاز مخطوطات الفهرس بزخارفها الفنية وتجليدها، ومن الناحية التاريخية تنبع أهميتها من كونها كتبت بخطوط مؤلفيها أنفسهم، أو بخطوط نُسّاخ عاصروا هؤلاء المؤلفين، ومن هذه المخطوطات: البردة النبوية: وهي قصيدة البصيري، المعروفة بعنوان «الكواكب الدرية في مدح خير البرية»، والنسخة المشار إليها نسخة بديعة كتبها مرشد الشيرازي سنة ٨٧٥هـ، و«منار الأنوار» للنسفي، وهي نسخة جيدة كتبت سنة ٨٨٨هـ في حياة مؤلفها، و«حاشية على شرح الدواني للعقائد العضدية»، عليها خط مؤلفها محمد شريف العلوي، و«شرح طاشكبري زاده على رسالته في الآداب»، ويعد متن الرسالة وشرحها شيئاً ثميناً ونادر الوجود في عالم المخطوطات.
أما فهرسة المجموعة فقد اتخذت نظاماً متطوراً، وجاءت وفقاً للمعايير والضوابط التي أقرتها المؤسسات التراثية الكبرى في مجال فهرسة المخطوطات، وهو نظام وصفي تصنيفي رتبت فيه المجموعة ترتيباً ألفبائياً روعي فيه ضبط عنوان المخطوطة، وتوثيق المؤلف، وذكر المصادر، بالإضافة إلى ذكر بداية المخطوطة ونهايتها.



ابن الشعـار، المبارك بن أبي بكر/ قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمـان، تحقيق خـورشـيـد رضـوي.- لاهور (باكستان): مركـز الشيخ زايد الإسلامي بجامـعـة بنجاب، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٨٤٤ ص (منشورات مركز الشيخ زايد الإسلامي بلاهور رقم٥).

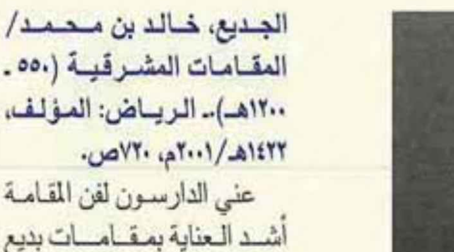
الكتاب تحقيق لنصوص الجزء السادس من كتاب «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمـان» المشهور باسم «عقود الجمان» للمؤرخ ابن الشعار الموصلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م). وتوجد النسخة الوحيدة المعلومة لمخطوط هذا الكتاب في المكتبة السليمانية بإستانبول، وكان الأصل الكامل يشتمل على عشرة أجزاء، ضاع منه الجزآن الثاني والثامن، ولم يظهر منه قبل هذا إلا الجزء الثالث ضمن منشورات جامعة الموصل، وهذا الجزء الذي قام الدكتور خورشيد رضوي بتحقيقه يعد «أردأ الأجزاء خطأً، وأكثرها طمساً، وأصعبها قراءة»، كما ذكر المؤلف في مقدمة هذه الطبعة.

يتناول هذا الكتاب الجانب الأدبي من حياة الأمة العربية في النصف الأول من المئة السابعة للهجرة، إذ يحتوي، في ٤٢٩٨ صفحة باقية من المخطوط، على أكثر من ١٠٠٠ ترجمة لشعراء ذلك العصر مع نماذج من نتاجهم الأدبي شعراً ونثراً، كما أنه يحمل أخباراً متفرقة، وردت عرضاً، تصور شتى شؤون الحياة في ذلك العصر.

ويمتاز هذا الكتاب أيضاً بإجلاء بعض الذي لايزال غامضاً من أحوال ذلك العصر وأخبار بعض الأعلام الذين لا نكاد نعرف عنهم إلا شيئاً يسيراً، أو الذين عرفوا بغير الشعر، وذكرهم ابن الشعار كشعراء من أمثال: فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) المفسر، وابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ) المحدث، وابن جبير الأندلسي (ت: ٦١٤هـ) الرحالة، وياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ) الجغرافي، وابن العربي (ت: ٦٣٨هـ) الصوفي، وابن المستوفي (ت: ٦٣٧هـ) وابن خلكان (ت: ٦٨١هـ) المؤرخين.

«ويزيد في أهمية هذا الكتاب أن جلّ اعتماد ابن الشعّار في تأليفه لم يكن على النقل بل كان إما على العيان والمقابلة الشخصية وإما على السماع ممن قابل الشاعر مثل ولده أو أحد أقاربه أو الثقات من العلماء». وختم الكتاب بعدد من الملحقات.





الجديع، خالد بن محمد/ المقامات المشرقية (٥٥٠-١٢٠٠هـ).- الرياض: المؤلف، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٧٢٠ص.

عني الدارسون لفن المقامة أشد العناية بمقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري، ولم تنل المقامات التي جاءت بعد هذين الرائدين - على الرغم من كثرتها وتنوعها - ما تستحق من دراسة وتقويم.

ويحاول الكاتب في هذا البحث أن يسلط الضوء على الفترة المعتمة من مسيرة هذا الفن وذلك بدراسة هذا اللون النثري في المشرق العربي من منتصف القرن السادس (فترة ما بعد مقامات الحريري) إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وقد حفلت هذه الفترة بأعداد كبيرة من المقامين لايزال جل تراثهم مخطوطاً إلى يومنا هذا.

وجاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وبابين، جاء الباب الأول بعنوان «الدراسة الموضوعية»، وقد فصلّها المؤلف في ستة فصول هي: «مقامات الكدية»، و«مقامات قصصية»، و«مقامات وصفية»، و«مقامات وعظية»، و«مقامات علمية»، و«أنواع أخرى من المقامات».

وجاء الباب الثاني بعنوان «الدراسة الفنية»، وتناولها المؤلف في خمسة فصول هي: «بناء المقامة»، و«لغة المقامة»، و«الخيال والصورة»، و«المحسنات البديعية»، و«تقديم وموازنة».

وتناول الكاتب في الخاتمة أبرز النقاط التي توصل إليها البحث أو عالجتها الدراسة.



دهب، عبدالستّار عبدالحميد (وآخرون) / موسوعة مصطلحات هندسة البترول.- الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢٠هـ، ٧٥٥ص.

تعد المعجمات المتخصصة سمة من سمات العصر الحديث؛ لصعوبة التعامل مع المعجم الشامل لكبر حجمه، ثم

لتعدد معاني المصطلح الواحد وفقًا للعلوم التخصصية المختلفة، والمكتبة العربية تفتقر لهذا النوع من المعاجم.

رمى المؤلفون من وضع هذا المعجم إلى أن يكون «مرجعًا لطلاب هندسة البترول والمعاهد الفنية العليا والمتوسطة ومعاهد إعداد الفنيين ذات العلاقة بالتخصص والمهندسين والعاملين سواء بالإدارة أو بالتنفيذ من ذوي الخبرة في التخصصات المختلفة في حقل صناعة البترول بصفة عامة»، وقد رتبت المصطلحات باللغة العربية واللغة الإنجليزية مع الشرح والتفصيل للمصطلحات باللغة العربية بمساعدة مجموعة مختارة من الأشكال والصور الفوتوغرافية التوضيحية.

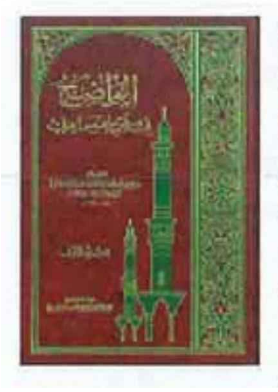
وورد في آخر الموسوعة ملحق بخرائط بعض الدول العربية ودول العالم وأماكن وجود البترول فيها.

القوتلي، محمد نبيل/ بحث مختصر في أنساب الأسر الملكية الأوروبية.. دمشق: دار البشائر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ١٣٣ص.

جاء هذا الكتاب بعد الأجزاء الستة من كتاب المؤلف «بحث مختصر في أنساب العرب»، وفيه يتناول أنساب الأسر الملكية في أوربا. وكما يرى المؤلف «فسوف يتصدى الموضوعان (الأنساب) و(الأعلام) لما سوف ينشئ نوعًا مستحدثًا من التاريخ والدراسة التاريخية، أخذ الآن في النمو في أقسام التاريخ بجامعات الغرب، طالما كان قدماء المؤرخين العرب يستخدمونه، وهو رواية التاريخ من خلال الأنساب والسير وانعكاساتها على الأحداث التاريخية».

أظهرت الوقائع التاريخية أن الملكة فكتوريا (ملكة بريطانيا خلال الأعوام ١٨٣٨ - ١٩٠١م) كانت تدعى (أم أوربا) إذ كانت (جدة) لنحو عشرة ملوك وملكات حكموا ممالك في أوربا. فكان لابد للباحث المؤرخ معرفة صلة القربى بين مختلف حكام أوربا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حتى يكون ملمًا بما يجري خلف كواليس السياسة الأوربية في ذلك الزمن.

وأورد المؤلف في نهاية الكتاب دليلاً مختصرًا يبين كيفية المراجعة في مختلف أقسام الكتاب.



الضرير، نور الدين أبي طالب عبدالرحمن بن عمر بن أبي القاسم/ الواضح في شرح مختصر الخرقي، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش.. بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٥مج.

نال كتاب «مختصر أبي القاسم عمر بن الحسين الخرقي» شهرة كبيرة بين الدارسين وعلماء مذهب الحنابلة، وأولوه عناية تامة، واعتمدوه لإيجازه ولاشتماله على المسائل، ولسعة اطلاع مؤلفه، فشرحه جماعة من متقدمي علماء المذهب، ورتب آخرون كتبهم عليه، وفسر بعضهم لغاته وغريبه، ومنهم من خرّج أحاديثه على الرغم من قلة ما ورد فيه من أحاديث، حتى بلغ عدد شراحه أربعة وعشرين شارحًا، ونظمه واختصره ستة، وخرّج أحاديثه، وشرح غريبه ولغاته ثلاثة، وزاد عليه ووازن بينه وبين كتب أخرى ثلاثة.

جاء تحقيق الكتاب في خمسة مجلدات، واحتوى المجلد الخامس على عدد من الفهارس.

الدخيل، وفيقة بنت عبدالمحسن بن عبدالله / عمل المرأة السعودية: دراسة لتطور وضعها الوظيفي في القطاع الحكومي في المملكة العربية السعودية للفترة بين (١٣٠٠و ١٤١٧هـ/ ١٨٨٠ - ١٩٩٧م).. الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٣٨٤ (الأعمال المحكمة رقم ٢٦).

ترمي هذه الدراسة إلى رصد حركة نمو مشاركة المرأة السعودية العاملة في المجالات النسوية الحكومية وتطورها، من خلال تحديد هذه المجالات، ومدى المساهمة النسوية، ومقياس تطورها ونوعه، وتصاعد أعدادها وقوة تأثيرها كقوة تنموية ذات دور فاعل في خطط التنمية الخمسية المتعاقبة. واعتمدت الكاتبة على البحث الإحصائي

مستخدمة أسلوب الحصر الشامل وشبه الحصر أحياناً وفق أهمية ذلك للحالة المدروسة، وذلك من أجل رسم أبعاد هذه الحركة بالأرقام.

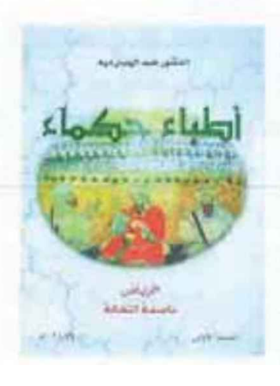
واتبعت المؤلفة في منهجها أسلوبين مجتمعين هما: المنهج التاريخي الوصفي، والمنهج المكتبي النظري، وقسمت الدراسة في إطار هذا المنهج ثلاثة أبواب، تناولت في الباب الأول «تاريخ تطور عمل المرأة السعودية في مجال التعليم بالمملكة العربية السعودية في العصر الحديث من عام ١٣٠٠هـ حتى عام ١٤١٧هـ»، وجاء الباب الثاني عن «تاريخ تطور عمل المرأة السعودية في المجالات الوظيفية الأخرى في المملكة العربية السعودية من عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م حتى عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م»، وسردت في الباب الثالث «تاريخ تطور عمل المرأة السعودية العاملة بالديوان العام للخدمة المدنية منذ عام ١٣٨٠هـ/١٤١٧هـ».

وجاءت الخاتمة بأهم «نتائج الدراسة وتوصياتها».

الحريري، محمد بن علي بن حسين/ قبيلة الأزد: من فجر الإسلام إلى قيام الدولة السعودية الأولى.- أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ١٤٤ص.

قبيلة الأزد من القبائل العربية الكبرى هاجرت من اليمن على إثر انهيار سد مأرب الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وتفرقت في أنحاء الجزيرة العربية، ومنهم أزد شنوءة في بلاد عسير، وأزد السراة (غامد زهران)، وأزد عمان، والغساسنة في الشام والمناذرة في العراق.

جاء الكتاب في ثلاثة فصول ومقدمة، تناول المؤلف في الفصل الأول تعريف الأزد لغة ونسباً، وذكر منازلهم وفروعهم ودورهم في مقاومة حركة الردة، ومشاركتهم في حركة الفتوح الأولى، وخصص الباب الثاني لطبقات الأزد فذكر تراجم هذه القبيلة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم إلى القرن الرابع من مشاهير العلماء والشعراء والنحاة، وختم بالفصل الثالث الذي تناول فيه باختصار تاريخ عسير في الدولة السعودية الأولى.



ديّه، عبدالجبار/ أطباء حكماء.- الرياض: المؤلف، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ١٢٩ص.

يضم الكتاب بين دفتيه تراجم مختصرة ونوادر حكمية وأقوالاً موجزة جامعة لمشاهير الطب الأوائل من المسلمين وغير المسلمين ممن عاشوا في ديار المسلمين، واصطبغوا بثقافتهم، واستلهموا روح الإسلام وحفزتهم قيمه ونظمه، وقد بلغ عدد الأطباء الذين ترجم لهم (٦٨) طبيباً منهم: الشيخ الرئيس: ابن سينا، وأبو بكر الرازي، والشيخ أبو نصر الفارابي، ويعقوب بن إسحق الكندي، والحارث بن كلدة الثقفي، وثابت بن قرة الحراني، وغيرهم. وقد أورد المؤلف طرفاً من سيرهم الذاتية، ومؤلفاتهم وأشعارهم، وأقوالهم.

لم يلتزم المؤلف خطة معينة في إيراد أسماء الأعلام في الكتاب.

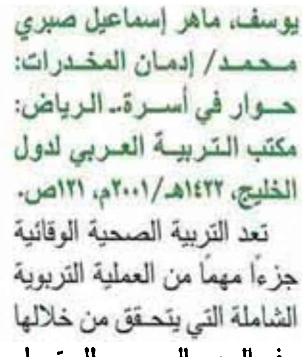


الحازمي، حجاب بن يحيى/ لمحات من الشعر والشعراء في منطقة جازان خلال العهد السعودي.- جازان: نادي جازان الأدبي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٢١٤ص.

هذا الكتاب محاولة لرصد العطاء الشعري في منطقة جازان، وتتناول الدراسة الفترة بين ١٣٥٠هـ و١٤١٩هـ، فبدأت بتمهيد أشار فيه المؤلف إلى ازدهار الشعر في منطقة جازان التي كانت تعرف قديماً بالمخلاف السليماني، ثم تطرق إلى ما أصابه من ضعف نتيجة تردي الحياة العامة في أواخر العهد العثماني على الرغم من وجود أسر علمية شهيرة في المنطقة، ثم أشار إلى اليقظة التي تحققت له أيام الحكم الإدريسي على قصر مدته، ذاكراً بعض أعلام تلك الفترة، وأبرز ملامح شعرهم وأثر التصوف الوافد في شعرهم. ثم تناول بدايات الشعر في العهد السعودي معدداً أبرز رجالاته مع الإشارة إلى تهذيب أفكارهم مما علق بها من الفكر الصوفي، ثم فصل الحديث عن تطور الشعر السعودي مبيناً أسباب ذلك التطور.

قسّم الكاتب شعراء هذه الفترة (١٣٥٠ - ١٤١٩هـ) أربعة أجيال: جيل الرواد، وجيل المحافظين، وجيل المجددين، وجيل الشباب.

وأورد المؤلف في الكشاف قائمة بأسماء شعراء منطقة جازان الذين طبعوا شعرهم مقرونة بعناوين دواوينهم الشعرية، وأشار إلى كثافة الشعر المخطوط، ودعا أصحابه إلى إخراجه عن طريق نادي جازان الأدبي الذي بادر إلى هذه المهمة.



يوسف، ماهر إسماعيل صبري محمد/ إدمان المخدرات: حوار في أسرة.- الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ١٢١ص.

تعد التربية الصحية الوقائية جزءاً مهماً من العملية التربوية الشاملة التي يتحقق من خلالها رفع الوعي الصحي للمتعلم وتكسبه عادات صحية سليمة، وتبعده عن كل ما يضر صحته.

يتعرض هذا الكتاب لقضية «إدمان المخدرات» بأسلوب حواري تربوي، راعى فيه المؤلف - وهو من المختصين في مجال التربية العلمية - سهولة الشرح، والتشويق، مع التركيز في دقة المعلومات علمياً وترتيبها منطقياً بشكل يسمح للقارئ الانتقال من جزء إلى آخر بتلقائية ويسر.

وتأتي فصول الكتاب في شكل مواقف حوارية واقعية تدور بين أفراد أسرة تمثل نموذجاً للأسرة العربية، فيتناول كل موقف أو لقاء مناقشة هؤلاء الأفراد لجانب من جوانب الموضوع، بداية من مفهوم الإدمان والمخدرات، ومروراً بأنواع المواد المحدثة للإدمان وتصنيفاتها، وتأثيراتها الضارة في الإنسان صحياً، ونفسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وأخلاقياً، ثم سبل تشخيص حالات الإدمان، ثم طرائق العلاج وأساليبه، مع التركيز على كيفية الوقاية من الإدمان كسبيل وحيد لتلافي تبعاته.

استعان المؤلف بعدد من الصور الفوتوغرافية والرسومات والجداول في شرحه للآثار المدمرة لتعاطي المخدرات، والمصير المظلم الذي ينتظر المدمنين.

ريس، ريتشارد وسيمون جيمس/ التعرف إلى العملات الرومانية، ترجمة: طلعت عبدالرازق زهران.- الرياض: الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٩٢ص (دراسات آثارية، ٣).

يقدم هذا الكتاب عرضاً تاريخياً وافياً عن العملات الرومانية يتضمن أهمية هذه العملات وأهم مصادرها، والواجب الذي يتعين على من يعثر على عملة رومانية قديمة، وعرض تاريخي موجز عن السّكة الرومانية، ثم أنواع السّكة وفئاتها المختلفة، وأنواع الطرز، والنقوش التي توجد عليها، ودور السّكة المختلفة وأسلوبها في سك العملات، ثم قدّم بعد ذلك مجموعة منتقاة من العملات المتنوعة للفترات المختلفة من بداية سكّ العملات إلى نحو عام ٤٠٢م، وقدّم نماذج من العملات المزيفة مع بيان طرائق التزييف المختلفة، وبيّن كيفية تعرف العملات المزيفة.

قدم المؤلف كذلك قائمة بالأباطرة الرومان إلى الربع الأول من القرن الخامس الميلادي، وأضاف المترجم بعض الإضافات والحواشي إلى النص الأصلي بغرض الايضاح، كما قدّم ترجمة للنقوش المهمة الموجودة على بعض العملات المختلفة، وقدم إرشادات لمن أراد التوسع في دراسة العملات الرومانية، وأهم المراجع المتنوعة الحديثة في هذا المجال وكيفية التعامل معها.

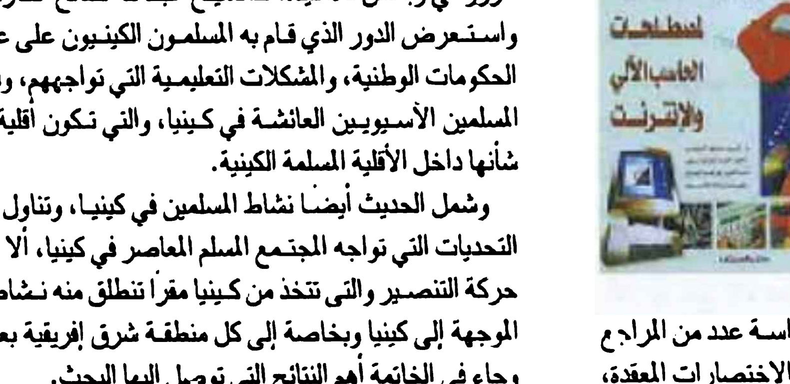
فاسيليف، ألكسي/ المراجع الخاصة بالمملكة العربية السعودية في المطبوعات باللغة الروسية.- موسكو: معهد الدراسات الإفريقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية، ٢٠٠٠م، ٢٤٧ص.

ترمي هذه النشرة إلى تغطية الكتب والمقالات ذات الصلة بالمملكة العربية السعودية والصادرة باللغة الروسية حتى عام ١٩٩٧م، مع نبذة مختصرة منها، ولم ترد في النشرة

الأعمال المثبتة للإسلام (ماعدا المذهب الوهابي بالذات)، وتاريخ الجزيرة العربية قبل القرن الثامن عشر، والأحداث في منطقة الخليج العربي التي لم تكن السعودية إلا أحد المشتركين فيها.

وجاء تصنيف النشرة وفقًا للترتيب الأبجدي الروسي لأسماء المؤلفين أو لعناوين الأعمال في حالة إدراجها في القائمة دون ذكر المؤلف، وتشمل القائمة الأشكال الآتية: أعمال عامة، والجغرافيا، والأثنوغرافيا والأنثروبولوجيا، والتاريخ، والاقتصاد، وقد تندرج بعض الأعمال في أكثر من قسم في وقت واحد.

وقد روعي عند ترجمة القائمة الإبقاء على الترتيب الأصلي كما هو عليه في القائمة الروسية، وذلك تجنبًا للخلافات وحفاظًا على الترقيم الموحد في دليل الموضوعات، وجاءت النشرة باللغتين العربية والروسية.



الربيعي، السيد محمود (وآخرون)/ المعجم الشامل لمصطلحات الحاسب الآلي والإنترنت.. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٥١٨ص.

يعد مجال الحاسب الآلي وشبكاته من أعقد الموضوعات العلمية والتقنية في مصطلحاتها وتركيباتها اللغوية، إذ يتطلب فهمها دراسة عدد من المراجع التي تشتمل على عدد من المصطلحات والاختصارات المعقدة، ولم تستطع الإصدارات القديمة من مواكبة هذا التطور السريع في مصطلحات الحاسب وشبكاته لعدة أسباب.

يشتمل هذا المعجم على كل ما هو متداول ومتاح حاليًا من مصطلحات علمية وتقنية في مجال الحاسب الآلي وشبكاته المحلية وشبكة الإنترنت، ويتميز باشتماله على شرح واف ومدعم بالرسومات التوضيحية الملونة لمعاني أكثر من ٢٠٠٠ مصطلح من مصطلحات الحاسب الآلي وشبكاته الواسعة والمحلية، بالإضافة إلى مصطلحات شبكة الإنترنت.

رتبت المصطلحات في هذا الفهرس ترتيبًا هجائيًا وفقًا للحروف الإنجليزية من A إلى Z، وذيل الفهرس بالكثير من الملحقات المهمة والمفيدة في مجال شبكات الحاسب والإنترنت.



حران، تاج السر أحمد/الأقلية المسلمة في كينيا.. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٣٢٣ص.

تنبع أهمية هذه الدراسة من فقر المكتبة العربية إلى ما يخص الدراسات عن الأقليات المسلمة في إفريقية بعامة، وفي كينيا بصفة خاصة، وقد حاول المؤلف في هذه الدراسة - من خلال ثمانية فصول وخاتمة - وصف البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي يعيش فيها مسلمو كينيا، وتاريخ دخول الإسلام إلى كينيا، وسمات ذلك الإسلام وخصائصه، والطبيعة التي ميزته من غيره.

كذلك تعرض الكاتب لبعض حركات الإصلاح الإسلامية التي قادها بعض العلماء أمثال الشيخ الأمين بن علي النافع المزروعي وبعض تلاميذه، كالشيخ عبدالله صالح الفارسي، واستعرض الدور الذي قام به المسلمون الكينيون على عهد الحكومات الوطنية، والمشكلات التعليمية التي تواجههم، وفئات المسلمين الآسيويين العائشة في كينيا، والتي تكون أقلية لها شأنها داخل الأقلية المسلمة الكينية.

وشمل الحديث أيضًا نشاط المسلمين في كينيا، وتناول أكبر التحديات التي تواجه المجتمع المسلم المعاصر في كينيا، ألا وهي حركة التنصير والتي تتخذ من كينيا مقرًا تنطلق منه نشاطاتها الموجهة إلى كينيا وبخاصة إلى كل منطقة شرق إفريقية بعامة، وجاء في الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.



هلالي، سعد الدين مسعد/ البصمة الوراثية وعلائقها الشرعية: دراسة فقهية مقارنة.. الكويت: جامعة الكويت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٥٢٨ص.

خطا الطب في الآونة الأخيرة خطوة متقدمة عندما نجح العلماء في تحليل الحمض النووي الذي يمكن في نواة الخلية، وتوصلوا إلى أن هذا الحمض يضم ستة وأربعين

كروموزوماً، نصفها من الأب، ونصفها الآخر من الأم يطلق عليها (الصبغيات)، كما يطلق عليها (الحمض النووي)؛ لأنها تسكن في نواة الخلية، ويطلق عليها أيضاً (الدنا) جمعاً لحروف D.N.A وهذه الحروف اختصاراً للاسم العلمي DEOXY RIBO NUCLEIC ACID أي الحامض النووي الديوكسي الريبوزي، وسُمي بذلك لأنه منزوع الأكسجين.

وقد دفع هذا الكشف بعض العلماء إلى الأخذ به في تحديد هوية الإنسان، وأطلق عليه البروفسور إليك جفري اصطلاحاً (البصمة الوراثية) محاكاة لبصمة الإصبع لدى الإنسان، والتي تكشف عن هويته، وكان ذلك في عام ١٩٨٥م.

تناول المؤلف في هذا الكتاب (البصمة الوراثية) باحثاً عن أحكامها وعلائقها الشرعية من ناحية بيان مدى عدّها دليلاً لثبوت حد القذف وحد الزنى، وثبوت النسب، وامتناع اللعان، ودعوى الاستلحاق، ودعوى التبني، هذا فضلاً عن بيان مشروعيتها وتكييفها وطبيعتها. وقد جاء ذلك في بابين وخاتمة وتمهيد، وجاء التمهيد بعنوان «الإسلام والعلم والبصمة الوراثية»، وتناول في الباب الأول «الأحكام الشرعية للبصمة الوراثية»، وخصص الثاني لـ «العلائق الشرعية للبصمة الوراثية»، وتضمنت الخاتمة أهم نتائج البحث.

الغامدي، عبداللطيف بن سعيد/ حقوق الإنسان في الإسلام.- الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢٩٢ص.

أصبح مصطلح حقوق الإنسان ذريعة تتخذها بعض المنظمات المشبوهة في هجومها على الإسلام والمسلمين، إذ يظهر كيلها بمكيالين في تفسيرها لهذا المصطلح، ففي الوقت الذي تتهم فيه المسلمين بالإرهاب وانتهاك حقوق الإنسان، نراها تغض الطرف عن رؤية كثير من المآسي في بقاع شتى في العالم. ولو أنهم نظروا إلى الإسلام نظرة منصف «لعلموا أنه جاء بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها، ومن ذلك حفظ الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وحرمة التعدي عليها، على أن حقوق الإنسان تعتمد في حقيقتها على أصلين: الحرية والعدالة، وهذه مقررة في القرآن والسنة بأبلغ ما تتوق إليه الإنسانية.

تناول المؤلف هذا الموضوع في بحث وصفه معالي الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الذي قدّم للكتاب بأنه «واحد من البحوث المهمة التي عنيت بهذا الموضوع واهتمت بدراسته، جاء في أربعة أبواب استوعب فيها غالب مسائله ومجمل أفراده، أتى فيه بما يعين المنصف على فهم هذا الموضوع، والحكم على هذه المنظمات وغاياتها ومقاصدها»، وتناولت فصول الكتاب الأربعة: «الإنسان ونظرية الحق»، و«أسس حقوق الإنسان في الإسلام»، و«حقوق الإنسان في الإسلام»، و«حقوق بعض الأشخاص بحكم وضعيتهم».



الجدعاني، حامد بن مدّه بن حميدان/ الوسوسة وأحكامها في الفقه الإسلامي.- جدة: المؤلف، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٤٧٨ص.

الوسوسة لغة واصطلاحاً لها عدة معانٍ، ويمكن تعريفها إجمالاً بـ «حديث النفس أو الشيطان بما لا نفع فيه ولا خير لذاته أو ما يؤدي إليه»، ويعرفها الأطباء من ذوي الاختصاص بـ «الوسواس القهري».

فمثلاً: من يكرر الوضوء عدة مرات، يتفق الفقهاء والأطباء على أنه موسوس، إلا أن الفقهاء يرجعون ذلك إلى إلقاء الشيطان، وأما الأطباء فيعدونه مرضاً كسائر الأمراض النفسية ويسمونه (الوسواس القهري)؛ وقد جاء إطلاق الوسوسة في هذا الكتاب على سياق اعتبار الفقهاء، مع عدم إغفال رأي ذوي الاختصاص من الأطباء.

تناول المؤلف هذا الموضوع في مقدمة وتمهيد وتسعة فصول جاءت على التوالي: «أسباب الوسوسة، وأقسامها، وحكمها»، و«حكم الوسوسة في الطهارة»، و«حكم الوسوسة في الصلاة»، و«حكم الوسوسة في الصوم والحج»، و«حكم الوسوسة في النكاح»، و«حكم الوسوسة في الأطعمة»، و«حكم الوسوسة في القضاء»، و«أثر الوسوسة على الفرد والجماعة»، و«طرق الوقاية من الوسوسة، وعلاجها».




مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية (مج٧، ع٢، رجب - ذو الحجة ١٤٢٢هـ/سبتمبر ٢٠٠١م - مارس ٢٠٠٢م)

مجلة نصف سنوية محكّمة.

تضمن هذا العدد من الدورية عدداً من البحوث والدراسات التي تتعلق بقضايا الكتب والمكتبات إلى جانب تاريخ المملكة العربية السعودية، استعرض في بدايتها عبدالله بن محمد المنيف، في باب الدراسات، «دور أئمة آل سعود في وقف المخطوطات في مدينة الرياض»، وعدد عبدالرحمن بن سليمان المزيني «المصاحف المنسوخة في القرن الحادي عشر الهجري بمكتبة المصحف الشريف في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة»، وشرح سالم محمد السالم «الدور الثقافي والتربوي لمكتبة الطفل»، وتناول فؤاد فرسوني المناهج المختلفة المستعملة في معالجة «تصنيف الصحف».

وفي باب الببليوجرافيات أعدت إدارة الإيداع النظامي في المكتبة قائمة «الكتب المترجمة في المملكة العربية السعودية خلال الأعوام ١٤١٧ - ١٤٢١هـ والمودعة في مكتبة الملك فهد الوطنية»، كما تابع خالد أحمد اليوسف حركة «التأليف والنشر الأدبي في المملكة العربية السعودية لعام ٢٠٠٠م - ببليوجرافيا»، وتتبع فؤاد أحمد إسماعيل «بحوث المكتبات والمعلومات السعودية في قواعد البيانات العالمية - دراسة تحليلية، وقائمة ببليوجرافية».

وفي باب المراجعات جاء كتاب «معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية - الباكستانية، تأليف أحمد خان، راجعه: أحمد الحسين، وكتاب «أصالة المصادر الرقمية نحو بيان للمتطلبات في عملية البحث لديفير بيرمن وجينيفر ترانت، ترجمة: سعد الزهري، بينما قدم أحمد علي تمراز عرضاً وتحليلاً لكتاب «آلية البحث في الإنترنت، محركات البحث، أنواعها مهامها، طرق البحث فيها»، والمنذر سوقير «التلفزيون السعودي من خلال الرسائل الجامعية للطلبة السعوديين في فرنسا»، وألقى وليد نذير عتمة «أضواء على كتب حديثة»، وتتبع عبدالله محمد حسين، في آخر أبواب الدورية «البحوث الجارية».

العنوان: الرياض ١١٤٧٢ - ص.ب: ٧٥٧٢
هاتف: ٤٦٢٤٨٨٨ - ناسوخ: ٤٦٤٥٣٤١



عالم المخطوطات والنوادر (مج٦، ع٢، رجب - ذو الحجة ١٤٢٢هـ/أكتوبر ٢٠٠١م - مارس ٢٠٠٢م)

ملحق محكم نصف سنوي يصدر عن عالم الكتب بدعم من مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض.

جاءت موضوعات الملحق في إطار تخصصه، ففي باب (المخطوطات - تحقيق) أعاد جاسر خليل أبو صفية تحقيق كتاب «يفعول» لرضي الدين أبي الفضائل الحسن بن محمد الصغاني (ت ٦٥٠هـ) الذي ذكر فيه ما جاء في اللغة العربية على وزن (يفعول)، ورتبه على حروف المعجم، وقدم أحمد رزق مصطفى السواحلي شرحاً وتحقيقاً لكتاب «الضاد والظاء» لابن سهيل النحوي.

وقدم قاسم السامرائي في باب (المخطوطات - دراسات) قاسم السامرائي دراسة عن «مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (مع الإشارة إلى كتاب المقفى الكبير)» لتقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ)، وكان أيمن فؤاد سيد قد حقق هذه المخطوطة وكتب مقدمتها، ونشرتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، كما قدم سليمان بن سليمان الراجح العنقري دراسة عن مخطوطة «شرح ابن مالك لألفية ابن معطي»، وأوضح التزييف الذي أوقعه النساخ في هذه المخطوطة التي توجد في مكتبة الجامع الكبير في صنعاء في اليمن، وسرد عصام محمد الشنطي في آخر بحوث الملحق «تاريخ النسخ في المخطوطات العربية».

العنوان: الرياض ١١٤٦٧ - ص.ب: ٢٩٧٩٩
هاتف: ٤٧٦٥٤٢٢ - ناسوخ: ٤٧٦٣٤٣٨

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية (ع٢١، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ/يونيو ٢٠٠١م).

مجلة إسلامية، فكرية محكمة نصف سنوية تصدر عن كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي.

غطت بحوث هذا العدد الكثير من المجالات في الدراسات الإسلامية شملت مباحث التفسير وعلوم القرآن ومقاصد الشريعة والتاريخ والحضارة الإسلامية وغيرها، بدأها د. السيد عبدالسميع حسونة ببحث عن «النظم القرآني في تفسير

القرطبي (دراسة أسلوبية)»، وعدّد د. صالح قادر الزنكي «مباحث التخطئة والتصويب في دراسات الأصوليين»، وطرح د. عدنان أحمد الصمادي رأياً للمناقشة عن «المياه العادمة المعالجة في محطات التقنية في الأردن وما شابهها في دول العالم الثالث وحكم استعمالها والانتفاع بها»، وتتبع د. عبدالحفيظ رواس قلعه جي آراء الفقهاء حول «العقوبة بالغرامة في الفقه الإسلامي»، وقدم د. قطب مصطفى سانو «قراءة تحليلية في مصطلح الاجتهاد الجماعي المنشود»، وتناول د. عبدالوهاب خليل الدباغ تاريخ «التحدي الصليبي للوجود الإسلامي في سرقسطة الأندلسية (٤٣٠ ـ ٥٠٣هـ/ ١٠٣٨ ـ ١١٠٩م)»، وقدم د. خالد إسماعيل نايف الحمداني دراسة تاريخية لـ «جامع قرطبة: نظامه التعليمي ودوره الثقافي».

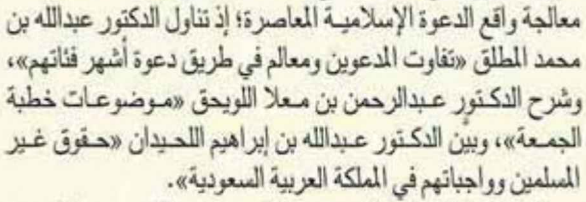
وناقش د. صبيح التميمي في دراسة لغوية «الترادف بين (جون لاينز، وعلماء العربية القدامى)».

وحققت الدكتورة أحلام خليل محمد خليل مخطوطة (زال) لأبي عبدالله حسين بن إبراهيم البارودي التونسي المتوفى سنة ١١٩٩هـ، وقدمت شرحاً لها من حيث معناها ومبناها وتمامها ونقصانها واستعمالها في لغة العرب.

وتتبع د. أحمد السيد أحمد حجازي، في آخر بحوث العدد «الاغتراب في شعر الرصافي».

العنوان: دبي، ص.ب ٣٤٤١٤
هاتف: ٣٩٦١١٧٧٧ ـ ناسوخ ٣٩٦١١٢٨٠

الإداري (س٢٣، ع٨٦، جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ/سبتمبر ٢٠٠١م)



دورية متخصصة في مجال العلوم الإدارية تصدر عن معهد الإدارة العامة في مسقط.

واصلت الدورية في هذا العدد نشر بعض البحوث والدراسات التي قدمت خلال المؤتمر العربي الأول للبحث العلمي والنشر الذي انعقد بمسقط في الفترة من ٣ ـ ٤ أبريل/نيسان ٢٠٠١م. تعرض د. عمر العوض ونبيل عبدالحافظ لـ «هموم ومعوقات النشاطات البحثية للباحثين الإداريين وسبل تلافيها: تجربة معهد الإدارة العامة وبعض كليات العلوم الإدارية بسلطنة عمان»، في أول بحوث العدد، ثم تناولت د. أمة اللطيف بنت شرف شيبان «تجربة معهد الإدارة العامة في إصدار دوريته المتخصصة (الإداري) ودورها في نشر الفكر الإداري»، وناقش د. نوزاد عبدالرحمن الهيتي «الفساد والتنمية: التحدي والاستجابة»، وأجاب د. وحيد بن أحمد الهندي، ود. محمد بن عبدالله الهران عن سؤال «تحويل المشروعات العامة إلى القطاع الخاص وسيلة أم غاية؟»، وشرح د. عماد يوسف الشيخ «نظام التكاليف المبني على الأنشطة».

وفي باب قراءات قدم قاسم عباس عيسى قاسم عرضاً وتحليلاً لكتاب «تطوير المنظمات تدخلات علم السلوك لتحسين المنظمة»، وجاء باب وثائق وتقارير عن «مؤتمر الاستشارات والتدريب» الذي عقد بدولة البحرين في الفترة من ٢٨ ـ ٢٩ مايو/أيار ٢٠٠١م.

العنوان: مسقط ١١٢ ـ ص.ب ١٩٩٤
هاتف ٦٠٢٣٨٦/٦٩٩٠٠٨/٦٠٢٢٥٢
ناسوخ: ٦٠٢٠٦٦

دراسات إسلامية (ع٤، ١٤٢٢هـ)



مجلة علمية محكمة تعنى بنشر البحوث والدراسات في القضايا الإسلامية المعاصرة، وتصدر عن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية.

جاءت البحوث والدراسات التي تناولتها الدورية في هذا العدد في مجال معالجة واقع الدعوة الإسلامية المعاصرة؛ إذ تناول الدكتور عبدالله بن محمد المطلق «تفاوت المدعوين ومعالم في طريق دعوة أشهر فئاتهم»، وشرح الدكتور عبدالرحمن بن معلا اللويحق «موضوعات خطبة الجمعة»، وبيّن الدكتور عبدالله بن إبراهيم اللحيدان «حقوق غير المسلمين وواجباتهم في المملكة العربية السعودية».

وفي باب تقارير وندوات شرح الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي «موقف الإسلام من العولمة في مجال الديمقراطية وحقوق الإنسان والسلام والأمن»، كما أوردت المجلة تقريراً عن ندوة «الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز، رحمه الله» عقدتها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود وزير الداخلية في الفترة من ٢١ ـ ٢٤ صفر ١٤٢٠هـ.

وفي باب عروض ومراجعات تناول الدكتور عبدالرب نواب الدين آل نواب بالعرض والمراجعة كتاب الدكتور أحمد بن عبدالعزيز الخلف «منهج ابن القيّم في الدعوة إلى الله تعالى»، كما تناول الأستاذ يوسف بن عبدالله الحاطي رسالة ماجستير غير منشورة من تأليف محمد إبراهيم محمد بعنوان «الدعوة الإسلامية المعاصرة في غانا».

العنوان: الرياض ١١٥٧٥ ـ ص.ب ٦١٨٤٣

في مفهوم التراث

أحمد علي محمد
حمص - سورية

يتأسس على لفظ «تراث» في ثقافتنا مفهومٌ ينجم عنه إشكال واضح من جهة اتساع مدلوله، وتشعب نواحي استعماله، وكثرة العلائق المتصلة به؛ ويبدو أن الدراسات المحدثة التي تناولته أسهمت إلى حدٍّ بعيد في تعدد مجالاته، فعمدت طائفة منها إلى ربطه بضروب النشاط المختلفة كالعلوم والحضارة والثقافة، فدُرس تراثُ الإنسانية وتراثُ الإسلام، وتراثُ العرب العلمي في الطب والرياضيات والميكانيكا والنبات والجغرافية والحضارة والفلك والبلاغة والشعر والتصوف والغناء.

وانصرفت طائفة أخرى من هذه الدراسات إلى عقد الصلة بين التراث والتاريخ، وبينه وبين الثقافة والثورة والمجتمع والمستقبل والحداثة والتجديد، وهذه إنما هي عناوين مطبوعة اليوم تعرضت للتراث من دون أن يفطن أغلب أصحابها إلى تحديد مراده بالتراث، فكان هذا المفهوم كثيراً ما يصعب تحديده، لا بل إنه غامضٌ لكونه يتضمن كل هذه العلاقات.

وإذا ما نظرنا إلى واحدة من المحاولات التي رمت إلى تحديد هذا المفهوم، وهي نادرة على كل حال، بطريق إيجاد تعريف للتراث يزيل عنه قدراً من الغموض، كمحاولة د. نعيم اليافي في كتابه «أوهاج الحداثة» وجدنا أن حظها من النجاح يسير، إذ التراثُ عنده تحدد بكل ما مضى من قيم ووصل إلينا حيّاً أو ميتاً، وقد ميز فيه بين نمطين: ما وافق عصره وصلح له وانقضى بانقضائه، وما وافق الإنسان واستمر به وعاش حتى الوقت الراهن.

التراث والتاريخ

وما يشي به هذا التعريف لا يزيل الغموض عن مفهوم التراث، ذلك أن جهة الإشكال تتركز حول التساؤل الآتي: هل كل قديم تراث؟ أو إن التراث هو التاريخ؟

إن ثمة فوارق واضحة بين التاريخ والتراث، منها أن التاريخ يصير تراثًا إذا نُقل إلى الفن، وهو بطبيعة الحال ليس تاريخاً بحسب الأصل، وإن كان جزءاً محرفاً منه، والدليل على ذلك الأحداث والحروب التي يفرزها تصارع الأمم وتصادمها، فهذه الأحداث تاريخ في الأصل تقبل الانتقال إلى الفن كما حدث في موقعتي عمورية والحدث مثلاً عندما انتقلنا إلى الشعر على يد أبي تمام والمتنبي، فصارتا جزءاً من تراث العرب، مع أنهما في الأصل حروبٌ ووقائع تدخل في تاريخ العرب والروم على حد سواء.

وهذا الأمر يصدق على تاريخ الأفكار أيضاً التي منها فكرة الخلود التي شغلت الإنسان منذ فجر تاريخه، إذ وعى منذ الأزل أن الخلود محال، وأن مجابهة الفناء لا تكون إلا بترك ما يدل على وجوده، فاحتاج إلى الفن ليسجل فيه طموحه في البقاء، ومن هنا احتفظ الفن بماضي الأمم واختزن طموحها وأمانيها، ووسع أفراحها وأتراحها فدخل من هذه الجهة في تراثها.

القيم لا تموت

لقد أخذت كل أمة بطرف من الفن، فالعرب استودعت في الشعر مآثرها، وسجلت فيه



أيامـهـا، وهـناك من الأمم من اتخـذ الرسم أو النحت أو المسرح، أو الموسيقى... فأصبح الشعر علامـة لتراث العرب، والمسرح علامة لتراث اليونان.

أما القيم التي تصل إلينا حيـة أو ميتـة بحسب ما ذهب إليه التعريف السابق، فلا ندري ما القيم التي يصيبها الموت؟ هل أراد قيم الأخلاق أم قيم الجمال؟



من المعـروف أن القيـم عامـة لا تفنى، بمعنى أنـهـا لا تُنعت بـالموت، فـانتـفـاء صـفـة الصـدق أو الشجاعة في شخص لا يعني أنها معدومة أو ميتـة، وإنما هي حيـة، ولكنها غير متحققة في هذا الشخص أو ذاك، فهي حية موروثة تتناقلها الأجيال، ومن شأن هذه الأجيال أن تأخذ من مجمل الفضائل ما يناسب حياتها وزمنها، ولهذا تجد في كل عصر، وعند كل شعب جملة من القيم العائمة على السطح، وأخرى كامنة في الأعماق، ومن شأن القيم الكامنة أن تبرز، والظاهرة أن تغيب من وقت إلى آخر، وهكذا تدور القيم في حياة الشعوب دوران فصول السنة، وهذا هو شأن قيم الفن أيضاً، فالشاعر الجاهلي لمّا نقل انفعاله بجمال المرأة فُتن بسعة عيونها، فأصبحت سعة العينين في ذاك الزمان قيمة جمالية رسخها الفن الجاهلي، وما انقضت حياة الجاهلية تحول الذوق عن هذه الصفة فصار الشاعر العباسي مفتوناً بالعيون الضيقة عندما أصبحت الجواري والقيان الأعجميات موضوعاً للغزل العربي، ثم تحوّل الذوق الآن عن هذه الصفة، وهذا لا يعني أنّ اتساع العين قيمة ميتة بعد انقضاء الزمان الذي برزت فيه، بدليل أن هذه القيمة اليوم حية عندنا.

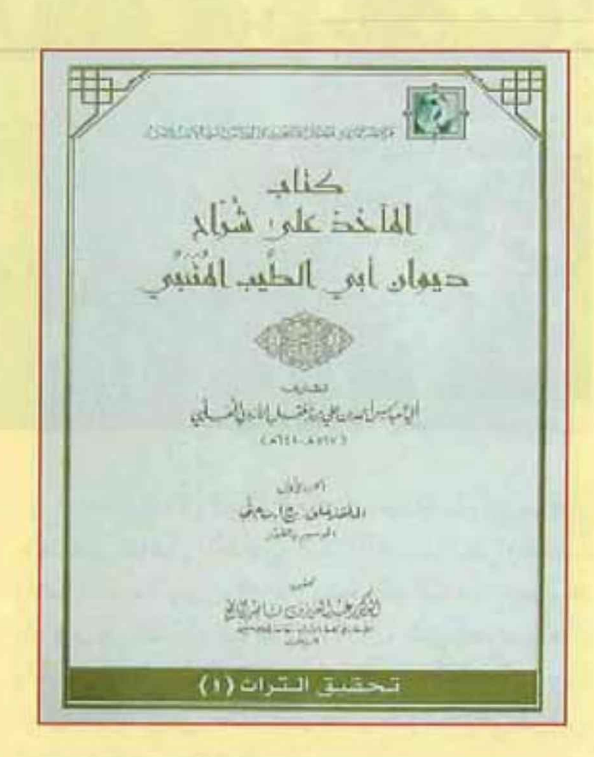
وهذا إنما يصدق على الفضائل جميعاً التي عرفتها البشرية بالفطرة، فأخذ كلّ شعب منا ما يناسب طبعه، ألا ترى أن العرب في مرحلة من مراحل تاريخها ارتفعت بفضيلة الكرم، واليونان اعتزت بفضيلة العقل، وهذا لا يعني أن العرب نكرت فضل العقل أو أن اليونان جحدت قيمة الجود، ولكن تركيز كل أمة في فضيلة جعلها ترتفع بها فتضعها على رأس القيم المعروفة لديها، ومن هنا تدخل تلك الفضيلة في تراثها مثل دخول الجود في تراث العرب، والعقل في تراث اليونان.

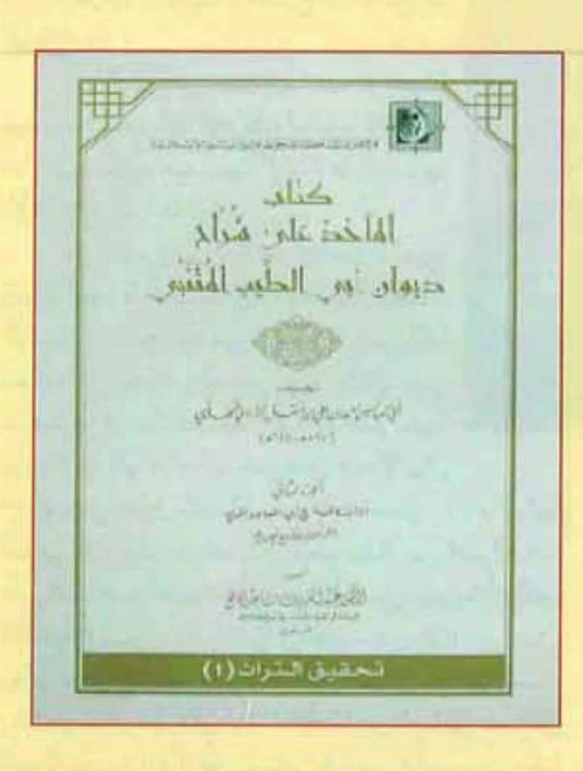
ومعروف أن الفضائل هيئات متوسطة بين طرفين مذمومين كما قال الأقدمون، فندرة الشجاعة جبنٌ وتخاذل، والمبالغة فيها تهور، وقلة الكرم شح والمبالغة فيه إسراف، والأصل في ذلك كله إنما هو الاعتدال، ولكن العرب بالغت بالكرم، واليونان بالعقل لعلة، إذ استلزم شح الطبيعة في بلاد العرب جوداً يفوق عطاء الطبيعة، ونظام الحكم في اليونان استلزم ارتفاع صوت العقل.

وفحوى القول: إن مفهوم التراث لا ينحصر في القيم بدليل المعنى المعجمي لكلمة تراث، فقد قيل أورثه مالاً كما قيل أورثه مجداً، فوراثة المال مادةٌ يقاس عليها كل ما ترثه الشعوب من متاع وأدوات ومبان ... فلهذا دُرست العلوم والحضارات ضمن إطار التراث.

ووراثة المجد معنى يقاس عليه كل ما يورث من القيم والعادات، على أن الموروث المادي لا يحمل خصائص الأمة مثلما يحمله المعنوي، ذلك أن الموروث المادي تدخله عناصر مستجلبة، لأنه يدخل في باب العلم والصناعات، وهو قدر مشترك بين الأمم، وقائم على التبادل والتأثر والتأثير، في حين يستوعب المعنوي شخصية الأمة، وما يدل على تفردها كما هو الشأن في فنها من شعر ورسم وموسيقى... إلا أنه لا يخرج على نطاق التراث، وهذا إنما يدل على أنه لا سبيل إلى حصر مدلول التراث، غير أن العلة فيه إنما هي التميز والتفرد، فكل ظاهرة تتصل بأصالة الأمة اتصالاً قوياً، وتميز شخصيتها بوضوح هي داخلة في تراثها بالضرورة.

صدر حديثاً عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية









يطلب من : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

إدارة التسويق ـ ص ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ ـ هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٥٩٩٩٣

